حكايات أثيرة

(نفوس أباة وغد مأمول)

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني: وفاء الساطي

حكايات أثيرة

(نفوس أباة وغد مأمول)

المشروع الوطني الإبداعي لتوثيق بطولات الجيش
والشعب العربي السوري
(1)

الإشراف العام
نصر محسن

لجنة الإعداد

انتصار بعلة

انتصار سليمان

أيمن الحسن

حسن ابراهيم الناصر

سمير عدنان المطرود

طلال سليم

طه الرحل

عيسى اسماعيل

ليلى صعب

ليندا ابراهيم

محمد أحمد الطاهر

محمد الحفري

محمد خالد الخضر

مضر الجباعي

نبوغ أسعد

التدقيق اللغوي: أيمن الحسن

.. ويعودون

"في أوقات السلام الأبناء يدفنون آباءهم، وفي الحرب الآباء يدفنون أبناءهم"، فحينما تأتي الحرب تُدمّر الحجر والبشر، ثم تنسحب مُخلّفة وراءها قصصاً ومواجعَ وأحداثاً تكفي مجلدات، ففي كل بيت عشرات القصص التي ستُروى للأجيال القادمة، ويجب أن تبقى راسخةً رسوخ جبالنا، وثابتةً ثبات قلوب مقاتلينا في ساحات الوغى.

ربما يشعر المرء بالعجز حينما يقف أمام أمٍّ شهيد ضحّى بنفسه، أو جريح فقد عضواً من أعضاء جسده في سبيل الوطن، ولأن الحرب، كما يقال، (تنتهي في حال عاد الموتى) حاولنا أن نبقي الشهداء على قيد الحياة، كيف لا، وهم مشاعل الانتصار على طريق الخلود، وأصوات الحق في زمن طغيان الباطل؟! لكنْ كيف يمكن أن يُؤدّى حقّ إنسانٍ بذل دمه، أو أُثخِنَ بالجراح، ليصون دماء أبناء وطنه؟! وكيف يمكن أن يُوفّى حقُّ إنسانٍ أدّى واجبه، وعاد مُشمّراً عن ساعديه ليبني الوطن؟! كيف يمكن أن يُؤدّى حقّ أمّهاتٍ قدّمن فلذات أكبادهنّ شهداء، واستقبلنهم بالزغاريد؟! أو حقّ أب قبّل العلم السوريّ على جثمانِ ابنه الشهيد، أو استقبل جراح ابنه حبّاً وكرامة؟! أو حقّ إخوة أو زوجة أو أبناء؟! أو حق عروسٍ زفّت عريسها للشهادة؟! كيف يمكن ذلك؟!...

إن ما قام به الكماة من أبطالنا لم يكن لأجل كلمة شكر أو موقف تقدير، بل استجابة إلى نداء الوطن، هذا النداء الذي كان في منزلة نداء الأم الكليم لأبنائها، فكان هؤلاء من أعظم من امتلك الضمير الحيّ. إنهم أصحاب تلك الأرواح النقية التي تحرسنا ليلاً ونهاراً، وتُحرّضنا على التمسك بوطننا والدفاع عنه، ولأن هذه الأحداث كثيرة ومتشعبة، ولها أهميتها في رسم وجه سورية ما بعد الحرب، وانطلاقاً من مسؤوليتنا أمام الذين رحلوا، والذين سيأتون، أمام أولئك الذين ركزوا أنفسهم في تراب الوطن، بادر اتحاد الكتاب

العرب في سورية إلى إعادة صياغة هذه القصص والأحداث في عمل أدبيّ يكون شاهداً تاريخياً على هذه الحرب، وهو شاهد حيٌّ يروي للأبناء قصص البطولة والإباء عَبْرَ زهور سقت برحيقها عطش الوطن، فأينع نصراً وظلالاً وارفة يستظل بظلها كل وطني أصيل.

لقد دخلنا بيوتاً على امتداد الرقعة السورية، واستمعنا إلى ما روته دموع الأمهات، وانتظار الأطفال، وصبر زوجاتٍ أرضعن صغارهن حليب النضال والمقاومة، كما أصغينا إلى كل ما تقوله فتحة في جدار بيت خلّفتها قذيفةُ حقد أو طلقةُ إرهاب... لقد كان من هذه المشاهد الكثيرة التي كرّرتها الحرب ما يهيج الأسى، ويُجري الدموع الغزيرة، ومنها ما يدعو إلى الفخر، ومنها ما يُعلّم الصبر والإرادة... إنها سفر الخلود في زمن الخنوع، وإرادة المقاومة في عصر التطبيع.

إن ما يميّز هذا العمل مادته التوثيقية التي هي قصصٌ، ليست من بنات الأفكار، إذ إنّ أهمّ عنصر فيها أنها حقيقية، ولا يستطيع القارئ إلا أن يعيش تفاصيلها، فهي ليست حكايات أدبية بمقدار ما هي بطولات واقعية.

نأمل أن نكون قد أدّينا بعضَ الحقّ إلى دماء الشهداء، والجرحى، والمفقودين، وذويهم، وهو أقل من الواجب تجاه بطولاتهم وتضحياتهم، وإذا كنا نفخر بهذا العمل فلأنّ قيمته من القيم العظيمة التي حملتها قصصُ أبطاله.

ختاماً لا بدّ من توجيه الشكر والتقدير إلى كل من أسهم في هذا العمل التوثيقي الإبداعي، والشكر موصول للإدارة السياسية في الجيش العربي السوري لما قدّمته من معلومات أغنت العمل.

د. محمد الحوراني

رئيس اتحاد الكتاب العرب

أساطير القرن الحادي والعشرين

أكثر من عشر سنوات، وتستمر الحرب دون هوادة، حرب أرادها أعداء سورية، أعداء الحق والخير والسلام، وكأنهم يريدون لهذه الجغرافية نهاية فاجعة، نهاية رسموها بغباء وحمق، ناسين، أو متناسين، أن سورية، سيّدة الشموس، لن تنتهي إلا أن يريد بارئها، فعكست كل حساباتهم الرعناء، واستمرت كما يعرفها البشر جميعاً، مهد الحضارات، منذ تكوّن الإنسان على وجه الأرض، وحتى ينتهي الوجود البشري فوقها.

هي إرادتهم الخاطئة، وقد ارتدّت إليهم خزياً وعاراً وانكساراً، أما إرادة السوريين فهي الباقية، وهي المنتصرة، وكيف لا تكون كذلك وقد شهد التاريخ حصانة هذه الأرض، وخصوبتها في توليد الانتصارات، هي بلاد الفينيق الذي لا ينتهي، ولا تفعل النار فيها إلاّ مزيداً من الإصرار على البقاء والخلود، ومزيداً من التصدّي لكل قوى الشرّ والعدوان والتوحّش.

ها هي تستعيد أساطيرها من جديد، وها هي تعلّم البشريّة كلها كيف يكون الدفاع عن الأوطان، وكيف يكون الإنسان إنساناً بحقّ، حين يأبى إلاّ العيش بكرامة وشموخ، وما الملاحم التي دارت فوق ثراها الطاهر سوى دروس لما نسي أن يتعلّم، ولمن لم يسعفه الزمن ليعرف طبيعة الإنسان السوري، تلك الطبيعة التي جعلت منه شبه إله.

حكايات تشبه الأساطير في تراجيديتها، وإن كانت الأساطير حروباً يتدخّل فيها الآلهة، فإن الحروب التي شُنّت على سورية تدلّ على تفرّد الأبطال في تحمّلهم وعنفوانهم وافتدائهم لوطنهم الغالي، يدخل المقاتل الحرب وهو على يقين من أنه لن يخرج كما دخل، لكن عقيدته وقناعته بأن سورية تستحق أن تُفتدى تجعله يعشق الاقتحام، فيقتحم وقلبه راية ترفرف خفاقة وصارخة: المجد... كل المجد لسورية.

عشر سنوات تنتهي بفرح لا حدود له، فرح أهالي الشهداء بانتصار أبنائهم، فرح الجرحى بانتصارهم، فرح الناس الذين صبروا وصابروا وجاهدوا، هو الفرح السوري يتألّق في كل بيت، تنهمر نجومه من عيون الأمهات دراً ولا أحلى! وفي عيون الآباء عبوساً لأزمنة قادمة، ومن ضحكات الجرحى سخرية من كائنات تشبه البشر وما هي ببشر، كائنات أرادت لسورية الموت، لكن إرادتها انهزمت، وديست تحت أحذية الرجال الرجال.

هنا تختلط الجروح، وهنا تمتزج الدماء الطاهرة في ظاهرة لم يشهدها التاريخ البشري على امتداده، لم يشهد بطلاً حارب سنوات عشر، ثم خرج ممتلئاً بالفرح، هذا ما حصل في هذه الحرب، رجال يحيلون عذاباتهم أفراحاً، وجراحهم انتصارات، رجال تركوا لأطفالهم جينات سورية تحثهم دائماً على جعل الكرامة أولاً، والتضحية في سبيل الوطن أولاً، ورفض الخنوع أولاً، والسعي إلى حياة عزيزة كريمة أولاً.

في سورية نردد الشعارات صبحاً ومساءً، شعارات تحمل معناها الحقيقي ترجمة بالفعل والأداء، مئات الآلاف من الشهداء كانوا يرددون: (بالروح وبالدم نفديكِ سورية) وهم ترجموا هذا الشعار في ساحات الوغى، فافتدوها بدمائهم وأرواحهم حتى انتصرت، وما زال الأبناء يرددون الشعارات الخالدة ذاتها، يدّخرون ترجمتها لِمحَنٍ قد تأتي، فقد علّمهم آباؤهم أننا نعيش زمن المفاجآت، ولا أمان لمن لا يمتلك القوة والعزيمة والبأس.

حكايات ننشرها بين دفّتي هذا الكتاب كواجب وطني، نعبّر من خلالها عن الروح السورية العظيمة وقد ملأت أجساد السوريين، ونرسم الصورة الحقيقية للمقاتل السوري بكل شجاعته وعنفوانه ونبله، وقد أفادنا بعض الجرحى الأبطال بما تحتفظ ذاكرتهم من أحداث عظيمة، وحكى لنا أهالي الشهداء بعضاً من الدرر التي كانت تتناثر من أحاديث أبنائهم الأجلّاء قبل أن يرتقوا إلى السموات أبراراً، حاملين كتبهم بيمناهم، داخلين أوسع الفراديس. وحكايات أخرى عن بطش الغزاة المجرمين بالناس المدنيين الآمنين، الناس العزّل إلاّ من أفتك سلاح على وجه الأرض، سلاح الإرادة والصمود والتضحية، ومن كان هذا سلاحه لا بدّ منتصر.

نصر محسن

ملف الشهداء

بين زفافين

حكاية الشهيد البطل علي أحمد جاسر

من محافظة طرطوس

اكتمل تجهيز البيت، وامتلأت وجوه الأهل بالفرح والرضا، فقد آن الأوان لتشكيل عائلة صغيرة أخرى، وكان "علي" يتجهز لهذا الأمر، يبحث عن عروس، يخطبها ويتزوجها، وينجب منها، شيء من الفرح يداعب خياله، سيستقر قريباً من أهله، فهو لا يطيق الابتعاد عنهم.

وصول الشرطي، وإبلاغ السيد علي أحمد جاسر بضرورة الالتحاق بوحدته العسكرية فور تبلغه تلك البرقية، غيّر مسار تفكير الأسرة كلها، فكل شيء سيؤجل إلى حين عودة علي من الخدمة الاحتياطيّة.

الوالدان والإخوة قلقوا، وربما حزنوا بسبب تأجيل ما قرروه ليلة أمس، أما علي فلم يعد عارفاً حقيقة مشاعره، هل يحزن أم يفرح؟ يحزن لتأجيل مشروع زواجه، أم يفرح لأنه في شوق لاحتضان حبيبة أخرى مختلفة، حبيبة لم يحضنها منذ زمن بعيد، حبيبة تزغرد ثلاثين زغرودة برشقة واحدة، وهي تنتظره الآن متأهبة المخازن والسبطانة، أمام جحافل المسلحين الإرهابيين.

ودّع أهله وأصدقاءه، والتحق بقيادة وحدته في دمشق، بقي هناك يومين، قبل أن يتسلم مهمة نقله إلى محافظة حلب، حيث تدور المعارك الطاحنة، كان ذلك في عام 2013 حيث تم نقله مع بعض رفاقه المقاتلين على متن طائرة عسكرية، لينضم إلى رفاق جدد، يعرف بعضاً منهم، وسيتعرف إلى بعضهم الآخر، وفي مزارع بلدة حريتان، القريبة من حلب، بدأ معاركه الأولى.

كان المسلحون الإرهابيون متمرّسين في نصب الكمائن، هذا ما يرويه المقاتل محمد علي الشيخ، وهو صديق الشهيد البطل علي جاسر، حيث وقع بعض الرفاق في كمائن المسلحين، لكن البطل علي جاسر كان يعرف كيف يتخلص مع رفاقه من شرك أكثر من كمين نصب لهم.

ومن حريتان انتقل الشهيد البطل مع بعض رفاقه، ومنهم صديقه القديم أحمد عزيز مهنا، الذي استشهد فيما بعد، انتقلوا إلى بلدة منيان الواقعة غربي مدينة حلب، والقريبة من مركز البحوث العلمية، وبقي هناك حتى عام 2016 حيث أصيب بطلقتين، إحداهما في يده، والأخرى في ساقه، تم علاجه ميدانياً، وتابع قتاله وهو مصاب.

يتحدث السيد أحمد جاسر والد الشهيد البطل، بما كان يحدثه ابنه الشهيد قبل استشهاده، أنه وبعد انتقالهم إلى جمعية الزهراء في الريف الغربي من حلب، وحين بدأت نوبة الحراسة، أن الشهيد، وقُبيل وصوله إلى المحرس، فوجئ بزميله الحارس القديم جثة هامدة قرب المحرس، وقد قطع رأسه، وعلّق في سقف المحرس، فقام على الفور بإبلاغ قيادته، التي أعطته الأوامر بالعودة فوراً، وترك المحرس إلى حين وصول مجموعة من رفاقه، وقاموا بسحب جثة الشهيد من المحرس، وعادوا بها إلى مكان آمن.

وفي "منيان" القريبة من حلب، أصيب الشهيد علي أحمد جاسر مرة أخرى، وأنقذه زميله المقاتل "عهد" وفي المستوصف سأل الشهيد علي عن زميله عهد، وفوجئ أنه استشهد.

يتابع السيد أحمد جاسر، والد الشهيد علي أحمد جاسر، ما كان يقوله ابنه الشهيد، وبعض أصدقائه:

- كانت جمعية الزهراء ملاصقة لتجمّع الإرهابيين، حيث كانوا يتمركزون في بناء القصر العدلي، بينما كان مقاتلو الجيش العربي السوري يتمركزون في أحد الأبنية المتصدعة، والملاصقة لبناء القصر العدلي، وبتاريخ 2016/2/5 ذهب الشهيد البطل إلى الحراسة في الحادية عشرة ليلاً _ وهذا ما يرويه المقاتل علي مصطفى الذي أصيب في الليلة ذاتها_ وحين كان الشهيد علي جاسر في محرسه، سمع أصوات طلقات نارية في الخارج، خرج المقاتل علي مصطفى ليستطلع ما يجري، ففوجئ بالشهيد البطل علي جاسر يتمشى أمام المحرس، ويقول إن الرصاص يأتي من جهة مجهولة، فأُرسِل المقاتل "الياس" لاستطلاع مكان إطلاق الرصاص، لكن الشهيد علي جاسر عرف مكان الإطلاق، وقام بإشارة لرفاقه بأن الرصاص يأتي من على سطح القصر العدلي،

وحين كان يشير بيده باتجاه المكان جاءته طلقة قناص صائبة، وكانت طلقة أخرى قد اخترقت يد المقاتل علي مصطفى وبطنه، لتخرج من ظهره، واشتد الاشتباك كثيراً، فقاموا بإسعاف الجرحى إلى المشفى العسكري في حلب، فنجا من نجا، واستشهد من استشهد، وكان الشهيد البطل علي أحمد جاسر من بين كوكبة الشهداء.

ومما يتذكّره السيد عدنان أحمد جاسر، وهو شقيق الشهيد، مما كان يسمعه من أخيه قبل استشهاده، أنه بقي محاصراً مع بعض زملائه مدة عشرة أيام في مبنى البحوث العلمية، وصمدوا هناك يقاتلون حتى جاءتهم قوة مساندة وفُكّ حصارهم.

وفي الفترة الأخيرة كان الشهيد البطل يطالب أهله بعدم الاتصال به حتى يقوم هو نفسه بالاتصال، فالمواقف كانت دقيقة، تقتضي الحذر الشديد.

وفي بوح آخر للشهيد أمام أخيه عدنان:

ـ أكثر ما كان يحزنني هو أعضاء أصدقائي الشهداء، كنت أجمعها وأدفنها، بعدما أؤدي أمامها صلاة الجنازة، وكأنني في موقف تشييع رسمي.

يقول الشهيد ذلك بعدما تعب من الكتمان، فهو لا يحكي إلا القليل، وبعدما تضجّ ذاكرته بسِيَر الأبطال الشهداء والجرحى، حينذاك لا يجد أمامه سوى أن يحكي لأحد ما، ربما يريح قلبه المتعب من أحداث كبيرة، وعظيمة بقدر قسوتها.

يعود السيد أحمد الجاسر، والد الشهيد للحديث، قائلاً إنه كان يحمل روحاً وطنية فوارة بحب بلاده وأهلها الشرفاء، وكم كان يحزن حين يسمع أن سورياً انضم إلى الإرهابيين ليقاتل جيش بلاده، كان في صدره قلب من حديد، مقدام، جسور، فدائي.

وحين يتحدّث الوالد عن ابنه الشهيد تشعر وأنت تستمع إليه أنك أمام رجل أسطوري، تمعن في تفاصيل حديثه، فتغصّ أنت، بينما هو يحدّق في وجهك بعينين كعينيّ صقر غاضب، وبكل هدوء يخفض الأب صوته:

ـ كان علي يعرف أنه سيستشهد، كان يتوقع ذلك، وهذا أمر طبيعي لمن أمضى ستّ سنوات يتنقل من معركة إلى أخرى.

ويستأنف السيد عدنان جاسر، شقيق الشهيد:

ـ كنا نصعد معاً في إجازته إلى سطح بيته الذي أعدّه ليكون منزل الزوجية، يبتسم بسخرية، يراقب بيوت القرية والقرى المجاورة، تنظر إليه فيخيل إليك أنه في عالم آخر، وحين يمرّ موكب شهيد ما، وما من يوم يمضي إلا وتمرّ عدّة مواكب للشهداء، كان يتمتم بصلوات صامتة، ثم يبتسم ويبوح لي أنه لا يرى موكبه بعيداً، وإنما عما قريب سوف يمرّ موكب الشهيد علي أحمد جاسر، وقد مرّ بالفعل بكامل الرهبة والهيبة.

فخر لنا أننا أهل شهيد، وأكثر ما أعتز به هو أنني شقيق الشهيد.

الآن، وقد تحوّل بيت الشهيد علي أحمد جاسر إلى روضة أطفال، تديرها شقيقته وبعض زميلاتها، كان من المناسب جداً هذا التصرّف من الأهل الكرام، حيث يتعرّف الأطفال إلى ما تركه لهم الشهداء العظماء، وأن لا معنى للشهادة إذا لم نتعلّم منها مزيداً من الدروس، أطفال سورية هم الأجدر ليتعلموا قيم الشهادة، وليحافظوا على مكتسبات أورثهم إياها شهداء سورية المخلصون.

***

تاريخ الاستشهاد 2019

زهور آل فضيل

حكاية كوكبة من شهداء جبل الزاوية الأبطال

محافظة إدلب

ليس غريباً على هذه العائلة العريقة الأصل والجذور أن تقدم هذا الكم من الشهداء في سبيل الوطن، وهم أحفاد المجاهد الكبير مصطفى حج حسين، الذي انحدر من إحدى قرى جبل الزاوية، ليكون مع رفاقه في جبهات القتال لدحر العدو الفرنسي عن أرض وطننا الحبيب.

آل فضيل هم أيضاً من جبل الزاوية، محافظة إدلب، ومن سلالة عريقة، عاشت حياتها كلها في النضال الوطني، والهم الإنساني، الذي حملوه على عاتقهم للسير قدماً في دحر الإرهاب الغاشم الذي فرخته الصهيو أمريكية، لمحاربة أبناء سورية الأبطال، لكنهم وقفوا في وجهه حتى نالوا شرف الشهادة والعزة والكبرياء، وكانوا رجالاً عاهدوا الله فصدقوا، ليرتقوا فوق ترابها، ويعطروها بشذى دمائهم الطاهرة.

ما رواه عمار أحمد فضيل عن هؤلاء الشهداء، وما قدموه من بطولات، هو مدعاة فخر لنا، رغم دمعات القلوب التي تنعي رحيلهم عن أولادهم وأسرهم وأهلهم وذويهم.

يبدأ السيد عمار أحمد فضيل حديثه عن الشهيد مصطفى قدور فضيل، ابن الشهيد قدور فضيل الذي طالته يد الغدر في معرة النعمان بتاريخ 2012/7/1 وهو يقاوم الإرهابيين بكل شجاعة وبسالة، وبصدر رحب مقبل على الموت:

تميّز الشهيد مصطفى فضيل بقوة شخصيته، وبجرأته التي أعطت لباقي رفاقه حافزاً للتصدي والصمود في وجه الإرهاب، حتى باغتوه غدراً، ليرتقي شهيداً على تراب الوطن.

أما الشهيد الطيار عبد الله مصطفى فضيل، المقاتل في مطار كويرس العسكري، الذي استطاع صد هجمات المعتدين، وهو في مقدمة الرفاق،

وشوكة في حلوق الجبناء، بقي يقاومهم حتى ارتقى على أرض المطار بتاريخ 2013/4/21 وعيناه مليئتان بالرضا، لأنه ما خذل قومه أو أرضه.

ويتابع عمار حديثه عن الشهيد محمد بن عبد الكريم فضيل، من مجموعات (إحسم)، وهو من قام بتشكيل هذه المجموعات مع أسامة فضيل، الذي ترأس هذه المجموعات، وبتمويل شخصي، وذلك في بداية الأزمة في شهر تموز لعام 2011، فنال "محمد" شرف الشهادة على أرض قرية (قميناس) بعد أن نصب المسلحون الإرهابيون الكمائن لرجال الجيش، وكان محمد يحرس الحاجز بعيون تشع حقداً ولهيب نار في وجه أولئك الإرهابيين، متابعاً تحركاتهم، وأثناء الهجوم الذي طال الحاجز، تصدى لهم مع مجموعته التي طلب من رجالها الانسحاب خوفاً عليهم، لكثرة المهاجمين والانتحاريين، وقال لهم:

ـ أنا سوف أحميكم، وأفديكم.

فنال وسام الشهادة والشرف بتاريخ 2013/2/25.

أما الشهيد حسين حسن فضيل، الذي لقبه رفافه بـ (أسد المدفعية) في حلب، لجرأته واستبساله في حصد رؤوس الإرهابيين والمعتدين بالمئات، فحقدوا عليه ووضعوه في مقدمة الذين استهدفتهم أدوات إجرامهم، فأرسلوا لهم صاروخ كورين على مقر كلية المدفعية، حيث نال شرف الشهادة مع رفاقه بتاريخ 2016/8/5 بعدما أرسلوا لهم حوالي خمس عربات مفخخة، إلا أن الصاروخ هو الذي قضى عليهم، ليكون عيد ميلاد صديقهم زاهر معهم بالجنة، كما تنبأ له حسين، فارتقوا جميعاً في ذلك اليوم.

ويتابع عمار أحمد فضيل حديثه الذي يملؤنا بالفخر والكبرياء عن الشهيد ممدوح عبد اللطيف فضيل، الذي خاض أعتى المعارك ضد الخونة والمتخاذلين في جبال اللاذقية، والتي استمرت بشكل متواصل مدة يومين كاملين، حتى ارتقى شهيداً بين جبال اللاذقية بتاريخ 2019/11/8 لتصطبغ حجارتها بلون دمائه الزكية، وتنبت زهور الأقحوان في كل شبر من تراب الوطن، لترويها دماء الشهداء.

***

شهيد ابن شهيد

حكاية الشهيد البطل شعبان رضوان العوجا

من محافظة حمص

الانتماء للوطن قبل كل شيء، هو شعور داخلي لدى الإنسان، شعور نابع من المنبت والتربية، والحسّ الوطني الصادق لدى الأهل، ينتقل سلوكاً وممارسة إلى الأبناء، وقد يكون مصير الأهل عاملاً مضافاً لما سبق ذكره.

هل تتذكرون حادثة تفجير الأزبكيّة في دمشق، في ثمانينات القرن الماضي، من قبل عصابة الإخوان المسلمين؟ لا بدّ أن من عاش واعياً يومذاك يتذكّر تلك الجريمة جيّداً، كان من بين الشهداء في تلك المجزرة الشهيد رضوان العوجا، وهو أبو الشهيد البطل شعبان رضوان العوجا.

كان شهيدنا شعبان حينذاك طالباً في كلية الهندسة البتروكيميائية، في جامعة البعث، وبعد استشهاد أبيه، تنامى لديه الشعور الوطني، حتى غدا محدداً لمصير الطالب الشاب، فترك دراسته الجامعية والتحق بالكلية العسكرية، وهنا يأتي عامل مصير الأهل ليكرّس حسّ الانتماء الوطني.

في هذه الحرب اللئيمة، كان من الطبيعي أن يتذكّر استشهاد أبيه، وقد تولّدت لديه القناعة بأن هؤلاء الأشرار المجرمين ليسوا سوى أحفاد، بالفكر والعقيدة، لأولئك المجرمين الذين حرموه من أبيه.

في بداية الحرب هُجِّرت عائلته أكثر من مرّة، وذلك بوضع لصاقات تهديد على باب بيته، مما اضطرّه إلى التنقّل مع عائلته، وعدم الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة، وعلى الرغم من قرب المسافة بين عمله ومنزله، لم يكن يأتي إلى المنزل إلا نادراً، حيث يقضي معظم أوقاته متنقلاً بين جبهات القتال المنتشرة حينذاك في مدينة حمص وريفها.

كانت البداية في أحياء حمص، "بابا عمرو"، و"الخالدية"، و"الوعر"، وعلى يديه وأيادي رفاقه الأشاوس حسمت معارك كثيرة في ضواحي مدينة حمص، ثم انتقل إلى منطقة "مهين" و"الزارة" حيث كانت المعارك تشتد يوماً بعد يوم، وفيها أصيب بطلق ناري في ساقه، إصابة أعاقته عن متابعة القتال على الجبهات الساخنة مدة شهر كامل، لكنه بقي يتابع عمله وإدارته للمعارك عبر الأنترنت.

وما إن استطاع الحركة بحريّة حتى عاد إلى رفاقه المقاتلين، ليتابع حربه ضد العصابات الإجراميّة في "صدد" و"جبورين" و"قلعة الحصن" وحين احتدمت المعارك في شمال اللاذقية انطلق إلى هناك مقاتلاً شرساً لا تلين عريكته، أبلى فيها بلاء حسناً، واستطاع مع رفاقه تحرير القرى التي احتلها المجرمون، معتقدين أنهم لن يخرجوا منها، وذلك لأنهم لا يعرفون عزيمة وبسالة الجيش العربي السوري.

ومن ريف اللاذقية الشمالي، إلى ريف إدلب "جسر الشغور" وإلى حماة "شطحة" يتنقّل شهيدنا البطل بين ساحات ممتلئة ناراً ورصاصاً، وكأنه محصّن بحرز ربّاني.

في جسر الشغور كانت إصابته الثانية، في ساقه أيضاً، وكانت أشدّ إيلاماً من إصابته الأولى، مكث في منزله عدّة أيام، بين زوجته وأولاده.

وهنا تروي زوجته السيدة اعتدال الوعري كيف كان يتنقّل قافزاً على ساق واحدة، وأحياناً يضطر إلى الاستناد على كتف أحد أبنائه، ولم ينتظر حتى يشفى تماماً، بل التحق برفاقه المقاتلين الذاهبين في مهمة قتالية إلى مدينة تدمر، حيث أصيب للمرة الثالثة في كتفه، لكنه لم يهتمّ للأمر، بل تابع قتاله حتى استطاع رفع العلم العربي السوري على قلعة تدمر.

هي الروح الفدائية، الروح الحاملة لحسّ وطنيّ عالٍ، أورثه إياها والده الشهيد، فباتت العامل الرئيس لحياته كلها، وكأنها مرهونة للدفاع المقدّس عن وطن مقدّس.

بعد انتهاء المعركة، وإذاعة خبر التحرير على قناة التلفزيون الوطني، اتصل الشهيد البطل بزملائه وهنأهم بالانتصار، ثم اتصل بزوجته ليطمئنها بأنه قادم

إلى حمص برفقة ابنه المقاتل البطل عمار شعبان العوجا، وكيف ستكون البهجة لدى الزوجة والأولاد! فالزوج والأب الغالي، برفقة الابن والأخ، سيأتيان اليوم، فليحتفل البيت كله بقدومهما.

هي الفرحة الوهميّة تنتشر في أرجاء المنزل، قبل أن يأتي الخبر الصاعق، فأثناء عودته إلى مقر القيادة تم قنصه في سيارته وبين زملائه وابنه، فارتقى إلى العلياء شهيداً.

من مآثر الشهيد البطل شعبان العوجا أن أحد المقاتلين من أهالي مدينة حلب، استشهد في إحدى المعارك، واسمه (أحمد الخطيب) وكان من الصعوبة نقله إلى ذويه في حلب، فما كان من شهيدنا البطل شعبان رضوان العوجا إلاّ أن شيّعه إلى قريته في ريف محافظة حمص، ودفنه هناك، ثم أقيم له حفل تأبين لائق.

وتواصل الشهيد البطل شعبان مع أهل الشهيد أحمد الخطيب، وأخبرهم بمصير ابنهم، وكيف تصرّف كما يتصرّف الأبطال النبلاء، حيث تقدّس تراب ريف حمص بجثمان شهيد حلبي، وتقدس جثمان ذلك الشهيد بتراب القرية الطاهر، هي وحدة المصير... وهي وحدة التراب... ووحدة الوطن الجامع لكل مواطنيه بجغرافية واحدة، تضمّ أبناءها مهما اختلفت عقائدهم، ومهما تباعدت أماكن إقامتهم، فهم السوريون بحق، أبناء هذه الأرض الحاضنة لأوابد وحضارات تفرّدت بها، وتباهت بتفردها على العالم أجمع.

ومن مآثره أيضاً كان عمله المستمر في المصالحة الوطنية، حيث استطاع إقناع أطراف متنافرة كثيرة بالمصالحة، والالتقاء معاً في القضية الأساسية، وهي مصلحة سورية الوطن.

***

تاريخ الاستشهاد 2016

ابتسامات حزينة

حكاية الشهيد البطل عصام عبد الله

محافظة طرطوس

من قرية نائية في الجبال الساحليّة، إلى مدينة طرطوس، يسافر عدّة مرّات في اليوم، كان يعمل سائقاً على حافلة ركاب صغيرة، شاب نشيط مندفع، محبوب من كل معارفه، استطاع من عمله شراء شقة سكنية في المدينة، باشر بكسوتها وتجهيزها، وكان سينهيها لولا أن الدعوة للالتحاق بوحدته العسكرية عبر برقيّة استدعاء للخدمة الاحتياطيّة أراحته من هذا العناء، هكذا كان يقول مبتسماً في وجه أمه وأبيه وإخوته.

في الحادي عشر من شهر أيلول لعام 2012 تمّ تبليغه بالدعوة للاحتياط، وبعد أيام قليلة، كان مع رفاقه المقاتلين يحرس مبنى إدارة المركبات في بلدة حرستا في ريف دمشق، ومن حافلة الركاب الصغيرة إلى عربة ال (ب ر د م) انتقل لينتصب شامخاً خلف منصة ال (دوشكا) فأيّ فرح يغمر ذلك الوجه المبتسم بلطف؟! وأيّ فرح طفولي يملأ قلب ذلك المقاتل الشاب؟!

ثلاثة شهور فقط، أو أقلّ بقليل، استمر ذلك الفرح، وتلك الابتسامة التي لن ينساها أبداً رفاقه المقاتلون، ثلاثة شهور لم يره أهله سوى مرّتين، الإجازة الأولى مدّة يومين، حصل عليها لإحضار بعض لوازمه الشخصيّة، والإجازة الثانية كانت أطول من الأولى بعدّة ساعات، وكم من الأسئلة تعرّض لها من الأم الحنون والأب العطوف:

- كيف تقضي وقتك مع هذه الحرب اللئيمة؟

وكان لا بدّ له من أن يطمئن أهله وأحبته:

- (لا حرب ولا شي، مقضينها أكل ومرعى وقلّة صنعة، حتى الآن ما شفنا شي خطير، ولا رح نشوف، الأمور تمام التمام والحمد لله).

وكان قادراً على إقناع الجميع بما يمتلك من مصداقية وثقة، لكن قلوب الأهل ستبقى قلقة ومضطربة، فما تسمعه من أخبار يتعارض مع ما يقوله الابن البارّ، والمعارك حامية الوطيس في أرياف دمشق، وخصوصاً في منطقة حرستا حيث مكان خدمته، لكنهم لا يملكون سوى الدعاء والأمنيات الطيبة له ولرفاقه الأبطال.

ومع نهاية الإجازة الثانية، ودّع أهله بطريقة مختلفة، كأن ابتسامته غابت، أو أنه احتفظ بها للقاء آخر، صعد الحافلة دون أن يصافح أخاه الذي أوصله إلى مركز انطلاق الحافلات، ودون أن يودّعه، فقد اكتفى بنظرة باردة وحزينة لم يألفها الشقيق المحبّ، ويروي شقيقه السيّد نظام عبد الله قائلاً:

- في البداية استغربت صعوده الحافلة دون وداع، نظرت إليه من خلف الزجاج، فاكتفى بنظرة محايدة، عبس قليلاً، وأشار بكفّه مودّعاً، لم أشأ أن أعاتبه، حتى بالنظر، لكن قلبي بدأ يخفق بطريقة غريبة، وكأنه ينبئني بأمر لا يسرّ، انطلقت الحافلة وازداد شعوري بالقلق، فشقيقي عصام لم يفعل ما فعله ذلك الصباح طيلة حياته.

وكما ودّع الشهيد البطل عصام عبد الله رفاقه قبل إجازته، كذلك استقبلوه، فالمعارك في حرستا لم تكن لتتوقف طيلة الأشهر الثلاثة التي أمضاها الشهيد عصام مقاتلاً عنيداً، فالعربة (ب ر د م) تنتظر، ومنصة ال (دوشكا) اشتاقت لزنديه الفتيين.

خمسة أبطال وعربة ومنصة صواريخ، تلك هي مجموعة الشهيد البطل عصام عبد الله، ودّعهم منذ يومين، وها هو يعود ليكتمل نصاب المجموعة، امتطى الجميع العربة، وراحوا يتجوّلون حول بناء إدارة المركبات العسكرية، ذلك البناء الذي لم يبقَ سواه خارج سيطرة المسلحين الإرهابيين، وقد أقسم المقاتلون جميعاً بألاّ يبرحوا المكان، فإما منتصرون، وإما شهداء.

أيام قليلة بعد انتهاء إجازته، والتحاقه برفاقه، أيّام لم يعرف فيها المقاتلون ليلهم من نهارهم، ففي النهار حرب، وفي الليل حرب، والمعارك دائماً في اشتداد.

وفي إحدى المهامّ القتالية، سطّرت مجموعة الشهيد عصام عبد الله ما سيفخر به كل من عرفهم، فقد انطلقوا كالنمور باتجاه أحد المباني، حيث

يتمركز المسلحون الإرهابيون، وهناك أمطرت السماء صواريخ ورصاصاً، مما جعل الإرهابيين يندحرون متراجعين إلى منطقة أخرى، واستمر الرصاص وصواريخ الدوشكا تلاحقهم.

هو الانتصار، وفرح الانتصار، ملأ قلوب المقاتلين الأشاوس، وهي الهزيمة والانكسار خيّمت فوق رؤوس الإرهابيين، فما كان منهم إلا أن جمعوا أنفسهم وعادوا للهجوم، ربما يعوّضون بعض خساراتهم أمام مقاتلي الجيش السوري البطل.

وفي إدارة المركبات، في ساحتها الواسعة، كانت مجموعة الشهيد عصام عبد الله تستريح بعد عناء معركة من أعقد المعارك وأشرسها، بعض المقاتلين يستلقي على الأرض، وبعضهم الآخر يتكئ على جسد العربة ويدخّن، وكأنهم اطمأنّوا على انتصارهم وسلامتهم، لكن الأيدي الغادرة لم تمهلهم ليفرحوا بانتصارهم، فقد كانت القذيفة الصاروخية تبحث عنهم، وحين وجدتهم سقطت بينهم بعدما دمّرت الجدار المقابل.

(الحصيلة شهيدان وثلاثة جرحى)

وكان المقاتل المحبوب عصام عبد الله أحد الشهيدين.

نقل الجميع إلى مستشفى تشرين العسكري، حيث تم علاج الجرحى، وتشييع الشهيدين، ومن مشفى تشرين العسكري في دمشق، إلى المشفى العسكري في طرطوس، نقل جثمان الشهيد عصام عبد الله، ليستقبله أهله بالدموع والزغردات، ومن هناك إلى قريته الجبليّة سار الجميع في موكب مهيب، هكذا يودّع أبناء تلك القرى الطيّبون أبناءهم، وقد نذروهم قرابين للوطن الغالي، هناك سينبت التراب زهراً أحمر يلوّن تلك الجبال، ويثبت أنها جديرة بأبنائها الأبطال الميامين.

***

تاريخ الاستشهاد 2012

الابتسامة الأخيرة

حكاية الشهيد البطل يونس مرداش

من محافظة حماة

الكلمات التي حفرها يونس مرداش على تلك الصخرة الكبيرة، قبل استشهاده بأيام قليلة، بُعيد عودته من تأبين صديق شهيد، تلك الكلمات كانت آخر ما تركه للذكرى، ذكرى ستبقى طويلاً في ذاكرة الأهل والأصدقاء.

يقول محمد مرداش، شقيق الشهيد يونس، والذي يكبره بأعوام قليلة:

- لقد كان الحزن يخيم على قلبه الطيب والحنون، والدمع يتساقط من مقلتيه بين الحين والآخر، حزناً على صديقه الشهيد الشاب، وطوال الطريق، قبل أن نصل إلى تلك الصخرة، كان حديثه كله عن الشهادة والوطن الذي يجب الدفاع عنه، وبذل الأرواح لأجله، وعندما وصلنا إلى موقع الصخرة، التي كنا نلعب عليها ونحن أطفال، أخرج سكيناً صغيرة وراح يحفر عليها هذه الكلمات:

(.. أوعى تنساني كي لا تنسى الوطن ..)

وعندما سألته ما الذي تفكر به يا أخي؟

رد بحسرة وتنهيدة أشعلت قلبي بنار الخوف:

- سآتيكم يوماً ما شهيداً، وسأكون أول شهيد في قريتنا.

لم أستطع أن أخفي لسعة الخوف، وقد وخزت داخلي، وجعلتني أختنق في غصتي، عدنا إلى البيت، وكانت أمي تعدّ الأطعمة المتنوعة على نار الحطب وهي منهمكة، فقد كان هذا اليوم هو عيد لقريتنا، وعيد عند أمي لرؤية ابنها.

اقترب يونس يمازح أمي، ويحاول التقاط صورة له تجمعه معها، وهي على تلك الحالة، فتقول له والضحكة تغمر محياها:

- لا تصورني على هذه الحالة يا يونس.

لكنه صمم على ذلك، وكأن قلبه يشعره بالموت القادم، ثم التقط صوراً لكل إخوتي وأخواتي وأولادهم الذين ملؤوا الدار بالصخب واللهو، ثم جلس تحت ظل شجرة الجوز الكبيرة، وراح يتأمل الأشجار والمزروعات، ويراقب السماء، ولا أعرف أين سرح فكره إلا عندما رأيت الدمع يتساقط على وجنتيه، اقتربت منه والدتي وسألته بمَ تشرد يا حبيب أمك وقرة عينها؟

أجابها:

- تذكّرت صديقي الذي دفناه اليوم، ذهب لقضاء العيد في الجنة.

ثم تابع حديثه:

- أمي، أريد أن أطلب منكِ طلباً، وأتمنى أن تنفذيه أنت وإخوتي، فلو جئتكم يوماً ما شهيداً؛ فلا تندبوني كما فعل أهل صديقنا اليوم.

ارتعبت أمي من كلامه، وكاد قلبها ينفطر خوفاً وحزناً، أجابته:

- بعيد الشر عنك يا ولدي، لماذا تقول ذلك، أتريد لقلبي الموت؟

كان علي، أخي الأكبر، يسمع حديثنا، ويشاهد ردود الفعل التي تمزق قلوبنا المرتعدة، فقال بصوت عال ليسمعه يونس:

- يا أخي لو جئتنا يوماً شهيداً ستكون فخراً لنا، ولكل أبناء قريتك، وسيضعك الوطن وساماً على صدره.

انقضت أيام العيد، وانتهت إجازة يونس، وقد ودّع كل من في القرية من حجر وشجر، وإخوة وأخوات وأطفال أشقائي، وقال لأمي:

- جهزي نفسك يا أم علي في الإجازة القادمة سوف أصطحبك لتخطبي لي حبيبة قلبي.

سرنا معاً في القرية، وكأنه كان يودعها، يسلم على كل من يصادفه في الطريق، ويلامس أغصان الشجر، ويداعب أطفال القرية، كان قلبي يشعر بأنه سوف يرحل عنا من خلال تصرفاته، وحاولت أن أمازحه طوال الطريق، لأبعد تلك الغصة التي علقت في قلبي.

التحق يونس مجدداً مع رفاقه في "داريا"، حيث تدور حرب ضروس في تلك السنة، يونس كان يخدم في إدارة مكافحة المخدرات، وتم نقله إلى داريا، حيث كانت الحرب في أوجها، وفي ليلة شديدة الظلمة هجم فيها الإرهابيون على المنطقة، ودارت بينهم وبين الأبطال معركة حامية الوطيس، كان يونس يحمل على ظهره علم سورية، وأقسم أنه سيرفعه في داريا يوم النصر، اشتد عليهم الحصار، وكانت المجموعة تقاتل بشراسة وإقدام، وكان صديقه (فاطر كزعور) لا يفارقه لحظة واحدة.

تقدمت المجموعة إلى الأمام، وعاد إطلاق الرصاص بكثافة، الظلام كان موحشاً، وضراوة المعركة أنستهم لسعات برد كانون، أصيب بعض الرفاق، وأحس يونس أن الخطر يحدق بالجميع، طلب من رفاقه ألا يبرحوا أماكنهم كي لا يصطادهم الإرهابيون، وطلب من (فاطر) أن يتراجع، وأحس فاطر أن يونس يريد أن يتقدم وحده، فحاول منعه من التقدم، لكنه أبى ذلك، وقال له:

- يا صديقي، الوطن غال، ويحتاج للتضحيات، ولن أسمح للإرهابيين أن ينالوا منه، ومن كرامته.

وفتح ذراعيه للموت بقلب جريء لا يعرف الخوف، كما فتح نيران بندقيته عليهم، وتقدم بسرعة البرق باتجاههم، ورفاقه يصرخون بقلوب خائفة: (عد يا يونس، عد سوف يقنصونك) لكنه ظل متابعاً طريقه نحو الموت، مصمماً على المواجهة، يقاتلهم بروح تعشق الشهادة، حتى أتته رصاصة قناص غادرة، اخترقت عينه اليمنى، وقف يونس، ووضع يده على عينه المصابة، والدم يقطر منها ويبلل بذلته العسكرية، ويده الأخرى مازالت تقبض على الزناد.

اقترب منه (فاطر كزعور) الذي روى لنا كيف جثم على ركبتيه بهدوء، وهو يستند إلى بندقيته التي لم تخذله يوماً، والتي تلطخت بدمه الطاهر، وضعها بجانبه وتعانق جبينه والتراب، أقسم (فاطر كزعور) على أن يونس كأنه كان يصلي ويركع للتراب، وأكد فاطر ورفاقه الذين حملوه إلى المشفى أن الابتسامة لم تفارق وجهه حتى وصل إليها.

ويتابع أخو الشهيد يونس حديثه:

- وعندما اتصل بي فاطر وأعلمني بإصابته، سارعت إلى مشفى الشهيد يوسف العظمة، كان ما زال حياً، وما زالت يده على عينه المصابة، وجسمه بدأ يبرد، قلت له:

(لا تمت يا أخي، سنقاتل معاً، ما زال الوقت مبكراً على رحيلك)

أمسك يدي وضغط عليها بقوة، يحاول أن يقول شيئاً، وابتسامة الرضا ما زالت تجمّل وجهه الذي تلطخ بالدماء، قبلته بشغف وحرارة، وبكيت على صدره، فضغط بقوة أكبر على يدي التي سرت فيها البرودة بعد أن فاضت روحه.

كانت عينا الأخ تومضان ببريق حزين، وتخفيان فخراً لا يمكن تجاهله، عبس وابتسم، وتابع الحديث:

- كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، من اليوم الثاني عشر، من سنة 2012م. توقيت رسم بدقة إلهية لاستشهاد أخي يونس، وعدت بيونس شهيداً إلى القرية، ليكون له كما أراد، فهو أول شهيد في قريتنا، لتزفه القرية بعرس يليق به كعريس للشهادة، استقبلته القرية بالزغاريد والرصاص، وسار به رفاقه في طرقات القرية وبساتينها، حتى وارياه الثرى، وسميت مدرسة القرية الابتدائية باسمه بعد سنة ونصف من استشهاده.

واليوم، كلما مررت مع والدتي من أمام المدرسة، تقف وتنظر إلى صورته التي تزينها المصابيح الكهربائية والزينة، وتقول له، وهي على يقين أنه يسمعها:

- يا قلب أمك... ما أجمل هذه الابتسامة!!!

***

تاريخ الاستشهاد: 2012

المنزل الآخر

حكاية الشهيد البطل محمد غصّة

من محافظة اللاذقية

في دمشق، استطاع الحصول على بيت، وذلك بعد قرض تسليف له، وقرض تسليف لزوجته، وبدأ بتأثيثه بما يليق بموظفين، وحين أكملا فرشه أحسا بتلك النعمة التي لا يشعر بها سوى المستأجرين.

صحيح أن الديون تراكمت عليهما، لكن الله يعين، ساعده أهله وأقرباؤه قدر استطاعتهم، حتى استقرت الحياة قليلاً، وهدأ بال الشهيد البطل محمد غصّة، فلم يعد مطالباً في بداية كل شهر تسديد أحد الراتبين بدل إيجار.

في بداية عام 2011 ومع نشوب ما يسمى (الثورة) كانت مهمته محصورة في مدينة دمشق، حيث وحدته العسكرية، ومع امتداد الحرب انتقل مع قسم من مقاتلي وحدته إلى مدينة حلب، حيث اضطرمت المعارك هناك بين الجيش العربي السوري والعصابات الإرهابية.

كان للشهيد البطل محمد غصّة مآثر بطولية في دمشق وريفها، وانتقلت تلك المآثر معه إلى حلب وريفها، تنفّس هواء دمشق واللاذقية وحلب، فامتلأ بالطيب والوطنية والحماس، حتى بدأ رفاقه في السلاح يحذّرونه من مغبّة حماسه، ويعدُّونه نوعاً من التهوّر، لكنه كان يردّ دائماً أن الوطن في حالة تحتاج الحماس والبطولة والفداء.

في ريف دمشق أصيب الشهيد البطل إصابات طفيفة، لكنه لم يكترث لها، وكان يستطيع البقاء في البيت لقضاء فترات نقاهة، وهو لم يفعل، لأن الجبهات تناديه، وتلك عبارة طالما رددها كلما عاتبه أحد رفاقه.

عند ذهابه إلى حلب، كان قلقه الوحيد أنه ترك زوجته في دمشق، لكنه يعود فيطمئن لأن أقرباءه وجيرانه يعرفونه حق المعرفة، ولا يمكن أن يتأخروا في تقديم أية مساعدة للزوجة الوحيدة.

وفي حيّ (خان العسل) التابع لمدينة حلب كانت معركته الأخيرة، وكان واضحاً أن المسلحين الإرهابيين خططوا جيداً لتلك المعركة، ولم يكن الأبطال القادمون من دمشق للقتال في حلب ليتراجعوا أمام وحشية الإرهابيين المدججين بأحدث الأسلحة وأكثرها فتكاً.

هو حيّ العسل، الحيّ الآمن، يتعرّض لأبشع أنواع البطش والإجرام، وهم الوحوش القادمون من شتى بقاع الأرض ليحاربوا في بلاد الشمس والحق والخير والإنسانيّة، وتلك قضيّة لم يستوعبها الشهيد البطل محمد غصّة ورفاقه المقاتلون، وكأن ما يجري أمامهم ليس سوى فيلم أمريكي طويل، تأخذ فيه البلاد دور الضحية، وأبناؤها دور المدافعين الأشاوس، بينما المجرمون، أولئك المقاتلون السلبيون، الذين لا يراعون حرمة لأحد، أولئك أحفاد الأبالسة، والشياطين الجوالين.

سقط في المعركة كثير من الأبطال شهداء على ثرى خان العسل، وأتى الأمر بالانسحاب، فالمعركة لم تكن في صالح أبطال الجيش، والأفضل في رأي القادة حينذاك هو الانسحاب إلى حين يعيدون تجهيز مقاتليهم لمعركة سدّ الدين.

وقف الشهيد البطل محمد غصّة يتأمل حال رفاقه المنسحبين، ويراقب زملاءه الذين تحولوا إلى جثث في العراء، سأل قائده:

- وهل نترك جثث زملائنا هكذا؟

وكان الجواب أنهم سيعودون لسحب جثث الشهداء حين تواتيهم الفرصة، محمد لم يقتنع، وصعب عليه أن يترك رفيق سلاحه القريب منه يموت هكذا، موتاً مجانياً، استأذن محمد من قائده لسحب جثة رفيقه الشهيد، حذره القائد من مغبّة التقدم نحو الشهيد، فالقناصون يمتلكون فضاء الساحة كله، ولن يترددوا بإطلاق النار:

- أنت تمنحهم فرصة قتلك يا محمد، فلا تفعلها.

- والله يا سيدي لن أترك جثة رفيقنا الشهيد وأعود مهزوماً، ولتكن النتيجة ما تكون.

- لسنا مهزومين يا محمد، سنعود وننهي كل شيء، وستكون خان العسل محررة بالكامل على أيدينا.

- أنا واثق من أننا سنعود، ولكن قد لا نجد جثث الشهداء، ماذا سنقول حينذاك لأهاليهم؟

ولم ينتظر الشهيد محمد جواب القائد، بل اندفع صوب جثة رفيقه الشهيد ليسحبها...

(ما رأيك يا محمد غصّة؟ ما رأيك بتلك الرصاصات التي سكنت صدرك؟ تنظر إلى ينابيع الدم الفوّارة من جسدك القوي، أقصد الذي كان قوياً قبل هذه الينابيع الحمراء، هل أنت تترنّح وتسقط؟ أم أنك ستتابع تقدمك باتجاه جثة صديقك؟ أعرف أنك لا تستطيع الإجابة، فالينابيع الحمراء خدّرت جسدك المتين، وتركته يتهاوى، فلتصعد يا محمّد لاحقاً بصديقك، تترافقان إلى جنّة وسعها السموات والأرض، هناك منزلك ينتظرك، لن تقلق بشأن مبلغ الإيجار، ولن تهتمّ بتأثيثه، فهو قد أعدّ لك بأجمل مما تتخيّل)

***

تاريخ الاستشهاد 2011

نبض القلب

حكاية الشهيد البطل أنزور أباظة

من محافظة القنيطرة

رصاصة قاتلة..

عصفور يتطاير ريشه نحو السماء السابعة

وردة تذبل ويبقى عطرها إلى الأبد..

دائماً تبدأ الأم حديثها من النزوح عن مدينتها الغالية:

ـ كنت أذهب مع جدَّتي، ونتجوّل في حواري القنيطرة كلِّها خلال ساعة من الزمن، فإذا حضرتها الصلاة بالقرب من الكنيسة دخلتها، وتوجهت إلى القبلة لتصلي، بينما أنا الطفلة الصغيرة أتأمَّل هذه الصور المرسومة على الجدران، والأيقونات المصفوفة إلى جوار بعضها على الموائد الواسعة هنا وهناك، وتلك الرسوم البديعة على قبة الكنيسة، فتأخذ بيدي بينما أنا مندهشة مذهولة من هذا المكان الجميل، وهي تقول لي:

ـ هذا بيت الله.

جدتي "الحاجة نانا" معروفة بصرامتها وقوة شخصيتها، وحفاظها على حاجات البيت ومستلزماته، وقد عملت لكل حفيد فرشة ولحافاً، وتركت يومَ نزوحنا المشؤوم تلك الفرشات واللحف محفوظة في مكانها المعتاد، ومغطاة بشرشف أخضر جميل بانتظار أن نعود.

تبتسم "أم خالد" وهي تتذكر مشهداً ما نسيته حتى الآن على الرغم من مرور أكثر من أربعة وخمسين عاماً:

ـ مساء، ونحن على سطح مضافة جدي في قرية "الغسانية"، كنا نرى حلقة ضوء مثل المرآة تسقط وقت الغروب من السماء، فسألت عمي عنها قال:

ـ هي انعكاس قرص الشمس، وهو يغطس في بحيرة طبريا يا ابنتي.

ولكن عندما نزحنا من القنيطرة لم نأخذ معنا شيئاً: "طلعنا بلا ولا شي".

مردفة في تنهيدة مؤلمة تمزِّق الصدر:

ـ زخم الحرب في الزبداني ومضايا أشنع بكثير من حرب حزيران عام 1967.

وهنا استحضرت أمُّ الشهيدِ تلك الأيام العصيبة خلال هذه الحرب الفظيعة على سورية: هجمات عنيفة في كل وقت، حصار خانق وقذائف جهنمية، وتفجيرات، ومعارك متواصلة...

وكان ابني "أنزور" يوصيني: "ماما بالليل ارخوا البرادي قبل ما تفتحوا الشبابيك، لأنها مبينة على جبال لبنان حيث يوجد المسلحون".

أيامذاك كان زوجي يقاتل في حماة، ومعه ابني البكر "خالد"، وعندما أُجبرت على المغادرة مكرهة من بيتنا في الزبداني تساءلت:

ـ كيف سأترك أشياء بيتي المحببة إلى قلبي، وكل غرض فيه لي معه عشرة عمر وذكريات سنوات طوال؟

لذلك أخذنا صورنا الشخصية، حفظناها على "الهارد" ثم سيَّفناها على "السكنر". بعد ذلك حرقناها قبل أن نغادر، وأنا أتذكر أمي تقول لي بعد النزوح المشؤوم عن مدينة القنيطرة، إذ لم نأخذ معنا إلا بعض الأوراق الرسمية المهمة بانتظار أن نعود قريباً:

ـ طفولتكم ضاعت مني حين نسيت صوركم في البيت، فضاع كلُّ شيء.

*

تقول السيدة أم الشهيد أنزور:

- بعد نجاحه إلى الصف التاسع التحق بدورة كشافة، أقيمت في لبنان، وتعرف خلالها إلى صديقين من الجنوب أصبحا توءمي روحه.

كان متميزاً في كل شيء ولا يستطيع أحد، أياً كان، منعه من فعل ما يريد...

لقد أخذ طباع أبيه بحركته وإقدامه وجرأته التي قد تصل إلى حد التهور أحياناً، فلم يدخل الخوف قلبه أبداً.

كان أبوه يريده ضابطاً في الكلية الحربية، وهو يرغب أن يصبح طيّاراً، لذلك قَرَّر أن يرسله إلى الأردن للدراسة في كلية الطيران المدني، وقد توقع له الأساتذة أن يكون أنجح طيار، مع أنه كان يأمل أن يصبح طياراً عسكرياً مثل عمه الشهيد ممدوح. وقد بقي له ثلاثة شهور يتدرب خلالها على الطيران الليلي حتَّى يتخرَّج.

مع اندلاع الحرب على سورية، طُلب لتأدية الخدمة العسكرية، فالتحق رافضاً أن يقبع في بيته، مقرراً بكل حزم وحسم الدفاع عن وطنه، هذا الدفاع المقدس الذي تربى عليه من والده الإنسان الفذ والضابط القائد المغوار.

قبل أن يخرج "أنزور" في مهمة قتالية كان يقبِّل المصحف الشريف الموضوع إلى جوار رأسه طوال الوقت، ثم يرفعه إلى جبينه في إجلال وتعظيم، بعد ذلك يمضي إلى مهمته في اقتحام مواقع تجهيز وصناعة المتفجرات في مزارع "الزبداني" و"مضايا"...

وفي كل مرة بعد أن يدخل معركة ويعود سالماً يركض نحوي يمازحني:

ـ نفدت من "عزرائيل" هالمرة كمان يا أمي.

مرة خابرته على المحمول وسألته:

ـ أين أنت؟

أجابني:

ـ ماما سكري لو سمحتِ ما بطول وأنا بحكي معك.

ولم يقفل جهازه، إذ كان في وضع صعب كما يبدو، بل وضعه في جيب بنطاله مثل عادته. ولم أقطع الخط من عندي، فسمعته يهمس لرفيقه:

ـ تعال نروح من هذا الطريق.

ردَّ عليه:

ـ لا من هون أسلم.

وأنا أسمع صوت حركة أقدام متواثبة على الأرض مع رشقات متقطعة مدة تقارب نصف الساعة. فجأة قال له رفيقه:

ـ خبِّر القائد أننا محاصران.

وإذ مد "أنزور" يده إلى موبايله أغلقت الخط فانتبه، وكان ذكياً حاذقاً، أن الجهاز مضاء، لذلك أعاد الاتصال بعد مدة فتصنعت أنني نائمة، وردت عليه أخته طلب منها أن تعطيني الهاتف، فكلمته رجاني:

ـ كرمى لله يا أمي لا تعمليها مرة ثانية: بركي سمعتِ صوت رصاص أو انفجار وما عدت سمعتِ صوتي، شو كان صار فيكي؟

رددت قائلة:

ـ لكان احرص على نفسك ولا تجنني عليك.

قبل أربعة شهور تعرض لكمين محكم، استطاع بعون الله التخلص منه، وقد أدَّى إلى انخلاع كعب رجله اليمنى.

وتستدرك الأم الجسورة في إرادة فولاذية لا تلين:

ـ على أرض المعارك كثيرون قاموا ببطولات وأعمال عظيمة أكثر من ابني "أنزور"، ويجب علينا أن نذكرهم ونوثق بطولاتهم، خدمة للتاريخ والأجيال القادمة: ابني عنصر من عناصر هذا الوطن، وهناك آخرون أهم منه في المعارك والقتال، مع أنه كان محبوباً من الناس، لأنه يساعدهم، ولم يقصر مع أحد من الأصدقاء والأصحاب، مضيفة:

ـ عندما استشهد رفيقه "منصور" الذي كان يقول له: "أنت أخي الذي لم تنجبه أمي" أخذ صورته، ووضعها في غرفته، وصرت كثيراً ما أشاهده يبكي أمامها بحرقة وألم شديدين، منذ ذلك اليوم راح يرسل راتبه كاملاً لزوجته أمِّ التوءمين.

كان يؤكِّد أن أسوأ ما يمكن أن يحصل له وقوعه بين أيدي المسلحين، لذلك حين أصيب مرة ودخل المستشفى رأى كابوساً إذ شاهد الموجودين حوله مغطسين بالدماء بينما هو لا يستطيع التنفس، فيكاد يختنق، لحظات وجاءت الممرضة، وإذ شاهدته مضطرباً في تألم واضح صاحت للدكتور المناوب، فحضر فوراً، وقام برفع ضغطه ليستيقظ بعد قليل.

وفي السادس من شهر كانون الأول لعام 2012 بين الساعة السادسة والسابعة صباحاً تعرض لكمين في منطقة "جديدة الشيباني": كان معه مرافقه "وسام" في سيارتي الجديدة كيلا يعرفوه، فبقيا يقاومان حتى إذا ما أصيب "وسام" فتح "أنزور" باب السيارة وواجههم مقاتلاً ببسالة، إلى أن أصابته عدة رصاصات في

صدره، عندئذ وقعت بندقيته على الأرض، فأصبح نصفه في السيارة، ونصفه الآخر خارجها.

وقد أوصى الشهيد قبل ذلك أن ندفنه في مقام السيدة زينب، أو في مدينة القنيطرة إلى جوار أخيه وتوءم روحه "أصلان"، ولكننا لم نستطع فعل ذلك لاحتدام المعارك في "السيدة زينب" وسيطرة المسلحين على "القنيطرة"، فدفنته في حديقة بيتنا تحت العريشة، هناك حيث كنت سأبني له مطبخاً يعدُّ فيه الطعام اللذيذ كعادته، وصرت كيفما جلست في البيت أراه...

بعد انتصارات الجيش العظيمة التي حرر فيها تراب وطننا الغالي سورية، ولأن إكرام الشهيد أن ندفنه في المكان الذي أوصى به قررت أن أدفنه بجانب أخيه هناك في مدينة القنيطرة، المكان الأحب إلى قلبه.

***

تاريخ الاستشهاد: 2012

فيروز والمعركة الأخيرة

حكاية الشهيد البطل محمد محسن أحمد

من محافظة طرطوس

في مشغل الألمنيوم، كان يغلب على الشهيد محمد أحمد التوتر والقلق، والشرود الدائم، مما أثار انتباه زملائه في العمل:

- (محمد... شبك؟ من كم يوم مانك على بعضك)

يتجاهل ملاحظة زميله ويتابع العمل.

تكررت حالته تلك إلى أن اضطرّ إلى التصريح بما يشغله:

- (والله اللي عم يصير بهالبلد غريب عجيب، مو معقول هالجرائم كلها تحصل هون، بسورية، لازم نساوي شي)
- (إي لا تفكّر كتير، واحمد ربك اللي لحدّ الآن ما سحبوك احتياط)
- (يا ريت يعملوها. وليش حتى انتظر ليعملوها؟ ما اعملها أنا؟!)

وفي فترة الغداء ذهب إلى أهله، وقد عزم على الذهاب غداً إلى مديرية التجنيد ليطلب الالتحاق بوحدته العسكرية، لكنه فوجئ ببرقية استدعائه تنتظره في بيت أهله.

كان البيت كله قلقاً وحزيناً، ودموع أمه السيّدة (أم أحمد) لا تكفّ عن البريق، ابتسم الشهيد محمد، ومضى إلى الطاولة البعيدة، تناول برقية الاستدعاء للاحتياط، قبّلها وانطلق إلى آلة التسجيل، وراح صوت فيروز الذي يحبه حدّ الوله، راح ينداح في جوّ البيت باعثاً الصخب بأغنية (خطة قدمكن عالأرض هدارة)

ترك أهله في حيرتهم من تصرفه، ودخل غرفته، تناول أدوات الرسم وبدأ يرسم ويدندن أغاني مختلفة، الأغاني تتسارع إلى مخيلته مع بدء الرسم على الخشب، دخلت أمه إليه:

- (قوم عالغدا حبيب قلبي).

هزّ رأسه وابتسم بوجه أمه الحزين.

في صباح اليوم التالي انطلق شهيدنا البطل إلى مديرية التجنيد، حمل مهمته وأسرع إلى مركز انطلاق البولمانات، وفي مدينة حمص التحق بوحدته العسكرية، سائقاً للدبابة التي ستكون رفيقته في الشهادة.

معارك كثيرة خاضها على مدى الأيام التالية، وكانت المعركة الحاسمة في ريف حماة، بلدة مورك، حيث يكثر الإرهابيون المدججون بالسلاح الحديث والمتطوّر.

رفاق الشهيد يتحدثون عنه بأسف وأسى عميقين، فقد رحل الشاب المعطاء الكريم، لم يكن ليعتذر عن أي طلب يُطلب منه، فزملاؤه المقاتلون غالباً ما يفتقدون إلى المال، وكان دائماً يلبّي، وإن لم يستطع يلجأ إلى الاستدانة ليسدّ حاجة زميل مضطرّ.

وفي أغلب الأحيان، أوقات الاستراحة، تتحوّل خيمته إلى مرسم، يحفر صورة دبابته على الخشب بأكثر من وضعية، فهنا رابضة مستكينة، وهنا متأهبة للانطلاق، وهناك تقذف نيرانها صوب مساحة سوداء، كقلوب أولئك الإرهابيين المسلحين.

في بلدة مورك، كان البطل الأول في الاقتحام، يشجّع زملاءه، فيلحقون به، وفي تاريخ 2014/3/8 اقتضى الأمر التدخّل بالدبابات، فكانت دبابته الأولى، وتلقّت الصاروخ الأول، فكان الشهيد البطل محمد محسن أحمد في مقدّمة شهداء تلك المعركة، ليرسم دبابته بالأحمر، وقبل أن يغمض عينيه كانت اللوحة قد اكتملت، والأنهار الصغيرة الحمراء تلتفّ حول جسده راسمة آخر اللوحات.

الأهل في طرطوس قلقون، لكنهم مطمئنون قليلاً، فقد أخبرهم ابنهم البطل أن المكان قريب من طرطوس، وسوف يزورهم باستمرار، وكان غالباً يفي بوعده، أما الآن فالوفاء مختلف، لقد أوفى بالوعد، وأتى ضمن تابوت ملفوف بالعلم السوري.

غالباً ما تدخل أمه (السيدة أم أحمد) غرفته وتبدأ الحزن والغناء، يعاتبها ابنها البكر (أحمد) ويصل صوت الأب المكلوم (السيد أبو أحمد) حامداً الله على كل شيء، أما الأخوات فينتظرن قدوم الأم إلى آلة التسجيل، ليصدح صوت فيروز، ويملأ المكان بالأغاني التي طالما عشقها ورددها الشهيد البطل محمد محسن أحمد.

لروحه الرحمة والسلام.

***

تاريخ الاستشهاد: 2014

"أبو زينب"

حكاية الشهيد البطل عبد المهيمن محمود الشحادة

من محافظة درعا

ولد عبد المهيمن محمود الشحادة في مدينة "بصرى الشام" التابعة لمحافظة درعا. حصل على الشهادة الثانوية مرتين، فبعدما نال شهادة الفرع العلمي تقدّم إلى امتحانات الفرع الأدبي كرمى عيني محبوبته "مهى" التي كان يحتفظ بأيِّ شيء تلمسه يداها.

بعد ذلك تزوجا وظلَّ مصمِّماً أن يسمّي مولوده البكر "زينب" ولو كان ذكراً. هذا ما تقوله أمُّه السيِّدة أمُّ حسين مردفة:

ـ وقد سجل في جامعة دمشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية /قسم الترجمة.

عبد المهيمن يتمتع بذكاء فطري، وهو صاحب حضور لطيف، يروي الحوادث ومجريات الأمور بطريقة كوميدية جميلة، فيها نفحة من الطرافة والنكتة المدهشة.

أغرم أيام طفولته المبكرة بلعبة كرة القدم حتى أصبح مهووساً بها طوال الوقت. ما تعلَّق بالدنيا يوماً، فقد كان همُّه بعد اجتياح المسلحين لمدينته الغالية "بصرى الشام" أن يحررها منهم مستعدّاً للتضحية بروحه فداءَ ذلك لا سيَّما وخطيبته "مهى" قرَّة عينيه كما يدعوها تسكن في الجانب الشرقي من المدينة حيث يوجد المسلحون الذين اختطفوا أخاها وعذبوه بقسوة في محاولة لإبعادها عن خطيبها، لذلك ترك دراسته الجامعية والتحق بصفوف الدفاع الوطني وبقيت "الطابة" أقصد كرة القدم ترافقه إلى حيث محرسه مع كل مناوبة.

كان بارّاً بوالديه ولا سيَّما والدته التي لا تنام حتى يعود من محرسه.

بدا على قناعة تامة أن لباس الجندي العربي السوري لا يلبسه إلا المقاتل في هذا الجيش، وقد قدَّم أوراقه للتطوع في صفوفه غير أنّ حوادث الحرب على سورية كانت أسرع منه، فمنعته من استكمال الإجراءات المطلوبة للتطوّع.

كان يحرص على تناول الطعام من تحت يدي والدته ويدعو رفاقه في المحرس الذي يضمُّ عناصر من الطوائف كلها لمشاركته هذا الطعام اللذيذ قائلاً:

ـ كلُّنا إخوة متحابون في مواجهة الإرهاب.

يوم استشهاده كان يتناول وجبته المفضلة التي طبختها أمه بينما يغلي إبريق الشاي على الغاز، وفي تلك اللحظات كانت زوجته في حالة ولادة بمستشفى السويداء بتاريخ اليوم الرابع من أيام عيد الأضحى المبارك الموافق لـ 2014/10/7.

وتختم أمُّه بالقول:

ـ في المدّة الأخيرة أصبحت أراه أجمل مخلوق على وجه الأرض ومع أنه يرفض طقوس احتفالات أعياد الميلاد حضر حفلة عيد ميلاد أخته الصغرى "زهور".

ولا تنسى السيدة الوالدة رفيقه الذي بعث إليها رسالة تعزية فاختطفه المسلحون وعذبوه كثيراً.

***

تاريخ الاستشهاد 2014

حياة أخرى

حكاية الشهيد البطل مهند هيثم عباس

من محافظة طرطوس

سنة وعدة أشهر مرّت على زواجه، وهي فترة لبداية تأسيس حياة سعيدة هادئة، حياة كان سيعيشها لو قيّض له ذلك، ولم يكن ليهتمّ كثيراً ببرقيّة الاستدعاء، فقد أجّل الحياة التي يبني لها إلى حين انتهاء خدمته الاحتياطية، هذا كل ما في الأمر.

في عام 2012 التحق بوحدته العسكرية في محافظة الرقّة، حيث خضع هناك لدورة تدريبية مكثفة، ليستعيد بها معلوماته العسكرية، ولياقته كمقاتل على جبهات كثيرة المعارك، وبين الرقّة وحلب خاض كثيراً منها قبل أن يستقرّ في محافظة حلب، على حاجز (العلقميّة) الذي يعدّ نقطة مراقبة وحماية لمطار (منّغ) العسكري.

ومرّت الشهور، كان خلالها على تواصل مع أهله في ريف طرطوس، واستطاع الحصول على إجازة قصيرة لزيارة الأهل والأقرباء، صحيح أن الإجازة كانت قصيرة، لكنها كافية للاطمئنان، وخصوصاً أنه كان أذكى من أن يترك أهله في قلق عليه، فقد عرف كيف يهوّن الأمر على الوالدين الحنونين، وعلى الزوجة المحبّة، وكيف يرسم صورة بعيدة عن الواقع، صورة مطمئنة بأن لا شيء يدعو إلى الخوف.

ومع آخر يوم من إجازته، ودّع الأهل، ولم يعد.

أربعة أيام بعد انتهاء إجازته، والتحاقه بوحدته العسكرية، كانت كما سبق من أيام وجوده على حاجز (العلقميّة) لكن المسلحين الإرهابيين زادوا من وتيرة هجومهم، فقد تكررت الهجمات على المطار والحواجز المحيطة به، وازداد صمود الحامية الأبطال رغم كل المعاناة التي عانوها.

في البداية كان إغلاق المطار، مما منع الحركة منه وإليه، وأصبح المقاتلون هناك في حصار كامل، حصار امتدّ إلى نهاية حياة الشهيد البطل مهند هيثم عباس، ومما زاد في صعوبة الحصار هو الهجمات المتتالية، التي لا تتوقف على الجنود البواسل داخل حرم المطار، وذلك بعدما سيطر المسلحون الإرهابيون على الحواجز كلها، مما شكّل طوقاً يصعب فكّه حول المقاتلين داخل المطار.

ومما يرويه المقاتل علي عبود، وهو أحد أصدقاء الشهيد مهند، وكان من حاجز (العلقميّة) أن عناصر الحاجز وصلتهم معلومات عن وجود مسلحين في مكان قريب من الحاجز، ولجرأة الشهيد البطل مهند عباس فقد أصرّ على الذهاب وحيداً إلى وكر المسلحين، وعند المساء انطلق مع سلاحه الفردي وقلبه الصخري باتجاه وكر الإرهابيين، أما رفاقه فقد انتظروا عودته على قلق، وكثيرون توقعوا ألاً يعود سالماً، إلاّ أنه فاجأ الجميع بعودته مبتسماً، وعلى كتفيه سبع بنادق، فقد قضى على الإرهابيين جميعهم وعاد بأسلحتهم، مع ابتسامة لن ينساها زملاؤه وقادته.

وكانت مدّة الحصار ضمن حرم مطار (منّغ) العسكري طويلة إلى درجة تصعب معها الحياة حدّ الاستحالة، فالطعام بدأ ينفد، ولا وسيلة هناك لتأمينه، حينها اضطر المقاتلون الأشاوس إلى التعامل مع الطبيعة، وما تجود به من أعشاب وحشائش وأغصان أشجار، لتكون الطعام المتبقي لمقاتلين لم يمنعهم الجوع عن الصمود، وحين كانت القيادة ترسل لهم الطعام جواً وترميه عبر المظلات، كانت الريح تخادع الجميع وتحمل تلك الشحنات بعيداً حيث يوجد المسلحون الإرهابيون، أما المقاتلون الأبطال فكانوا محرومين منه، فيكتفون بتناول الأعشاب وأغصان الأشجار، وما يستطيعون اصطياده من الطيور العابرة فوقهم.

قصص كأنها الخيال، يسرد بعضها الشهيد البطل أثناء حديثه الهاتفي مع أهله، لكن تفاصيلها الغرائبية بقيت مجهولة حتى باح بها أصدقاؤه أثناء زياراتهم المتباعدة لأهل الشهيد مهند، صديقهم الشجاع الذي غادرهم، ليبقى قريباً منهم، ربّما يستمدون من جثمانه الطاهر في حرم المطار كثيراً من الشجاعة والصمود والإصرار.

وقبل استشهاده كان قد أصيب مرتين، مرّة بشظايا قذيفة انفجرت قريبة منه، كان نصيبه منها جروحاً طفيفة في كامل جسده، ومرة أخرى بطلقات نارية في ساقيه الاثنتين، وكان بعد كل إصابة يتم علاجه ميدانياً، ليعود إلى مهماته القتالية رغم كل معاناته.

وجاء شهر رمضان المبارك، صام الجميع، وزهد الجميع، واستمروا في تصديهم للهجمات اللئيمة، والتي لم تتوقف، وكان وقت الإفطار موعداً يومياً لإطلاق القذائف باتجاههم، جرح كثيرون، واستشهد كثيرون، وفي الهجوم الأخير، وذلك في السادس من شهر آب لعام 2013 يوم لا يمكن نسيانه لمن عرف وعايش الشهيد البطل مهند هيثم عباس، فقد كان يوم انسحاب المقاتلين الأبطال من مطار (منّغ) بينما بقي الشهيد البطل مهند يغطّي انسحاب زملائه، وهو في خندقه، منتظراً دوره في الانسحاب، بتغطية من أحد زملائه، لكن قذيفة معادية قطعت عليه الأمل الأخير في الانسحاب، وذلك حين انفجرت إلى جانبه في الخندق ذاته، عند ذلك اتصل أحد زملائه بأهله، وأبلغهم ما حصل.

وبذلك تنتهي الحياة الهادئة الرغيدة التي طالما حلم بها، لكنه استطاع أن يورث ابنه "كرم" شرفاً يتباهى به ويفخر على مدى حياة يحاول أهله رسمها كما كان يحلم ابنهم الشهيد، هو الوعد، وهو الواجب، وهو السلوك الطبيعي لكلّ سوري يعتزّ بانتمائه لسورية الشمس والأصالة والتاريخ.

***

تاريخ الاستشهاد 2013

سائق البولمان

حكاية الشهيد البطل محمد الطويل

من محافظة حماة

فجأة يجد نفسه منخرطاً في حرب لا يمكن لعاقل أن يقف حيالها بحياد، هي معركة مجنونة، بدأها فاقدو العقل والبصيرة، فكيف لرجل ممتلئ بالحسّ الوطني أن يقف متفرّجاً على ما يجري من موت وحرائق وإجرام وترهيب، وفي بلده بالذات؟!

كان الشهيد محمد الطويل سعيداً في عمله، بل هو عاشق له، عمل يدرّ عليه ما يكفيه ليعيش مع أسرته ببعض البحبوحة.

كأن الأمور اختلفت، كل شيء انقلب رأساً على عقب، لماذا؟ سؤال يتضمن الجواب، فقط لأنها سورية.

قبل هذه الحرب اللئيمة، كان يعمل سائقاً على باص بولمان، ينقل الناس الفرحين، يستمع إلى الأغاني والأهازيج المعبّرة عن حب الحياة، ومحاولة العيش بفرح، كان يحلو له أن يغني، وكان يفعلها حين تتاح له الفرص.

ومنذ بداية الحرب، أكّد انتماءه لوطنه، وعشقه له بطريقة مختلفة، كرّس نفسه للدفاع عن بلاده وأهله لتستمر الحياة التي يغني لها، الحياة العزيزة الكريمة، فلا كرامة مع ذلّ، ولا حريّة مع استعباد، هي عقيدة اعتنقها منذ اكتشف ببراءة الاكتشاف أن الوطن أمّ وأب، فهل يترك أمه وأباه عرضة للعواصف المسمومة؟!

وبقي السؤال الملحّ، كيف يترجم هذا الحب الكبير لسورية، فلم يجد إلاّ أن يضع نفسه وحافلته في خدمة عناصر الجيش العربي السوري، لأن الجيش هو المؤسسة الوحيدة المعنيّة بالدفاع عن الوطن وعزته وكرامته.

التحق بالدفاع الوطني، بمهمة نقل قوات الجيش العربي السوري من مدينته حمص إلى وحداتهم العسكرية في المدن الأخرى، وخصوصاً حين توقفت معظم الحافلات عن عملها، خشية استهدافها من العناصر الإرهابية، لكن الشهيد البطل كان يجد سعادة ما بعدها سعادة وهو يرافق الجنود الأبطال، وكأنه واحد منهم، وهذا العمل يمنحه الفرصة المثالية للغناء، ولم يجد سعادة كالتي يشعر بها حين يكون بين حماة الديار، وكأنه واحد منهم، هذا ما تقول زوجته السيدة نعيمة أحمد قيلوح.

وعلى الرغم من خطورة عمله، فهو معرّض للقنص في كل لحظة في المناطق الخطرة، وقد تعرّض لعدّة كمائن، منها في منطقة حرستا، على طريق حمص ـ دمشق، كما استهدفه القناصون الإرهابيّون في كراج العباسيين أكثر من مرّة، وكمين آخر في منطقة الرستن في محافظة حمص في أثناء نقله الجنود البواسل من حمص إلى حماة، ورغم كل ذلك لم يمنعه مانع من نضاله المقدّس.

تضيف زوجته السيدة نعيمة أنه كان يأخذ الحلويات الحمصية المشهورة معه في كل رحلة، ويوزعها على المقاتلين، حتى أصبح معروفاً لدى الجميع، وصديق الجميع، وكانت آخر رحلاته في 30/ 12/ 2020 حين نقل عدداً من عناصر الجيش العربي السوري من حمص إلى دير الزور، وعلى الطريق في منطقة "كباجب الشول"، تعرّضت الحافلة لكمين غادر، استشهد على إثره معظم ركاب الحافلة، ونجا من نجا ليخبر بما حدث.

كانت أولى الطلقات على رأس السائق الشهيد محمد الطويل، مما أدى إلى فقدان السيطرة على الحافلة، ثم تتالى الرصاص كالمطر، رصاص من النوع المتفجر، وهذا ما أكدّه الناجيان من المجزرة (يوشع العلي) و(أحمد راشد الطويل) فكان أن امتزج دم الشهيد البطل محمد الطويل مع دم الأبطال الذين كان يغني لهم طيلة الطريق، ويشاركونه الأغاني الوطنية بحماس وفرح.

وقد استطاع بعض المقاتلين الفرار بعد تحطم زجاج الحافلة، وقد هربوا بعيداً في الصحراء، لكن الرصاص لاحقهم وأردى الكثير منهم، لترسم دماؤهم خارطة الوطن مكتملة، وليزهر الرمل في البادية شقائق تشهد إلى أبد الدهر أن لسورية الوطن حماتها الأباة، وما دامت لها تلك الحماية، فهي منتصرة أبداً.

وبعد انتهاء الهجوم حضرت قوة من عناصر الجيش الموجودة قريباً من المكان، وأنقذت الجرحى الموجودين في الحافلة، وكانت حصيلة المجزرة ما يزيد عن ثلاثين شهيداً، وعشرة جرحى، ليتم تشييع الشهداء في مواكب مهيبة إلى مثواهم الأخير بتاريخ 2021/1/1.

***

هي المروءة

حكاية الشهيد البطل أحمد علي محسن

من محافظة طرطوس

لم يكن الأب مطمئناً بما يكفي، فابنه أحمد يمتلك من الجرأة ما يجعل كل الذين يحبونه يخافون عليه، فكيف يطمئن قلب أب مقاتل، يتنقّل بين "بابا عمرو" في مدينة حمص، وبين غوطة دمشق، بين إدلب وريف حلب، مقاتلاً لا يلين! أما الشاب الجريء أحمد، والذي لا يتصرّف إلاّ كما يحلو له، ترك دراسته والتحق متطوعاً في صفوف القوى البحريّة، حيث كان يرى أن من العبث أن يبقى متفرّجاً، والحرب اللئيمة تحصد الأخضر واليابس.

وتمر الأيام والشهور دون أن تتحرّك وحدته العسكرية للقيام بعمليات قتالية يرضى عنها المقاتل المغوار أحمد علي محسن، ولم يكن ليرضى بتلك العمليات القليلة والبسيطة التي تنفذها وحدته العسكرية بين حين وآخر.

كانت الأخبار عن مجازر الإرهابيين تقتحم خيال الشاب الجريء، فلا تتركه يهدأ، فكر منشغلاً بالكثير من البطولات لشاب فرض عليه الخمول والكسل، فلم يجد مناصاً من تقديم طلب نقل إلى وحدة محاربة، وبعد كثير من الإصرار قرر الانخراط في العمليات العسكرية، وليكن ما يكون، أخبر قائده بذلك وانطلق غير عابئ بما سوف يحصل، والجملة التي قالها، ويشهد كل زملائه بها (شو ناطرين؟ يعني لازم تحترق سورية كلها حتى نتحرك؟) عبارة كانت هاجسه الدائم.

ومن اللاذقيّة إلى دمشق، حيث كانت المعارك في أشد قوتها وعنفوانها، وهذا ما كان يريده الشهيد البطل أحمد، وهذا أدنى مستويات طموحه، وكأنه يحمل على كاهله كل هموم هذه الحرب، وكوارثها، وجرائم إرهابييها، فمنذ وصوله إلى دمشق بدأ معاركه المنتظرة، فما من معركة إلاّ وله فيها بصمة.

في مبنى الموارد المائية في حرستا، كانت إصابته الأولى، جروح طفيفة في كافة أنحاء جسده، بسبب قذيفة انفجرت بعيداً عنه، رفض الذهاب إلى المشفى، وبقي يتابع القتال إلى جانب زملائه.

(أنت مجنون يا أحمد؟) عبارة ترددت كثيراً في مسامعه، فكان يضحك بسخرية وهو يمسح الدماء عن وجهه.

ـ كان كل همّه إنقاذ رفاقه الجرحى، وسحبهم إلى مكان آمن، أو تغطية انسحابهم من موقف حرج ليس في صالحهم عسكرياً، وكم كانت فرحته عظيمة حين تحرر مبنى الموارد المائية على يديه وأيدي رفاقه المقاتلين، حيث كان العنصر الأكثر فعالية في ذلك التحرير، وهو ما يشهد له قادته قبل زملائه، حتى أن قائده المباشر وصفه ب (القناص الأول في الجيش العربي السوري).

وفي "داريّا" في ريف دمشق، كان للتراب النصيب الأكبر من دمه، فبعد انتهاء فترة حراسته، تسلّم منه صديقه مهمة الحراسة، وعاد البطل أحمد محسن ليستريح في المقر الخلفي، لكنه قبل وصوله سمع إطلاق نار كثيف، فعاد سريعاً ليتفقد الموقف، ففوجئ بأعداد كبيرة من الإرهابيين يتقدمون بأسلحتهم الثقيلة، ورفاقه يتوزعون خلف المتاريس، ويصدّون ما يستطيعون من هذا الهجوم المباغت، صاح برفاقه يطالبهم بالانسحاب وقد تكفّل بتغطية انسحابهم.

وبعدما انسحب معظم رفاقه انطلق إلى الأمام لينقذ الرفاق الآخرين من الجرحى، وقد تمكّن من إنقاذ كثير منهم، وهذا ما يرويه رفيقه الجريح (حسن محمود مرعي) وحين جاء دور إنقاذه وقد كان ضخم الجثة وثقيل الوزن، أما أحمد فكان نحيلاً، لكنه صلب بما يكفي لأية مهمّة، قال له صديقه حسن (لن تستطيع حملي، اتركني وانجُ بنفسك) ضحك أحمد ضحكته الساخرة المعهودة (والله لن أتركك) رفعه عن الأرض ووضعه على كتفيه، وانطلق عائداً إلى المقرّ الخلفي، وضعه هناك وعاد لإنقاذ جرحى آخرين.

لم يكن يعلم أن مشواره هذا هو المشوار الأخير، فقد انفجرت قذيفة خلفه بأمتار قليلة، وجعلته يرتقي إلى السماء بابتسامته ذاتها.

(حتى القذائف تخدع يا أحمد، حين تأتي من الخلف عاجزة عن مواجهتك)

في المشفى العسكري كثرت جثامين الشهداء ذلك اليوم، وكان المقاتل علي محسن والد الشهيد البطل أول المستقبلين، وبعد انتقال الجثمان إلى مثواه الأخير في ريف طرطوس فوجئ والد الشهيد بحضور عدد من الجرحى، أصدقاء الشهيد البطل، وما زالت الضمادات الطبيّة على أجسادهم، خرجوا من المشفى رغم تحذير الأطباء لهم، وقد رفضوا أن يدفن الشهيد وهم بعيدون عنه، وكلهم يقولون بلسان واحد (الشهيد أحمد هو الذي أنقذنا من الموت، فكيف لنا ألاّ نودّعه الوداع الأخير؟!)

أحد المقاتلين المشيّعين اقترب من والد الشهيد لإيصال أمانة كان قد أوصى بها الشهيد قبل استشهاده:

- هذه الحقيبة فيها بعض الأوراق يا سيدي، وهي وصية تسلّم إلى أخيه "كرم" وهذه مسبحة أوصى بها لك.

يقول والد الشهيد إنه حين فتحوا الحقيبة وجدوا فيها عدداً من الأوراق تحمل بعض القصص المثيرة التي تعرّض لها الشهيد، وكان قد كتبها بخطّ يده على شكل قصص قصيرة، وكان يختتم كل قصة بعبارة (الحمد لله رب العالمين) فهل يقصد بها الردّ على شعار الإرهابيين المخطوط على الأشرطة السوداء فوق جباههم (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وهذا شعار الإرهابيين الذين مارسوا كل جرائمهم ضد الوطن وأبناء الوطن تحت شعار الإسلام، وهم أبعد ما يكون عن الفكر الإسلامي ونهج نبيّه.

أما "كرم" شقيق الشهيد فقد استلم الوصيّة صامتاً، وفي عينيه حزن كبير وإصرار على إكمال الطريق الذي بدأه الشهيد البطل، وما زال فكره راسخاً في الذاكرة والوجدان.

***

تاريخ الاستشهاد 2016

الوفاء

حكاية الشهيد البطل نشأت توفيق حاجوج

من محافظة حمص

بين قرية تنورين، الواقعة في ريف حمص الغربي، وبين مطار التيفور العسكري، رحلة طويلة، وأحلام أطول، هي المسافة بين الولادة والاستشهاد، بين الدخول إلى هذه الدنيا وبين الخروج منها إلى دنيا أخرى، إلى أفق آخر، هي رحلة الشهيد البطل نشأت توفيق حاجوج.

وبين القدوم والرحيل حياة مليئة بالعنفوان والشموخ، شموخ بدأ في مرحلة الطفولة والشباب، ليتابع نموّه في حياة الشاب نشأت، وكان أحد تجلياته الانخراط في صفوف الجيش العربي السوري، هذا الشموخ وقد تحلّى به غالبية الشبّان السوريين، أولئك الحاملين جينات فينيقيّة موغلة في القدم البشري.

هم أبناء سورية، أبناء الحضارة والشمس، لا يقبلون العيش إلاّ بكرامة كاملة، وعزة وإباء غير منقوصين.

بين رفاقه حماة الديار، أمضى سنوات كثيرة، كان من خلالها مثالاً للبطولة، وحب الوطن والتضحية لأجله، فلا يوفّر جهداً حين يتطلّب الوطن ذلك الجهد، ولا يبالي بموت حين يكون دفاعاً عن تراب، بل يرى ذلك شموخاً آخر يضاف إلى الشموخ السوري.

أكثر من مرّة أعلنت القنوات التلفازية المأجورة اختطافه، وهي لعبة اعتمدها الإرهابيون كثيراً، لدبّ الرعب بين عناصر الجيش وضباطه، وهي رسالة لكل مقاتل نبيل أن يتخلّى عن نبله ورجولته، ولكن... هيهات أن يتمّ ذلك للمجرمين الإرهابيين القتلة، وهيهات أن تذلّ النفوس أصحابها الكرام.

شهيدنا البطل نشأت عرف بسليقته ما يحاك لوطنه سورية، وعرف ما يهدف الإرهابيون من خلال ادّعائهم شائعات الاختطاف، فلم يجد بدّاً من قول

الحقيقة، وهذا ما كان يحصل دائماً عبر القنوات التلفازية الوطنية، فقد نفى ما تتناقله تلك القنوات، ليعلن بكل ما يحمل من حس وطني عالٍ أنه ابن سورية البارّ، وأنه المقاتل الشرس الذي لا تلين له قناة حين يستدعيه الواجب.

وأمام هذا الإصرار على التحدّي، كان لا بدّ من تصفيته، حسب ما يراه المجرمون القتلة، مدّعو (الثورة) فراحوا يتتبعونه خطوة خطوة، محاولين اصطياد ذلك النسر العنيد، الذي يمسح السماء بناظريه، ويعطي تعليماته للطيارين المقاتلين، فهو خبير السموت والاتجاهات، وهو المقاتل الذي يرى وطنه أكبر وأكثر اتساعاً من سماء لا محدودة، فالوطن فكرة في العقول والقلوب، قبل أن يكون مساحة جغرافية مهما اتسعت.

وكان، لما له من قوة تأثير في سلاح الطيران، ملتزماً موقعه العسكري ومهمته النبيلة، وذلك من خلال توجيهه للطائرات المقاتلة، وتلك مهمّة اقتضت منه الوجود الدائم على رأس عمله، وتغيّبه شبه الدائم عن بيته وأهله.

تقول زوجته السيدة سمر إلياس عرب، وقد فرض عليها الحصار مع عائلتها في المساكن العسكرية، قرب مطار التيفور العسكري، وقبل استشهاده كان يوصي زوجته دائماً بضرورة السفر حين يخبرها بذلك، دون أي سؤال أو استفسار، وكأن إحساسه يخبره بأن أمراً ما سيحدث.

لم يكن الشهيد البطل نشأت توفيق حاجوج يرغب بتناول طعام الغداء إلا في منزله، مع زوجته وابنه الطبيب، الذي يعمل أيضاً في المستوصف العسكري الخاص بعناصر الجيش وعائلاتهم، وهذا ملمح آخر لانتمائه الوطني، فكان يأتي لتناول طعام الغداء، وسرعان ما يعود إلى عمله بعد أن يكرر وصيته لزوجته.

وليلة استشهاده رنّ هاتفه في الثالثة صباحاً، كانوا يطالبونه بضرورة الحضور إلى عمله، ذهب سريعاً، ثم عاد في الخامسة صباحاً، ليرتاح قليلاً قبل أن يعود ظهراً إلى العمل، اتصل بزوجته يخبرها بعدم مجيئه للغداء بسبب ضغط العمل، ورغبته بتناول الغداء مع رفاقه المقاتلين.

بعد قليل تلقّت الزوجة اتصالاً من أحد أصدقائه يسأل عنه، هل وصل أم لا؟

كان الصديق قد لمح سيارة الشهيد البطل تتأرجح بعيداً قبل أن تغيب عن الأنظار، فظنّ أن صديقه ترك السيارة مع السائق وذهب إلى البيت.

الشهيد البطل لم يصل إلى بيته، لأن يد الإجرام كانت سباقة، حيث انفجرت العبوة الناسفة بسيارته، فراحت السيارة تتأرجح بين الغبار، والجنود يهرعون صوبها لإنقاذه، وكانت آخر كلماته لأحد العناصر:

"أنا لا أشعر بنصفي الأسفل".

كثيرة هي الشائعات، يتناقلها كل من يعرفه، فمنهم من يقول إنه أصيب بجروح طفيفة، ومنهم من يقول إن العصابات الإرهابية نفّذت تهديدها واختطفته، ومنهم من يقول إن إصابته بليغة وقد لا يخرج منها حياً، لكن الحقيقة سرعان ما ظهرت بموكب تشييعه من المشفى العسكري في مدينة حمص إلى مثواه الأخير، وفوق موكب التشييع كانت الطائرات الحربية ترسم في السماء الصافية شارات النصر والكبرياء.

***

تاريخ الاستشهاد: 2015

وسامٌ على صدر حلب

حكاية الشهيد البطل علي شاهين شاهين

من محافظة طرطوس

وُلِدَ وفي فَمِهِ ملعقةٌ من يُتْمٍ... فغدا منابعَ للحنانِ والعطاءِ والأبوَّةِ والأخُوَّة...

لم يكن ذلك الطفلُ، وفي عينيه ياقوتتانِ من فَقْدٍ، يعي وقتذاك ما كان يعتملُ داخل تلكَ النَّفس البريئةِ المحرومةِ من الأب باكراً جداً، لم يكن يدري أنَّ ذلك قد انعكسَ على كل خلجةٍ من خلجاتِ روحه، ذلكَ الصَّبيُّ الأسمرُ بلون الحنطة، وهو يلعبُ في باحة المدرسة أو على بيادر القرية، ليغدوَ، وفي لمحة قدرٍ ومسيرةِ اجتهادٍ حافلةٍ بالتَّميُّز والتَّفوُّق والمثابرة والشجاعة، ذلك البطلَ الذي تتزينُ المحافلُ والأوسمةُ باسمهِ، وتتباهى ساحاتُ المعارك ومواقف البطولة والشرف والرفعة بتضحياته، والعقولُ بذكراه، ذلكَ الفتى العَلِيُّ الشَّاهين...

بين ريف محافظة طرطوس، وبين مدرسة المشاة في مدينة حلب، أعوام كثيرة حافلة بالعلم والدفاع عن الوطن، تنقل خلالها الشهيد علي شاهين شاهين حيث أنهى دراسة الحقوق قبل أن يلتحق بالكليّة الحربية، ليتخرّج منها ضابطاً حقوقياً، اتبع عدّة دورات تدريبية وقياديّة، وتوزّعت خدمته العسكرية في عدة تشكيلات للجيش العربي السوري، لتنتهي خدمته في مدرسة المشاة في حلب حيث ارتقى إلى العلياء شهيداً.

وأثناء خدمته في محافظة درعا، تم تكليفه بالإشراف على الدورات المقامة في مدرسة المشاة، فكان يزور عائلته القاطنة في حي "كرم اللوز" في مدينة حمص كل شهرٍ أربعاً وعشرين ساعة فقط، ليعود إلى أداء واجبه المقدس...

كان يولي مهماته الاهتمام الأكبر، وذلك طيلة فترة وجوده في الخدمة، حتى كاد ينسى الاهتمام بأسرته وأولاده، فيسأل زوجته:

- في أي الصفوف صار الأولاد؟

وذلك لشدة انهماكه في واجبه، وإيمانه بوطنه واستبساله في خدمته والدفاع عنه متماهياً مع الوطن ناسياً كل شيء إلاه...

وفي صيف 2011 بعد عودته من إحدى الدول العربية الشقيقة، حيث كان بمهمة إيفاد تدريبيّة، التحق بقيادة وحدته في دمشق مدة شهر، ليعود بعدها إلى مدرسة المشاة في حلب ثانية، مكان عمله قبل الإيفاد.

هكذا كان غيابه عن أهله وأسرته يتوالى، والشوق يتكثف إلى أن يأتي صوته الهاتفي، وكان غالباً ما يكتفي بالاطمئنان عنهم عبر الهاتف، وفي الفترة الأخيرة طال غيابه كثيراً دون مشاهدة، ودون صوت هاتفي، حيث لم تره عائلته بعد ذلك اليوم، ولم تسمع صوته، ولم تتلقّ منه أي خبر، سوى اتصالٍ يتيمٍ قبيلَ استشهاده بيوم واحد، حيث ارتقى شهيداً بتاريخ 2012/12/15...

تقول زوجته السيدة سهام يوسف إنه بتاريخ 2012/12/14 اتصل بها، ليبلغها بمصير صديقه الطبيب الذي كانوا على معرفة به وبعائلته، وكان يخدم معه في مدرسة المشاة، وهو من اللاذقية، حيث طلب الشهيد علي شاهين منها أن تتواصل مع أهل الطبيب، وتبلغهم نبأ استشهاده، وأنه قام شخصياً بأداء الصلاة أمام جثمانه الطاهر، قبيل إتمام دفنه في حرم مدرسة المشاة، وأخبرهم أنهم يتلقون الهجوم تلو الهجوم من المسلحين الإرهابيين، وأن رفاقه يستشهدون الشهيد تلو الشهيد...

انتهت المكالمة، لتتقدَ النارُ في قلوب العائلة، الأهل، الأم، الإخوة، الزوجة والأولاد، حيث كان ابنه "شاهين" البكر في الصف السابع الإعدادي.

وفي اليوم التالي لذاك الاتصال، وصل عائلتَهُ نبأٌ بإصابته، وأنه نُقِل للعلاج، ولكن حقيقة الأمر أنه كان قد استشهد، ولكنهم لم يشاؤوا إبلاغ زوجته الخبر، ريثما يجتمع الأهل جميعاً، ويقفون إلى جانبها في هذا الموقف الجلل الجليل...

يذكر المهندس وائل يوسف شقيق زوجته، وهو مهندس زراعي يعمل في حمص، بأنه كان يطالب علي بأن يأتي بإجازاته المستحقة له، ليرى عائلته وأهله، فكان يخبره بأن الوضعَ دقيقٌ وخطيرٌ داخل مدرسة المشاة، وأنه لا يستطيع أن يترك الخدمة لحظة واحدة...

وليأتي النبأُ الأليمُ المشرِّفُ الصَّاعِقُ الوقعِ باستشهاده بتاريخ 15 /12 /2012، ولَّما يأت بعد جثمانه الطاهر من مكان الاستشهاد حتى تاريخه...

تذكر زوجته السيدة سهام، بأنه عندما قدم رفاق السلاح للتعزية، أخبروها بأنه كان يوزع راتبه على رفاقه الجنود، وعلى العناصر المحتاجين، وحاول بعضهم رد الأمانة لها، لكنها سامحتهم بها...

هوى "الشَّاهينُ"... محلقاً على جبال العزة وتخوم الشرف الرفيع، مدافعاً عن ثغورِ سورية مع الرُّوم المتجدِّدين، ثاوياً على مقربة من سَيْفِ الدَّولة الحَمْدَاني...

هوى "العَلِيُّ" مُجَنْدَلاً مُضَمَّخاً مُخَضَّباً بزَعْفَرَانِ المجد والوفاء، مُكَفَّناً بِبُرْدَةِ البطولة والكرامة يوم 15 من كانون الأول عام 2012 عن عمر قارب الاثنين والأربعين مجداً.

***

● كانت الأزمة السورية في بداياتها وعلى أشدها، وتحديداً في حمص، حيث عائلته المؤلفة من زوجته السيدة "سهام أحمد يوسف"، وصبيَّيْن وبنت.

●●"لاحقاً سيدخل الهلال الأحمر السوري في تفاهم مع المسلحين ليسحبوا جثامين الطبيب وعشرة شهداء آخرين..."

●●● يذكر أحد آباء الشهداء من قرية "بيت الوادي" دوير رسلان في منطقة الدريكيش، وابنه كان دكتوراً مهندساً ضابطاً يخدم في مدرسة المشاة بالفترة نفسها، بأنه حينما أتاه نبأ استشهاد ولده مع سبعة من رفاقه، تواصل السيد سليمان حسين، والد الشهيد د. م. محمد حسين مع علي شاهين الذي أنبأه بأنه صلى عليه وعلى رفاقه الشهداء ودفنهم، حيث طلب منه الأب أن يترك له علامة جغرافية فارقة لاسترداد الجثامين لاحقاً إثر التحرير الناجز للمنطقة، فأخبره بأنه دفن سبعة شهداء ابنه في الوسط على يمين قبره ثلاثة وعلى يساره ثلاثة، وأنه دفنه باللباس العسكري ووضع في جيب سترته الداخلية ورقة كتب عليها اسم الشهيد الكامل وأنه كتب اسمه على الصندوق، يذكر والد الشهيد أنه سمع نبأ استشهاد علي شاهين بعد ثلاثة أيام من هذه الحادثة...

***

لاحقاً وبعد سنوات قمتُ برفقة والدي بزيارة عائلة الشهيد علي شاهين، فسألت ابنه البكر في أي صف فقال ثاني ثانوي، فقلت له ماذا تنوي أن تدرس بعد الثانوية العامة، فأجاب بسرعة البرق: مثل أبي سأتطوع في الكلية... وتفر دمعة من عين والدته...

لاحقاً، وأثناء مقابلتي لزوجه وعائلته منذ حوالي شهر من كتابة هذه السطور أذكر أنني سألتها عن الأبناء وأين صاروا فقالت الكبير شاهين يدرس في السنة الثالثة حقوق، وبعدها سيتطوع، إما في الشرطة، وإما في الجيش!

***

تاريخ الاستشهاد 2012

قمر يضيء في ليل طويل

حكاية الشهيد البطل أحمد زياد أبو خولة

دمشق ـ مخيم اليرموك

يقول التقرير:

انفجر به لَغَم في محافظة السويداء، وكان قريباً منه رفيقه أنطون الَّذي بُترت ساقاه.

*

ـ أحمد، وينك؟ أنت مصاب؟...

يقاطعني ضاحكاً:

ـ حيلك، ميمتي: شو تحقيق؟

كان يحاول دائماً أن يطمئنِّي عليه بممازحتي مثل والده أوقات الشدَّة والخطر، الَّتي يسمِّيها الملمَّات.

*

ليلة أمس أخذت أمُّه تهاتفه على مدار الوقت:

- كيف حالك؟
- مليح.
- في حواليكم خَطَر؟
- لا. الوضع مستقر.
- لا تكذَّب عليِّ يمَّا، بدهم يهاجموكم.
- ما بعرف.
- طيب، اسأل.

- يعني بدِّك أسألهم: "يا جماعة رح تهاجمونا شي، لحتَّى أخبِّر أمِّي؟".

فتردُّ عليه في شهقة موجعة:

- ما تتمسخر. بعرفك مثل أبوك، اللّه يرحمه.

وصمتت كنبتة خضراء عطشى، فجأة رواها مطر ناعم، فراحت تأتلق، وشقَّ القمر طريقه كي ينير المكان، وهي تسهب في الذكرى:

- كنت لمَّا أخاف عليه، وقلبي يحسِّسني بالخطر، يضحك عليَّ حتَّى يحصل ما كنت خايفة منه، فيرجع يعترف لي: "واللّه عيونك بتذكرَّني بزرقاء اليمامة، بس أنتِ فلسطينيَّة، يا مزنة"، فأردُّ عليه: "مش عيوني، يا زياد، هذا قلبي، وقلب المؤمن دليله".

مع تذكُّرها لزوجها تراه يركض في حقول من الخضرة، ثمَّ تتوهَّج الشمس فوق رأسه، لتصبح كرة مشتعلة حمراء.

ويطول حديثها عن زوجها الَّذي كان يمازحها، عندما تسأله عن سبب انضمامه إلى الفدائيَّين، قائلاً:

- تطوَّعت لأكسر راس أكبر إسرائيلي.

وهنا يقاطعها ابنها خاتماً الحديث الَّذي سيطول أكثر مع ذكريات الأيام الجميلة بينهما:

- أي ميمتي، طولت عليك. صحيح؟

وإذ تصمت بلا جواب، فهي تتمنَّى لو أنَّ مخابرتها لا تنتهي أبداً، يردف ممازحاً:

- ما لك دبقتِ فيي، يا أم أحمد، ورايي مناوبة!

لذلك أوصته:

- دير بالك على حالك، وطمنِّي إذا صار شي.

- حاضر يا ميمتي، رضاكِ.

- اللّه يرضى عليك، ويحميك.

*

كان الليل يشكِّل رعباً حقيقيّاً، فالمسلَّحون يهاجمون خلاله عناصر المواقع العسكريَّة من دون أن يروهم، أو يرمون القذائف الجهنَّميَّة باتِّجاه المحارس، لذلك ما إن يطلعُ ضوء الصباح حتَّى يهتف أحمد من قلبه:

- إنَّه الضوء نور الحياة.

وكم يفرح عندما تكون الليلة مقمرة، ذلك أنَّ شعاع القمر ـ ولا سيَّما إذا كان مكتملاً - يبدِّد العتمةَ، فتظهر الغابة كما لو أنَّها تغتسل بالنهار.

*

لففتُ بطَّانيَّتي حول كتفيَّ، وأنا أسعل شاعراً بالبرد القارس إلى أن تسلَّل القمر عبر نافذة وسط الغيوم الداكنة، فأنار ما حولي، واطمأننت قليلاً، إذ رحت أفرك كفيَّ ببعضهما من أجل شيء من الدفء...

ليلة أمس ظهر القمر بدراً، وظلَّ يحرسني ساعات طويلة، فالتقطت له صورة، وضعتها على شاشة الجوَّال تحت صورة أمِّي، إلى أن اجتاحته غيوم سود لتطغى العتمة الدامسة، وأنا أرهف السمع إليها، تستجوبني مثل عادتها:

- أحمد، هل تبردون في المهجع؟

- أي مهجع؟ يا ميمتي.

فتقاطعني:

- ما أحلى كلمة ميمتي من تمَّك.

فأكمل إجابتي عن سؤالها:

- نحن نرابط بين الأشجار، ونلتطي بها عند اشتداد العاصفة.

- وأين تنامون؟

فأصمت برهة من الوقت العصيب، ثمَّ أجيبها كيلا أفزعها أكثر:

- في المهجع، كما قلتِ.

- مهجعكم داف؟

- جدّاً جدّاً، يا ميمتي.

بعد ذلك سهوت، ولا أدري كيف غفوت واقفاً، وأنا أستند إلى جذع شجرة.

كان كلَّما غفا يرى والده يناديه، فيحضر مسرعاً إلى بستان فيه ورود متنوِّعة، ما إن يدخله حتّى تأتلق تلك الورود، وتغدو حمراء بالكامل. فجأة يمتلئ البستان بشقائق النعمان.

*

صحوت، والليل يودِّع عتمته الأخيرة، فأحسَّست بالخوف فعلاً، لذلك أستحضر صورة الثائر البطل تشي غيفارا، وأنا أقول في سرِّي: "شيء مشترك يربطنا معاً، فهو مثلي يتَّخذ من الغابات مضجعاً، لكن في أمريكا اللاتينيَّة، وليس السويداء. لقد كان أوَّل عمل يقوم به في الصباح أن يرتِّب فراشه، كما أخبرني والدي الَّذي يعتزُّ به كثيراً معلِّقاً صورته في صدارة غرفته ضمن إطار أحمر جميل في بيتنا بمخيم اليرموك".

وكم تمنَّيت لو أنَّني أركض عبر الجبال والسهول الكثيرة لأصل إلى حيث أمِّي، فتوسِّدني فخذها الأيمن، كما كانت تفعل، وأنا تلميذ في الصفِّ الأوَّل الابتدائيِّ، حينذاك يأتي طلال، ويتوسَّد فخذها الشمال مثلي، وإذ تشاهدنا خولة تركض، لتضمَّها أمُّها إلى صدرها، فتروح تقهقه ضاحكة منَّا:

- أنا في حضن أمِّي، وأنتما على رجلَيها.

عندئذ تشدُّنا أمِّي إليها، وتحتضننا إلى صدرها ثلاثتَنا معاً.

*

خلال الصباح، وقد انتشرت خيوط الضوء من حولنا، كان علينا أن نأخذ حذرنا الشديد، ونلتزم مواقعنا خلف أسلحتنا الثقيلة خشية اقتحام عربة مفخَّخة لهذه الغابة الكثيفة من الأشجار والرجال، وما هي إلَّا خطوة واحدة حتَّى أصل إلى الطريق، حيث محرس مناوبتي، فإذا صوت انفجار مدوٍّ، وارتميت على الأرض الَّتي راحت تعانقني، وكأنَّها تضمُّني إلى صدرها في حنان غامر، مثلما فعلت أمِّي.

ولا أعرف كيف رجع القمر ليضيء وجهها، وهي تحاول الاتصال بي، فلا أستطيع الردَّ عليها، إلى أن أخذ رفيقي أنطون جهاز الإرسال من جيبي، وقال لها وسط ألمه الممضِّ:

- أحمد مصاب، ونحن ننقله إلى المشفى، دعواتك، يا خالة.

فردَّت: "انتهى كلُّ شيء، يا ابني، لا نفع للدعاء".

ثمَّ أسكتتها غصَّة خانقة، وهي ترى أحمد أمامها، تَعُبُّ رائحته العبقة، فيما راح يقبِّل راحتيها، وهو يعتذر: "سامحيني، يا ميمتي".

*

أتذكَّرها تدعو لي أن أعود سالماً حتَّى تفرح بي عريساً مثل طلال، الَّذي تزوَّج قبلي، لأنَّني أودِّي الخدمة العسكريَّة في جيش التحرير.

بعد نشوب القتال ضدَّ العصابات المسلَّحة سافر طلال إلى ألمانيا محاولاً أخذ أمَّه معه، ولكنَّها رفضت ذلك بحزم مؤكِّدة:

- لن أترك سورية إلَّا إلى فلسطين.

ثمَّ تضيف:

- حتَّى لو انتهت الحرب على سورية، فالليل طويل، وما انتهى بعد.

*

بعد استشهاد أحمد راح طلال يعدُّ معاملة لمِّ الشمل، ويطالب أمَّه بالمجيء مع خولة، فتصمت في غصَّة حارقة، ثمَّ تقول، وهي تحدِّق في عيني ابنتها الزرقاوين مثلها:

- بدي أسألك: "مين رح يسقي الريحان على قبر أحمد إذا سافرنا، يا خولة؟".

من مفكرة أحمد:

حكت لي ليلتذاك أنَّها لم تنم منذ ثلاث ليال، فقلبها كان يغلي خوفاً عليَّ من انفجار ما، وكالعادة لم أستطع أن أفكَّ النوم الثقيل عن عينيَّ كي أردَّ عليها، لذلك قلت منهياً الحديث:

- اطمئني يا ميمتي، رح أعيش، وترقصين في عرسي مثل طلال.

بعد ذلك كثرت الأقاويل:

من الناس من قال: "مزقته العبوة المتفجِّرة إلى أشلاء، توزَّعت على أنحاء سورية".

وهناك من قال: "طيَّرته تلك العبوة إلى سماء فلسطين".

ومنهم من أكَّد بحزم: "ناداه أبوه، فدخل ضياء نفسه، كي ينام".

آنئذ كانت مزنة القدسي "أمُّ أحمد" تكمل خياطة الشال الَّذي ستهديه له في يوم زفافه، وهو يقول لها:

- أريد خبزاً.

فتتوجَّه إلى التنور، تلقي فيه بعض الأغصان اليابسة، ثمَّ تقدِّم له رغيفاً، وهي توصيه:

- كل، وأطعم من تريد من رفاقك.
- لماذا أطعمهم؟
- كي يعودوا معك.

وأكل يومذاك، وأطعم رفاقه المجتمعين حوله، وبقي من الرغيف بقية لمن يريد أن يعود.

بعد مدَّة سألوه مرَّات ومرَّات، فدلَّهم على تنور أمِّه، وإذ ساروا جموعاً غفيرة، أكلوا حتَّى شبعوا، ثمَّ انغرسوا في رحم الأرض، فبدت الجبال، وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس، كأنَّها الجواهر الثمينة

ثمَّ قال البحر، وهو يفرح بنوارسه العائدة:

- يا لهذه الأرض ما أغلاها!

وظهرت قبَّة الصخرة من بعد.

***

استشهد في محافظة السويداء عام 2017

عاشقُ التُّراب... شهيدُ الواجب...

حكاية الشهيد البطل نبال محمد حسن

من محافظة طرطوس

ليستِ البراءةُ فقط، تلكَ التي تلفتُ انتباهَكَ، فتستقرُّ في صميمِ الرُّوح، حينما تطالعُكَ صورتُهُ الجداريَّةُ الكبيرةُ على الطريق العامِّ المؤدِّية إلى بيتِ أهلِهِ، وبالتالي بيتِهِ "لاحقاً" بُعَيْدَ استشهاده...

وليست ابتسامةُ العمرِ الغّضِّ، خمسةٌ وثلاثون ربيعاً، تلكَ التي ترتسمُ على ذلك الوجه النَّاضر بالأملِ وفطرية الوفاء، فحسب، بل حينما تطالِعُكَ تشعرُ بأنكَ أمامَهُ شخصياً ووجهاً لوجه، يَفْجَؤُكَ، يُوَاجِهُكَ بابتسامته ولباسِهِ العسكريِّ، وكأنَّهُ يقولُ لك: ها أنذا لا آفلُ، ولا أغيب... بل نسغُمُبَارَكٌ تسلسَلَ عبرَ جيناتِ سوريٍّ قارع أعداء الحضارة والإنسانية والإنسان على مرِّ الأبدية، ولم ولن ينهزم...

كنت أحدِّثُ نفسي بهذا كله، كلَّما كنتُ أمرُّ بصورتِهِ حافراً كُلَّ مرةٍ أُخْدُوداً من حزن وألمٍ وفخرٍ وبطولة، ذلكَ الوَجْهُ المُحَنَّطُ بالكبرياء...

"في اليوم الذي أحيلَ فيه والدُهُ المقاتل السابق محمد حسن❖ إلى التقاعد في الجيش العربي السوري: 1999/10/15، كان نبال، ثاني أبنائه، ملتحقاً بالكلية الحربية في حمص متطوعاً في صفوف الجيش العربي السُّوري بتاريخ 1999/10/16.

وما إن دقت طبول الأزمة في سورية ربيع عام 2011، حتى التحق بمهمته الجديدة، حين تعيَّن مسؤولاً عن أحد الحواجز العسكريّة عند مدخل مدينة القنيطرة، ذلك الحاجز الذي استهدف مراتٍ عديدة من الإرهابيين، حيث استشهد أربعة من رفاقه قبله...

أصيب مرات عديدة، مرة منها في قدمه، وتعرض لحادثة قنص من الإرهابيين على أوتوستراد "السلام" بين بلدة "خان الشيح" وبلدة "قطنا" باتجاه "فلسطين"...

يذكر والده أنه أثناء إحدى الإصابات في خان الشِّيْح، قدِمت "دبابة الإسعاف" لإنقاذهم، وإذ يقودها المقاتل "حسن شاهين" وهو من قرية الشهيد "نبال" نفسها، وأصيب أثناء الإنقاذ، والتقى البطلان، ابنا القرية الواحدة، في ساحة المعركة على تراب ريف دمشق، على درب "فلسطين"...

نُقِل المقاتل البطل حسن شاهين جريحاً إلى مشفى تشرين العسكري بدمشق، حيث بُتِر ذراعه، وأما البطل نبال فعاد بعد أيام قليلة من الاستشفاء إلى عمله...

لاحقاً وبعد عودة نبال إلى حاجز "خان الشِّيح"، كان العناصر يقومون بتجهيز مقر لحمايتهم من القذائف في محيط المنطقة، فسقطت قذيفة بالقرب منهم، أصيب "نبال" على إثرها إصابة بليغة في أعلى الفخذ، فنقل إلى مشفى تشرين العسكري بدمشق للعلاج، واستشهد أثناء العمل الجراحي متأثراً بجراحه، وبسبب من النزف الشديد الكثيف الحاد، بتاريخ 10 نيسان 2016.

يذكر في مذكراته عن يوميات القتال والمعارك:

(شاركت في مهمات عديدة، حيث نلت ثناء من قيادة الوحدة العسكرية، في مهمة مؤازرة أحد الأفواج المقاتلة، ونفذنا كميناً للمسلحين في منطقة العباسية، في بلدة "زاكية" في ريف دمشق، وعدة مهمات في بلدات (سعسع، وكناكر، ودير العدس، وعين عفا، وتل مريد، وتل الشيح) وكانت أصعب المهمات في القنيطرة، حيث يوجد عدد هائل من المسلحين من جبهة النصرة، بدعم من العدو الإسرائيلي، العدو الذي لم يتوانَ عن ضرب الصواريخ علينا... وفي مهمة فك الحصار عن حاجز "المضخة" في منطقة خان الشيح، سقطت قذيفة مدفعية أدت إلى تمزق أربطة في قدمي، ورضوض عدّة في أنحاء جسدي، بعد أن فقدت الوعي، وسقطت من ارتفاع ثلاثة أمتار، كانت الخوذة، ورعاية الله، حائلين دون كسر جمجمتي، وحينها بترت يد زميلي المقاتل البطل حسن شاهين الذي كان يمتلك من الشجاعة ما يكفي لإيثار زملائه المقاتلين على نفسه، وقد جرح واستشهد منا الكثيرون في تلك المواجهة..."

يستذكر والداه الفترة قبيل الاستشهاد بأشهر قليلة، قائلين:

"طالت غيبته حوالي ثمانية أشهر، لم ينزل ولا إجازة، ولم نره، فأبلغناه هاتفياً إننا حزمنا حقائبنا وننوي زيارته غداً في "قطنا"، وأخبرناه أن له ابنة وليدة، صار عمرها عدة أشهر، ولم نرها بعد، فأجابهم: لا تأتوا، بل نحن سنأتي إليكم في القرية قريباً"، تقول الأم:

- حينما نطق بتلك العبارات، شعرتُ في قرارة نفسي وروحي أنَّ ابني شهيدٌعما قريب..."

طوال تواصله مع أهله وأسرته تلك الفترة، كان يقول لهم:

- الوضعُ صَعْبٌ، الإرهابيون كُثُرٌ، الرَّصَاصُ علينا كالمطر... فقط ادعوا لنا بالسلامة والنصر...

كان ينفذ مهمته بصورة مستمرة ولائقة، وبكفاءة عالية كضابط إشارة، وبالوقت نفسه يقوم باستعمال السلاح في مقاومة الإرهابيين، وصد هجوماتهم المتكررة، ويؤثر عنه أنه كان يدفع بنفسه إلى "الموت – الشهادة".

في اليوم الثالث من التعزية باستشهاده، قَدِمَ رفاقُهُ من القطعة العسكرية، أحدهم برتبة عقيد، فشَهِدَ بأنَّ أحدَ العناصر من رفاق "نبال" المُخْتَصَّ باكتشاف خنادق الإرهابيين عبر جهاز خاص بذلك، وكان استخدام الجهاز يتطلّب جرأة عالية، وإقداماً واستبسالاً، فتردَّدَ المقاتل المختص باستخدام الجهاز، ولم يستطع التقدم للقيام بعمله كما يجب، فانبرى البطل نبال وقال: أنا أقوم بعمله نيابة عنه، وبالفعل فعل...

كان يرفض النزولَ في إجازة وتَرْكَ مَوْقِعِهِ، خاصةً في الأشهر الأخيرة، والتي كانت عصيبة جداً، ويؤجلها كلما أتى استحقاقه بها، كان يفضِّلُ البقاءَ على رأس عمله على أن يرى والديه وأسرتَهُ، وكان والداه يتمنَّيَان رؤيته، فيطلبان إليه أن ينزل في إجازة، لكن كان يجيبهما:

- لو أخذتُ إجازةً، وزميلي الآخر في إجازة، والآخرون كذلك، فمن سيحمي الوطن!!!؟

ومن مذكراته التي كان يدوِّنُها...

"أتمنى أن أموت شهيداً دفاعاً عن بلدي سورية، دفاعاً عن أهلي، أمي، أبي، إخوتي، وأسرتي التي تمنيتها سابقاً، وأن يلف تابوتي الخشبي بعلم بلدي الحرة سورية فوق كفني الأبيض الملطخ بدمائي، وبقايا تراب الجولان على جسدي..."
مؤرخة في 2005/8/1 ريف دمشق / زاكية

من صفاته المناقبية التي يرويها أغلب من عرفوه:

"ذكيٌّ، محبوب في القرية ومن رفاقه جميعاً، له شعبية واسعة حتى في منطقة قطنا حيث سكنه..."

وهكذا... ارتقى شهاباً من شباب هذا الوطن العزيز بهم وبأمثالهم، تاركاً سيرة قدوة، وأسوة حسنة للأجيال القادمة، يتوارثونها سيرة وسريرة وسراً لهذا البلد العظيم بلد الشمس والضياء سورية.

***

●● زوجة الشهيد البطل، السيدة فاطمة محمد إبراهيم، تابعت دراستها الجامعية بعد الزواج وتخرجت في كلية التربية وعملت مدرِّسة، لتتابع تعليمها العالي "الماجستير" في التربية بتشجيع من زوجها البطل" نبال"، وناقشت الأطروحة قبل الاستشهاد بعدة أشهر وهي حامل في الشهر التاسع بالطفلة الثانية ميرا، ضاربة مثلاً في الثبات والصمود والتحدي والاستمرارية وتجاوز الموقف المؤلم، وقد كُرْمَت من الفعاليات الرسمية والأهلية في قريتها في ريف محافظة طرطوس.

***

تاريخ الاستشهاد 2016

الإحساس بالموت

حكاية الشهيد البطل محمد خالد الحسين

من محافظة حماة

عدّة أيام مرّت، أقلقتني حالة زوجي، فهو ليس على ما يرام، يبدو شارداً طوال الوقت، لا ينطق بكلمة إلا إذا كلمه أحد أفراد العائلة، وكلما سألته ما بك يا رجل؟ يقول:

- أشعر أنني سأفتقدكم.

شعوره هذا يقلقني أكثر، ويزيد من خوفي عليه، فالإحساس غالباً ما يصدق، وخصوصاً في هذه الظروف العصيبة، وكون طبيعة عمله تتطلّب الحذر أكثر، فقد طالت فترة شروده وصمته، وهذا الوضع حمّلني الكثير من القلق والتوتر والخوف.

كان يعمل في سلك قوات الأمن العسكري، ما يجعله محط أنظار الخونة والمسلحين الإرهابيين، ورغم كل محاولاتي لتهدئة شعوره بالقلق، فقد غادرت الطمأنينة قلبه، وامتلأ بالخوف والرهبة، ليس على نفسه، بل على أولاده وحرمانهم منه.

هذا ما تقوله أم قتيبة، زوجة الشهيد البطل محمد خالد الحسين، وتضيف:

- بتاريخ السادس والعشرين من كانون الثاني سنة 2012 ذهب زوجها مع شقيقها وولدها قتيبة لجلب الخبز من منطقة صوران، التابعة لمحافظة حماة، وقال لها:

- أوصيك يا وردتي بأولادنا خيراً، وخصوصاً الصغار: شهد وأحمد وعقبة.

فأجابته:

- توكل على الله يا رجل، إنها مجرد أوهام، وإن شاء الله سوف تعود إلينا سالماً غانماً.

وتتابع الزوجة أم قتيبة حديثها:

- لم نكن نتوقع أن هناك مؤامرة تحاك ضده من الأنذال الخونة، أبناء البلد، الذين وضعوا أيديهم بأيدي المرتزقة والخونة، خاصة الإرهابي (حمدو محمود العلوش) والإرهابي المجرم (هيثم رزوق) الذي اختطف زوجي الشهيد، ومن ثم قتله، فحين وصلوا الفرن في "صوران" حيث الحاجز الذي نصب له، سرعان ما أبرز زوجي هويته العسكرية، معتقداً أن الحاجز للأمن، وعناصر الحاجز رفاقه، لكنه كان حاجزاً وهمياً لما يسمى بـ (الجيش الحر) فقام أحد أفراد عصابة الحاجز بالاتصال بالبقية، وأعلمهم أن "محمد خالد الحسين" صار بين أيديهم، أنزلوه من السيارة وتركوا ابني وخاله، وبدؤوا بطلب فدية وقدرها 500 ألف ليرة سورية، وصرت أتخبط مع إخوتي وأقربائي لجمع المبلغ، واقترح عليّ أقربائي بأخذ أولادي الصغار إلى المرجع الديني للمسلحين الإرهابيين، لعل قلبه يرقّ علينا، فيتركون والدهم، وذهبت إليه مع أطفالي، وبعد كل التوسلات والبكاء والإذلال وعدني بأنهم لن يؤذوه، وكل ما في الأمر أنهم يريدون منه تسجيل فيديو يثبت فيه انشقاقه عن الجيش السوري، وقال لي: (اذهبي إلى بيتك، وانتظري منه اتصالاً مساء هذا اليوم).

عدت إلى البيت مع أولادي وأنا مكللة بالأمل، وقمت بتجهيز العشاء، رحت أنتقي المأكولات التي يحبها الزوج المنتظر، وكانت فرحة صغاري كفرح العصافير بقدوم فصل الربيع، اجتمع كل الأقرباء في منزلي ونحن ننتظر اتصاله حتى ساعة متأخرة من الليل، ولم يتصل، وكثرت التساؤلات والشكوك، وفقدنا الأمل، وطارت فرحة قلوبنا التي أغشاها اليأس والفشل، ونام الصغار ودموعهم حبيسة مآقيهم، وذهب الأقرباء إلى بيوتهم حيارى متعبين، وبقيت وحدي أناجي الله وأتوسل إليه أن يرأف بحال زوجي، ويرده إلى صغاره الذين باتوا يتامى قبل أن يصلنا خبر استشهاده.

آه ما أصعب الشعور بالخيبة والخذلان، وفقدان الأمل، والانتظار الذي لا يجدي، وصارت الأفكار التي تراودني أشد أنواع القتل والتعذيب.

وتتابع أم قتيبة رويدة بركات أبو اللبن قصتها قائلة:

وحين أراد أخي وابني أن يدفعا الفدية، اقترح عليهما أحد الأقرباء بعدم دفعها، لعلمه بقتلهم له، وبأنهم سوف يأخذون الفدية ويرمونه قتيلاً لنا، لم أكن أعلم بالخبر بعد، ولكن الأنذال كانوا قد اقتادوه إلى أحد الطرق في (وادي دورات) وقتلوه، ورموا بجثته بجانب مدجنة (حسن العتوك) التابعة للبلدة، وفي الساعة الخامسة صباحاً من اليوم الأول من شهر شباط، مرّ أحد الأشخاص ويدعى (رضوان العثمان) ورأى جثة زوجي محمد خالد الحسين، فأسرع إلى الحاجز وأعلم الدورية بذلك، فقاموا بنقل جثته إلى مشفى حمص.

وتتابع أم قتيبة قائلة:

وجاء أخي، مع زوجة شقيق الشهيد محمد، وأعلموني باستشهاده، فصرخت بأعلى صوتي، انتحبت وبكيت، واسودت الدنيا في وجهي، أيعقل أن يقتل الإنسان بهذه السهولة دون رحمة ولا شفقة؟! وحين جاءت جثته من المشفى كانت ملفوفة بالعلم السوري، فأتى الإرهابيون الأنذال لأخذ العلم، فصرخت بوجوههم، وشتمتهم أنا وإخوتي وأقربائي وأولادي، الذين ذاقوا أشد ألوان القهر، ومن بعده الحرمان، واليتم الذي مازال مرتسماً في عيون أولادي إلى هذا اليوم، كلما نظرت إليهم وتذكرت تلك اللحظات التي ودعوا بها والدهم إلى مثواه الأخير، ولم يكتفِ الإرهابيون بذلك ولم ترتوِ عروقهم السامة من دم زوجي وغيره، بل اختطفوا ولدي قتيبة، وبقي لديهم ثلاثة أشهر، ثم تركوه، كما قاموا بخطف وقتل شقيق زوجي أيضاً قبل ثلاثة أشهر من خطف زوجي، ويدعى (علي خالد الحسين) وكان يعمل بالجمارك، ومندوباً لفرع أمن الدولة، وهذا ما جعلهم ينكلون بجثته أبشع تنكيل، فهشموا رأسه، وقطعوا أوردته، ومزقوا لحمه، ثم ألقوا بجثته عند قرية كفر زيتا، إحدى قرى إدلب، في منطقة تدعى (الصياد) ونقله المارّة إلى المشفى بإدلب ومعه جثتان، ونشر خبر الجثث يومها على قناة الدنيا.

لكن عدالة الله فوق كل جبروتهم وطغيانهم، فاليوم قُتِل جميع المجرمين والخونة والمتخاذلين على أيدي أبطال الجيش السوري، أولئك الأبطال الذين ما

غفلت عيونهم يوماً عن أفعال المجرمين، وعلى الرغم من خبر قتل المجرم الإرهابي (هيثم رزوق) وهو من قام بإطلاق النار على زوجي، وقتل كل آل العلوش، إلا أن قلبي لم تهدأ ناره إلى اليوم، فكلما تذكرت ما فعلوه بنا بعد استشهاد زوجي، وتهديدي، وترحيلنا من بلدنا، أتجرع كأس الفراق والألم الذي نثره الأوغاد القتلة على شغاف القلوب المفجوعة.

***

تاريخ الاستشهاد: 2012

"نموتُ لتزهر الأجيال فينا..."

حكاية الشهيد البطل حسن إبراهيم حسن

من محافظة طرطوس

مدوِّناً اسمي ولديه "ماري" و"يامن"، بالفحم الأسود على سور إحدى المدارس في "خناصر"، وادي الدهب، إحدى ضواحي مدينة حمص، عقب تحريرها من الإرهابيين، مرسلاً رسالته العميقة بمضامينها الإنسانية والوطنية السامية المشرفة:

(نحن نضحي لأجل أبنائنا وأبناء هذا الوطن، نبذل حيواتنا ليوهبوا الحياة، والمضمون الخالد الآخر هو أنَّنا نحرر العقول من الظلام والظلم، لتعود سورية نور العلم، وليحيا بعدنا أبناؤنا ليرتادوا المدارس، ويرتعوا في أرض أجدادهم مطهرة من كل غاصب معتد أثيم...)

وتشرق الزوجة بالدمع والأسى، وهي تقول:

- كان دائم الاطمئنان على الأولاد، هل أكلوا جيداً؟ وهل يلبسون جيداً؟

مع اندلاع ألسنة لهب الأزمة السورية في ربيع عام 2011، كان كل بيت وكل فرد فيه من الأسر السورية يعدُّ نفسه معنياً بالدفاع عن سورية، وتشكلت ما يسمى بقوات الدفاع الوطني، كرديف للجيش العربي السوري النظامي، وكان الشهيد حسن إبراهيم حسن، "والذي لم يكن موظفاً في الدولة، بل يعمل أعمالاً حرة ما تيسر له منها، ويكسب رزقه ليعيل عياله بقوته الجسدية، فلم يتح له الدفاع عن الوطن سوى بالانخراط في صفوف القوات الرديفة، وعليه فقد كان من أوائل المنخرطين في صفوف الدفاع الوطني، عام 2011، خاضعاً لدورة عسكرية تدريبية مدَّتها خمسة عشر يوماً خارج القطر، ليعود على إثرها فيلتحق في حلب برفاق السلاح، عبر مطار "حميميم" في ريف اللاذقية، ومن وقتها حتى

استشهاده بتاريخ 2013/8/31 لم ير عائلته المكونة من زوجته، السيدة غنوة عزيز منصور، وابنيه "ماري" و"يامن"، كما لم ير أحداً من أهله أو والديه أو ذويه.

قبض راتبه الشهري الأول، وناوله لزوجته ثم غادر، وبات التواصل مع عائلته عبر الهاتف الخلوي "إن توفر".

تقول زوجته السيدة غنوة، بأنه كان يخبرهم بتعرضه مع رفاقه لمداهمات عديدة، وهجومات عنيفة، من المسلحين الإرهابيين، وأنه كان يجوع ريثما تصلهم إمدادات المؤونة إلى جبهة القتال المشتعلة والمحاصرة... ثم انقطع الخط... وبقي هاتفه ثلاثة أيام خارج التغطية، بعدها حدث اتصال آخر، فأوصاها بزيادة اهتمامها بالأولاد، ففهمت بأنه قد لا يعود إلا شهيداً.

تذكر السيدة رنا منصور، شقيقة زوجته، بأنه اتصل بها وطلب منها شراء ثياب جديدة للطفلين، ليلبساها في عيد الفطر القريب، وأن توفي دينه لسمان القرية بمبلغ أخبرها إياه، واعداً إياها بأن يوفيها المبالغ عندما يأتي في إجازة قادمة إلى القرية... وفعلت...

كان الوقت شهر رمضان الفضيل من صيف عام 2013، حيث حدث الاتصال الأخير ما قبل الاستشهاد، فقد أخبر زوجته بأنه أرسل لهم مبلغاً من المال مع زميل له من قرية مجاورة، وسألها عن الطفلين وكيف أحوالهما وكيف يعيشان، كانت تسمع أصوات الرصاص المنهمر، وأزيز المعارك عبر الهاتف، لكنه كان يطمئنها أنه بخير، ويكرر توصيته بالاهتمام بالأولاد، ويعدها بأنه سيأتي إجازة عيد الفطر السعيد، وبالفعل وفى بوعده، وأتى، ولكن شهيداً...

تذكر زوجته، السيدة غنوة، بأنه أخبرها مازحاً بأنه جائع، فتناول علبة من معلبات جاهزة من مؤونة الجيش، ثم مضى فصعد ال "ب ر د م" لإيصال الذخيرة لرفاقه على جبهات القتال المشتعلة مع المسلحين، في منطقة "جبل شويحنة" التابعة لمحافظة حلب، فانفجرت الدبابة التي أمامه، وأصيب بطلق ناري في الرأس، وبعد حوالي خمس ساعات، وصلت المؤازرة، ونُقِل إلى المشفى العسكري في حلب، فقد كان عدد رفاقه سبعة جنود، فأصيب هو وشاب آخر معه، لاحقاً سيستشهد البطل حسن إبراهيم حسن، أما أحد رفاقه فقد قطعت أذنه اليسرى، والباقون لم يصابوا بأذى، وقد قدموا للتعزية عقب الاستشهاد...

بقي إثر نقله مصاباً ثلاثة عشر يوماً في المشفى قسم العناية المشددة، ثم نقل لقسم الأمراض العصبية، حيث أصيب بعدها بنزيف في الدماغ أفقده معظم الحواس، وأحدث شللاً في الأطراف، فقد كانت الإصابة بالغة في الرأس... مفارقاً الروح على ثرى حلب، متأثراً بجراحه في 31 من شهر آب 2013.

حدث التشييع في مراسم رسمية وشعبية لائقة، وسلم ممثلو الجيش – وحدته العسكرية - العلم السوري الأغلى إلى زوجته غنوة منصور...

يذكر رفاق السلاح بأنه كان مقداماً لا يتراجع، ويصلي الأعداء الإرهابيين بوابل من رشاشه...

آخر ما أوصى به زوجته هو ألا تلبس الأسود من بعده...

***

تاريخ الاستشهاد 2013

الأصيل

حكاية الشهيد البطل سالم العلي

من محافظة الرقة

كان شعاره الذي يردده دائماً (عاشر أصيلاً إذا جار الزمان يجود) كانت هذه أول عبارة قالها لي، عندما زارني الشهيد سالم العلي بمكتبي في دمشق، بعد انقطاع أربع سنوات، لم ألتقهِ بعد أن فرقتنا سنوات التهجير، نتيجة الأزمة التي نهشت جسد هذا الوطن.

قال لي جاري التسعيني أبو ذياب: إن رجلاً يرتدي زياً عسكرياً مموهاً، قد جاء وراح يطرق باب المكتب بعنف، مما أثار غضبي، فخرجت، وأنا أحدثه بلهجة حادة:

- لماذا هذه الضجة؟ ماذا تريد؟

ابتسم وقال:

ـ أريد الأستاذ محمد، أليس هو صاحب المكتب؟

ـ نعم ولكنه ليس موجوداً الآن، ربما ما زال في المحكمة.

ـ إذاً سأنتظره.

وفي هذه اللحظة كنت قد وصلت، وكان الحوار بينهما في نهايته، صحت بعلو صوتي:

ـ مَنْ؟ سالم؟!

فبادرني بضحكته العريضة:

- مَنْ؟ محمد الحبيب؟!

تعانقنا بحرارة، وجاري أبو ذياب مذهولاً مما يرى، فانسحب إلى مكتبه مغلقاً الباب خلفه.

ـ أجل يا سالم، منذ أن دخل المسلحون مدينة الرقة، وبدؤوا يدمرون العقول والنفوس، مثلما دمروا المدارس والمقامات والمساجد، هاجرت من المدينة إلى دمشق، وقد ساعدني صديق قديم لي، عرفته أثناء خدمتي العسكرية في لبنان، في تأمين هذا المكتب وبأجرة رمزية، المهم طمئني عن أحوالك الآن.

ضحك صديقي سالم العلي (الأصيل) وهو يرتشف قهوته، ويشعل سيكارة أخرى:

ـ أما أنا فقد هاجرت إلى بيروت مع العائلة لمدة سنة تقريباً، اضطررت بعدها للعودة إلى دمشق، وبمساعدة صديقي الدكتور مروان، تعرفت على الحاج أبو عبادة، الذي ساعدني بتأمين منزل لعائلتي في منطقة السيدة زينب، ومنذ سنتين انضممت للقتال في صفوف رجال المقاومة، في كل مكان يتطلبه الواجب مني.

ـ أجل، أنت دائماً تحاول أن تكون شيئاً في هذه الحياة، أذكر عندما نجحنا في الثانوية العامة في عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين، وتقدمت أنت للانتساب إلى الكلية الجوية لتصبح طياراً، وتقدمت أنا لكلية الشرطة، لكن الحظ لم يحالفنا نحن الاثنين، لا ندري ما السبب؟! حتى مدرس اللغة العربية في الثانوية الأستاذ عبد الحميد الفلسطيني، عندما سألك لماذا ترغب بأن تصبح طياراً؟ أجبته (من أجل أن تقصف الصهاينة في فلسطين).

تنهد صديقي سالم من أعماقه وهو يدفع دخان سيكارته من أعماق صدره الملتهب، أدركت ما يعانيه، فتنهدت بمرارة مثله، فأردف قائلاً:

ـ المهم عوضت ذلك بالانضمام إلى عناصر المقاومة. يكفي أنهم رجال لديهم صدق وعقيدة راسخة، وتأكد يا محمد أنني مستعد لأية مهمة، ولو كانت داخل فلسطين لن أتوانى، فقد امتحنوا قدراتي، في عدة مواقف قتالية خلال هذه الحرب على بلدنا، وقد أبليت بلاء حسناً، ولم أفكر بالموت لحظة واحدة، فهو بقناعتي الطريق إلى الخلود، وقد قال لي الحاج أبو عبادة يومها:

- سيكون لك شأن كبير يا أبا عبد الله، وفيٌ لوطنك ولقادتك، وهذا المهم.

كان سالم يضحك من أعماق صدره العريض، ونحن نتناول طعام العشاء الذي أحضره من محل قريب من المكتب، كان مبتهجاً للحياة، قال لي:

ـ في إحدى المرات حاصرنا بناء قيد الإنشاء، فيه مسلحون، والدخول إليه كان مغامرة، لا تحمد عقباها، وشكل عائقاً أمام تقدمنا، إذ أنه كان مكشوفاً لمن يفكر بالدخول إليه، ولديهم قنّاصون محترفون، وقائدنا يطلب منا التريث ريثما يتم استنزافهم وإنهاكهم، ورغم ذلك لم يستسلموا، فقلت يومها للحاج أبي عبادة:

ـ لماذا لا تدعني أغامر هذه المرة، فإن نجحت فهو نجاح لكم، وإن فشلت أكون قد نلت شرف الشهادة؟

غير أن الحاج طلب مني التريث، كوني مقاتلاً شرساً ومتفانياً، وعندما لمس إصراري على فكرتي، لم يملك سوى الموافقة، رغم أنه حاول إقناعي بأن نسبة النجاح تكاد تكون معدومة، لكن إيماني بما أنوي القيام به كان كافياً لأن نبدأ بالتخطيط، على أن يكون الهجوم الناري المكثف من عدة محاور، باتجاه أقرب كتلة سكنية للبناء الذي يوجد فيه مسلحون، وأن يكون ذلك عند شروق الشمس، لكي يكون المسلحون الإرهابيون على قناعة أننا لن نهاجمهم في وضح النهار، ومن جهة أخرى مناورة للفت انتباههم إلى جهة توحي لهم بوجود مسلحين لا يعلمون عنهم شيئاً، في الوقت ذاته أقوم بمغامرتي، وهي أدق مرحلة، متسللاً وبسرعة خاطفة إلى البناء المحاصر، معتمداً على إيماني بالله تعالى، ومن ثم التمركز في زاوية ما، ريثما تهدأ الأمور قليلاً وأطمئن أنني لم أكن مراقباً، وتم بفضل الله لي ذلك، واختبأت بين الركام عند مدخل الدرج داخل البناء المحاصر، بحيث أتمكن من رؤية أي شخص قد ينزل من الطوابق العليا، وبعد ما يقارب الساعة، شعرت بحركة شخص ينزل على درج البناء من الداخل، وهو يغني على ما أذكر أغنية محمد عبدو "ليلة ليلة"، ويحمل بيده إبريق شاي ليملأه من خزان كان بالقرب من مدخل الدرج، للحظة انتابني شعور بالشفقة عليه، ولم يكن معه سوى مسدس حربي يضعه في جيب خاصرته، ولكنني عندما تذكرت ما فعلوه، أطلقت عليه من مسدسي الكاتم للصوت، الذي زودني به الحاج أبو عبادة، فقتلته على الفور، وقمت بسحب جثته إلى مكان تحت الدرج،

وعدت للاختباء في مكاني، وبعد لحظات سمعت صوت أحدهم في الطابق الأعلى ينادي:

ـ أين أنت يا ذيب، لقد تأخرت؟

شعرت بخطواته هو الآخر تقترب، وفيها حذر وتوجس، وبمجرد أن لمحته قنصته على الفور، فتدحرجت جثته، ولما أدركت أن رفاقه قد سمعوا ارتطام جثته على الأرض، قذفت بقنبلة إلى السطح الأعلى، وبدأت بإطلاق نار كثيف باتجاه ثلاثة مسلحين هبطوا مندفعين كأنهم انتحاريون، تذكرت في هذه اللحظة نصيحة الحاج أبو عبادة:

ـ عليك أن تكون هادئاً ولا ترتبك، لتتمكن من القضاء على أكبر عدد منهم، وفعلاً قتلت المسلحين الثلاثة، وكان بقية الرفاق قد دخلوا البناء وانتشروا فيه، لم يكن سوى القتلى الخمسة، اكتشف عناصر الهندسة في مجموعتنا بوجود نفق انسحب المسلحون من خلاله إلى جهة مجهولة.

كان صديقي سالم يتحدث بزهو وفخر أقدره فيه عالياً، فهو يعشق الحرية ويعشق الطيران الذي حرم منه، وعندما استشهدت ابنة مدينتنا، حميدة الطاهر، في الجنوب اللبناني، تحمس كثيراً، وسعى للالتحاق بصفوف المقاومة في الجنوب، لأنه عندما يؤمن بهدف يسعى إليه.

في تلك الليلة سهرنا طويلاً، ولا أدري كيف نمنا، إلا عندما استيقظت باكراً لأجده قد غادرني بعد أن كتب عبارة تركها على الطاولة (عاشر أصيلاً، فإذا جار الزمان يجود) وقد أخبرني بأن ابنته الكبرى زينب منذ سنة تدرس في الكلية العسكرية للبنات، وبأن ولده عبد الله انخرط بدوره في دورة قناص محترف، بعد أن قام بضمه لصفوف المقاومة التي آمن بعقيدتها الراسخة في نفسه.

عندما عدت من سفري من مدينة حماه، حاولت الاتصال بصديقي سالم عدة مرات، غير أن هاتفه كان مغلقاً، فعزوت ذلك لطبيعة عمله، ولا سيمّا أنه رقّي إلى قائد مجموعة بعد النجاحات التي حققها وبمباركة قائده المباشر، فوجئت في اليوم التالي باتصال هاتفي من الحاج أبي عبادة، يخبرني أن سالم العلي قريبي قد استشهد منذ عدة أيام، في وادي النضارة، بعد أن أبلت مجموعته البلاء الحسن،

وبناءً على وصيته قمنا بدفنه في مقبرة السيدة زينب، بمراسم دفن وتعزية تليق به، عاش بطلاً ومات بطلاً.

في لحظة ما شعرت بتفاهة الحياة، ونفرت دمعتان سخيتان من عينيَ، فهو رفيق طفولة وشباب وابن قريتي، وقد اختار النهج الذي آمن به.

عرفت فيما بعد أن صديقي سالم، قد تلقى اتصالاً من قائده بالحضور في الليلة التي كان يبيت فيها عندي، رغم أنه لم يخبرني بذلك، وقدرت احترامه لأسرار عمله، وبعد انجاز المهمة الموكلة إليه مع مجموعته، طلب العودة لزيارة عائلته في حي السيدة زينب، رغم أن الحاج أبا عبادة قد طلب منه الانتظار لليوم التالي لينزل برفقته، إلا أنه كان مصراً، وكأن أمراً ملحاً في منزله يستدعي حضوره، ما جعل قائده يكلف سائق المصفحة بأن ينقله مع بعض العناصر، مختصراً الطريق الذي يتوقع وجود قناصين فيه، يتربصون بعناصر المقاومة، ولكنه أصر على عدم ركوب المصفحة، إنما اكتفى بالسير بجانبها وترك لبقية العناصر الجلوس بداخلها، وفي منتصف الطريق الذي لا يتجاوز الخمسمئة متر، صاح العناصر فجأة: (استشهد أبو عبدالله) لقد تم قنصه من مسلح من مكان ما في تلك المنطقة الوعرة.

استشهد سالم العلي واقفاً كالنخلة في وادي النضارة خلال الشهر التاسع من عام ألفين وسبعة عشر، أدركت حينها عمق العبارة التي آمن بها.

***

تاريخ الاستشهاد: 2017.

أرواحهم

حكاية الشهيد البطل بشار حبيب

من محافظة اللاذقية

لماذا تحزن الآن يا رجل، وتتهاطل الدموع من عينيك؟ أدمٌ هذا الذي يسيل على وجنتيك، أم مجرد قطرات من الندى ستطيرها ريح الأيام التي تعبر بكم نحو حدود الجحيم؟

آه كم تتمنى الآن لو تعود، وترمي نفسك فوق شعاب تلك الأرض التي تعشقها حتى آخر نقطة من دمك.

وقلت والذكرى تنهض ماثلة أمامك، لتهيض جراحك الدامسة:

- وأنت أيها المبجل في قلبي، ويا من أتمنى البوح باسمك أمام كلّ الناس ليلاً نهاراً، أنت يا بشار حبيب، يا من سطعت بنجمتين فقط، وأنت تستحق كلّ نجوم الدنيا وأقمارها أن توضع على كتفيك، لا تزال الأمنية قابعة في قلبي حتى اللحظة أن ألتقي بوالدتك لأسألها فقط كيف ربتك وعلمتك لتكون ذاك الجبل الشامخ؟ تمنيت أن أوجه السؤال ذاته لكلّ النساء الناهضات في سماء بلادنا.

ما زلت أذكر حين صاح أحدهم بحدة:

- احتللنا الموقع، الموقع تحت السيطرة.

كرر كلامه أكثر من مرة، وكان الصباح موغلاً ببرده القارس، ووجعه، حيث استيقظنا عليه مرعوبين، لنقول لصاحب الصوت فرادى وجماعة:

- هنا ليس الموقع.

كنا جميعاً داخل المنزل، وكان النداء متأخراً بعد أن صوب المسلح رشاشه، وأطلق عدة طلقات على جداره الخارجي، صرخات الأطفال والنسوة والصبايا

اختلطت ببكاء فيه استغاثة وتوسل، هي من أربكنا بداية الأمر، ولم نعرف كيف نتصرف، فرحنا نحبو كفئران مذعورة، ننتقل من زاوية إلى أخرى.

زاد خوفنا أكثر من تبادل إطلاق النار الغزير بين الطرفين، إذ كنا في وسط المعركة، وهذا ما أوقع الجيش في موقف محرج، والاشتباكات أدت إلى تحطم نوافذ المنزل، وجزء من أرواحنا التي كاد بعضها يتلاشى، وقد شعرت برأسي ينفجر من داخله عندما أطلق أحدهم صاروخاً من جانب نافذة الحمام الذي كنت أحاول الوصول إليه.

أتذكر الآن أن حالتنا تغيرت بعد لحظات الهجوم الأول، إذ صار بعضنا يراقب المعركة من نوافذ المنزل المهشمة، وكأن ما يحدث بعيد عنا، ولعلنا من دون أن ندري كنا في أرض معركة حقيقية، فزجاج النوافذ قد جرح أكثرنا في الأيدي والأرجل، لكنه أتاح لنا أن نشهد بالعين المجردة وقوع الإصابات، ومنها إصابة أحد المسلحين في رأسه، وجرح آخرين ممن حاولوا الهجوم على الموقع الذي اتخذ مقراً له على الطريق العام إلى الجنوب من منازلنا.

صياحنا لم ينفع في إيقاف القتال الدائر، ناديت بأعلى صوتي:

- أرجوكم ابتعدوا عن المنزل ولا تحتموا بنا.

فاختلط صوتي بأصوات الرصاص وتلاشى، والخال أبو محيي الدين كرر ما قلته، فرد عليه رجل طويل وعريض المنكبين قائلاً :

- وحّد الله يا حجي.

ثم تابع الإطلاق من رشاشه الذي يعلق "شرشوره" بشكل متصالب على صدره.

كانت خيارات الهروب محصورة في جهة الشمال، حيث وادي الرقاد الأقرب إلينا، والذي يمتد محاذياً أرض الجولان.

أتذكر أنكم من النافذة الشرقية للمنزل رأيتم صاحب الرشاش، وهو يدق على نافذة الجيران طالباً منهم الخروج، وسيل من السباب والشتائم تبادله حامل الرشاش مع جيراننا، انتهى بتهديده ووعيده لهم بالويل والثبور عندما تنتهي المعركة، وعندها تسابقنا إلى الباب وخرجنا قبلهم، كسهام انطلقت وتفرقت كلمح البصر في الشفا الشمالي.

لقد أنبت الخارج أدوات داخلية تقاتل نيابة عنه، ونجح في ذلك.

زجرت نفسي، لتكف عن تلك الأفكار، وحصر التفكير في اللحظات الحرجة التي كان يلاعبنا فيها الموت، لنكتشف أن الخوف أشد وأكثر ضراوة منه. عرفنا لاحقاً أن من رافق حملة السلاح أكد أننا في هذا الحي نتعامل مع الجيش، ولذلك لا داعي للاهتمام والتكدر إن أصابنا مكروه، فالموت غاية أساسية لهذه الحرب، وأن يقتل أكبر عدد منا أو يشرد فهذا هو المطلوب.

زوجة خالي أصابتها شظية، وكذلك حفيدها محمد، واشتباك بالأيدي حدث بين أبناء خالي والمسلحين، والشظايا فضت الاشتباك عندما أصابت جارتنا أم خالد، وابنتها ربيعة، وحين نظرت إلى الفتاة التي تقودها كاد عقلك يطير، وخاصة وأنت ترى الدم يصل إلى قدميها، نتيجة شظية أصابتها في العنق، كانت تموت بين يديك، وأنت لا تدري ما ستفعله مع تلك اليتيمة التي كفلتها مع ثلاثة من إخوتها مذ غادر والداهما عالمنا إلى غير رجعة.

كانت تكبيرات المسلحين ترتفع تارة، وتخفت تارة أخرى، وكان الجنود يردون عليهم بتكبيرات مثلها، يزيد عليها قائدهم، أو الضابط المسؤول عنهم بشار حبيب بقوله:

- الله معنا وليس معهم يا شباب.

كنا نسمع كلماته تلك بكلّ وضوح، وهو يحض جنوده على الصمود والاستبسال، وكان المسلحون يستعملون مكبر الصوت طالبين من الجنود تسليم أنفسهم، وقاطعين الوعود بأن الأذى لن يمسهم إن هم فعلوا ذلك.

لم يكن لدينا الوقت، وكان لزاماً عليك في تلك اللحظات أن تهرب بشتات العائلة مبتعداً عن الخطر، وتوقف دم ابنة أخيك النازف أمام ناظريك.

أنت لا تستطيع أن تصف ما حصل لكم، ولو حاولت. لكنك تذكر مرة بعد أن حل الخراب عليكم، كيف وقفت فوق سطح المنزل تتأمل المكان والمعارك التي حدثت فيه، ويومها سألت نفسك:

- هل تستحق هذه الأرض المملوءة بالحجارة أولئك الرجال الذين ماتوا فوقها؟

كنت أريد أن أقول لنفسي كي تتحرر من قيودها:

- أيها الكسول الخامل المبرمج على الحزن، ليس من أحد سواك يجلس على الكرسي الأخير في هذه الحافلة. لا تسرف بنظرك إلى البعيد، فليس أمامك سوى صحراء وخيمة فتحها لنا من فتحنا لهم القلوب ومآقي العيون، وخلفك ذكريات موجعة. وعليك أن تنزل حالاً لتعود إلى درب الوجع من دون هوادة.

وحين رأيت الرجل مضرجاً بدمه قلت:

- أيها الراية المرفرفة، والعلم الراسخ في الروح قبل الأرض، كم كنت أتمنى أن تتوقف عن الموت، وأن تنهض ولو للحظات، لأسألك عن سر ذلك الصمود الذي كنت فيه طوال عشرة أيام متوالية لم تعرف فيها النوم، أو الراحة والهدوء، لم تذق فيها إلا القليل من الطعام، لماذا لم تنسحب يا رجل؟ كان بإمكانك أن تفعل ذلك، فلماذا لم تفعلها وتنجُ بنفسك ورجالك؟

كنت أهمس بتلك الأسئلة وأنا أقف أمام سموه، وعلو عشرة من جنوده الذين تطاول هاماتهم أعالي القمم، ولو كان التاريخ منصفاً لخلد كلّ واحد منهم. لم أكن أصدق البطولات التي ترويها الحكايات والأساطير عن الملاحم والأمجاد إلا حين عرفت حكاية أولئك الرجال الذين حارب كلّ واحد منهم جيشاً من الجراد يوماً بأكمله، ثم لفظوا أنفاسهم مع آخر رصاصة كانت بحوزتهم.

بكيت يومها على الرجال وهم يدفنون بصمت، من دون أمهات تزغرد وتشجع أولادها على المزيد من البذل والتحدي، وبكيت يوم عانقته للمرة الأخيرة أثناء ذهابي للمنزل، ويومها شدني إلى خندقه كي لا يصيبني رصاص المسلحين، لم يكن خائفاً، ولم يفكر بالهروب رغم نصيحتي ودموعي التي نفرتها، وما زالت، على رجال عرفوا معنى هذه الأرض التي يعيشون فوقها.

لم نستطع العودة مباشرة إلى المنزل، بل كانت عودتنا شبه تدريجية، حيث كان علينا تنظيفه وإعادة تأهيله، وخاصة وقد تحولت الأغراض فيه إلى مجموعة من "الكراكب" التي تجمعت فوق بعضها بعضاً، إضافة لتجميع البلور والبحث عن بديل للنوافذ بالاستعانة بما توفر من الأخشاب، وقطع البلاستيك، ومحاولة تشغيل الأبواب وجعلها تغلق كما السابق، ودماء الشهداء شعرنا برهبتها كأنها

تعود إلى أصحابها، ثم تعود لتنسكب من جديد، ومنظر الشظايا، وقطع البناء المتناثرة، ودجاجاتنا المقتولات بعد تهدم القن، يدلل على أن الحياة قد توقفت يوماً في هذا المكان، ومن نجا منها ومن الأرانب في ذاك اليوم تخاطفته الأيدي مع غنائم الموقع الذي عرفنا بأن عناصره فعلوا مثلنا طوال مدة حصارهم، حيث يفتحون باب قن الدجاجات والأرانب صباحاً، ويقدمون لها الطعام والماء، ويهتمون بأمرها حتى المساء.

كان لا بد من العودة، والعيش على الشائعات في ظل انقطاع التيار الكهربائي لأكثر من ثلاثة أشهر متتالية، والأشياء التي لم نكن نشعر بأهميتها غدت محببة، وغالية حد الاشتياق، والشعور بفقدانها لا يعني سوى خسران الأمان والطمأنينة.

برجا المراقبة المطلان على أرضنا وما حولها يزدادان سواداً في الليل، بعد أن تم حرقهما وتخريبهما، لا حراسة ولا جنود يرقبون المكان.

في الأيام السالفة كنا نستأنس بحركتهم وخرطشة بنادقهم، أحاديثهم وأغانيهم التي يصدحون بها فرحاً بلقاء ذويهم، أو حزناً على فراقهم، أو ربما شوقاً للقائهم. كانوا يتقبلون منا الكلمات برحابة صدر، وضابطهم بشار حبيب ذاته كان في منتهى الإنسانية. قال لنا ونحن نتحلق حوله بعد الهجوم الأول قبل عام من استشهاده:

- بماذا أذيتكم يا أهل البلدة؟ هاتوا لي دليلاً واحداً يثبت ذلك.

كان رجلاً حقيقياً بما تعني الكلمة، ولم يتعامل مع أحد بردة الفعل، أو العداوة والانتقام، فقد كان يعتبرنا حتى لحظاته الأخيرة أهله الذين يجب أن يذود ويدافع عنهم.

كان يعرف الوضع ويقدره، ومع ذلك رفض التزحزح والهروب الذي بإمكانه تنفيذه ليلاً عبر وادي الرقاد الذي يمكن أن يوصله إلى أبعد مكان عن الخطر، حيث قيادة كتيبته المتمركزة في قرية "عين ذكر" القريبة من القنيطرة، والمحاذية لحدود الجولان المحتل، شأنها في ذلك شأن بقية قرانا التي تمتد كشريط على ضفاف ذلك الوادي مقابلة قرى أخرى من أرضنا السليبة.

حين سألني عن أعداد المسلحين، وأجبته أنهم يتجاوزون الألف، همس في أذني طالباً مني عدم ذكر ذلك الرقم أمام الجنود، لكي لا يؤثر على صمودهم ومعنوياتهم، وحين تركت له المنزل مفتوحاً وفيه كيسان من الطحين، وعدد من عبوات الزيت، والمؤونة التي تكفيه وجنوده لأكثر من شهر قال متعففاً:

- لدينا ما يكفي من الطعام، ريثما تأتي النجدة، وتفك الحصار عنا. لكنه طلب مني المساعدة في تأمين عدد من علب السكائر لجنوده، فأرسلت ابني، وفعل ذلك على الرغم من خطورة الموقف، فقد كان قرار المسلحين بأن من يتعامل مع الجيش يرمى بالرصاص ويقتل فوراً، ابن خالي محيي الدين أسرّ لي بأنه عندما تناول القهوة معه على عجل أثناء الحصار، نصحه بما نصحته به سابقاً، لكن موقفه الصلب والعنيد لم يتبدل أو يتغير.

بشار كان صافياً مثل الماء، وحبيباً لكل الناس مثل اسمه، واثقاً من نصره، أو لعله قد انتصر وجنوده في تلك المعركة، حيث اعترف المسلحون أنفسهم بسقوط أعداد كبيرة منهم، وأقروا بخسائر فادحة دفعوها، ليحتلوا موقعاً صغيراً فيه عدد محدود من الرجال، وقائدهم، وقلت في سري:

- إن كل واحد من هؤلاء الشهداء يساوي جبلاً من الرجال. فهل أستطيع فعلاً أن أوفيهم حقهم مهما قلت عن بنادق التحمت حد الانصهار بيد من يقبضون عليها، ورجال لكلّ واحد منهم قصة، ويساوي ظفر واحدهم قبيلة من الرجال.

وحدنا نحن ساكني المكان، من كان يشعر بحركة الجنود الذين كانوا هنا وبنبضات أرواحهم، والحيف الذي وقع عليهم، ووحدنا من أحس بفقدانهم وبأهمية وجودهم، فقد كانوا يمثلون الدولة والقانون الذي حلت بدلاً منه شريعة الغاب، والقوي الذي يأكل الضعيف، والليل شديد السواد يتآلف مع مكان سكننا الذي غدا موحشاً، يشبه الخرائب القديمة التي لا يتجرأ على زيارتها مخلوق كائناً من كان، ليس فيه سوى أرواح الشهداء ترقب اللصوص وهم يجوبون حولنا باحثين عن أي شيء يمكن أن يسرقوه.

***

تاريخ الاستشهاد: 2013

كل شيء للوطن

حكاية الشهيد البطل صالح إبراهيم

من محافظة حماة

في ضاحية الأسد القريبة من دمشق، ترك الشهيد البطل صالح إبراهيم عمله، والتحق بصفوف القوات الرديفة للجيش العربي السوري.

كان قد افتتح مطعماً يعيله مع أسرته وأولاده الأربعة، كثيرة هي الأحاديث المسائية بينه وبين أسرته، أحاديث عن إجرام العصابات الإرهابية، وعن بطولات الجيش وبسالة عناصره، أحاديث حفزته على الالتحاق في العمل لدى القوات الرديفة للجيش العربي السوري، للدفاع عن وطنه وشعبه وأهله، وما أثار نقمته هي تلك الأحاديث عن حالات الاغتصاب التي تتعرض لها النساء والفتيات من المجرمين القتلة.

غادر أسرته، وتلقى عدة دورات تدريبية، انتقل بعدها إلى العمل وممارسة القتال إلى جانب رفاقه في الدفاع الوطني، ففي أرياف دمشق ترك بصماته المشرفة بين الزبداني، ودوما، وبرزة، انتقل بعدها إلى حماة، وحمص، ليخوض أشرس المعارك في منطقة الحولة والعزيزية، وفي محافظة إدلب خاض أشرس المعارك ضد العصابات الإرهابية.

لم تمنعه إصابته في قدمه من متابعة القتال، على الرغم من إلحاح رؤسائه على نقله إلى المستشفى ومعالجته هناك، وبعد استفحال الخطر من إصابته رضخ لتوجيه رؤسائه بالذهاب إلى المستشفى حيث عولج، ومنح استراحة مدّة أسبوعين في منزله، لكنه اختصر تلك المدّة وعاد إلى القتال، فالتحق برفاقه وتابع قتاله في إدلب.

وحين وصلت أخبار المعارك الشديدة في حلب، أصرّ على الذهاب إلى هناك مع بعض رفاقه المقاتلين الذاهبين إلى ريف حلب الشمالي، حيث دارت معارك طاحنة في (عندان) و(حريتان).

وفي تاريخ 2012/6/22 بدأ هجوم شرس من الحدود التركيّة، هجوم بآلاف المسلحين، ومن كافّة الجنسيّات، فوجد الشهيد البطل نفسه ورفاقه أمام جحافل من المرتزقة الأجانب، والمدرّبين تدريباً عالياً على القتال، كان الأبطال الميامين في أشدّ البأس، وهم لا يتجاوزون الثلاثمئة، مقابل تلك الآلاف من مرتزقة العدو، اتصل الشهيد البطل بزوجته طالباً منها عدم الاتصال به إلى حين يخبرها بنفسه ويطمئنها، فالمعارك ضارية والمصير مجهول.

وطال انتظار الزوجة حتى اليوم التالي، كانت الأخبار تتناقل متناقضة، فكل وسيلة إعلاميّة تنقل الخبر حسب سياستها وانتمائها ومرجعيتها، فآثرت الزوجة عدم سماع الأخبار إلاّ من المحطات الوطنية، وكانت الأخبار تنقل الأحداث الساخنة عن حصار المسلحين الإرهابيين لبواسلنا في "دارة عزّة" وحاولت زوجته السيّدة (فدوى إسبر) الاتصال المتكرر دون جدوى، رنين الهاتف متواصل ولا من أحد يردّ.

وسريعاً جاءت الأخبار عن استشهاد مجموعة من الأبطال المحاصرين، وكان الشهيد البطل صالح إبراهيم بين تلك الكوكبة من الأقمار التي زينت الأرض بنورها بعدما روتها بدمائها.

***

تاريخ الاستشهاد: 2012

ملف الجرحى

أيّام النار

حكاية الجريح البطل حذيفة جابر ديب

من محافظة اللاذقية

من السنة الثانية إلى ساحات القتال دون أن ينهي الجريح البطل دورته في الكلية الحربيّة، فقد كانت الحرب مشتعلة بين الجيش العربي السوري والفصائل الإرهابية، فنُقِل المقاتلون الأبطال ليلاً من ريف حمص إلى محافظة حلب – (مطار كويرس)، وذلك بعد تحريره من العناصر الإرهابية، فكانت مهمة المقاتلين القادمين حديثاً هي تثبيت التحرير خارج حدود المطار، وحمايته من أي تسلل إرهابي.

وعلى مدى سنتين، كانت المعارك مشتعلة بشكل دائم في محيط المطار، والأرياف القريبة، والأوضاع كالعادة، خسائر من الطرفين، والتواصل بين المقاتلين وأهاليهم قليل، بسبب ضيق الوقت، فالمقاتل هناك يستغل فترة الاستراحة ليغفو قليلاً قبل البدء بمهمة جديدة.

انتقل الجريح البطل مع بعض رفاقه في مهمة أخرى إلى بلدة سرحان، وهناك اشتعلت جهنم من جديد، وكأن كل إرهابيي الكون تجمّعوا في بلدة سرحان، أعداد كبيرة، وأسلحة متطورة وحديثة، واندفاع جنوني إلى الموت، هكذا بدأ اليوم الأول في بلدة سرحان.

في اليوم الثاني اكتشف أبطال الجيش العربي السوري أن الأنفاق في البلدة ممتلئة بالإرهابيين، وقد خرجوا فجأة كالشياطين، وانتشروا بين أبطال الجيش، مما اضطر عناصر الجيش للانسحاب إلى مقراتهم الآمنة.

وبعد عدة أيام تهيّأ الجريح البطل ورفاقه لدخول القرية وتحريرها، وقد تحررت بالكامل على أيديهم، وأُنجز تثبيت التحرير لينهي عناصر الهندسة إزالة الألغام التي زرعها الإرهابيون.

وبتاريخ 2017/2/2 تكلَّف الجريح البطل ورفاقه بعملية تحريرية على حدود بلدة سرحان، فتوجه الجميع إلى هناك، وتوقفوا قليلاً يستطلعون المكان، لاحظ الجريح البطل حذيفة جابر ديب أموراً غريبة، وبعد ملاحظة زملائه أيضاً انتابتهم الشكوك حول تنظيف المكان من الألغام، وكانت مجموعة الجريح البطل حذيفة قد كلّفت بدخول المنطقة مباشرة، وبعد نقاش حول الأمر استقرّ الرأي على دخول عربة واحدة مع مقاتلين اثنين فقط، وذلك لاستطلاع الموقف قبل الدخول العسكري.

كان هذا رأي المقاتل البطل حذيفة ديب، الذي اختار عنصرين اثنين لمرافقته في الدخول، حاول القائد منعه والاكتفاء بالعنصرين، لكنه أصرّ على الدخول، ركب الثلاثة عربتهم ودخلوا، يروي الجريح البطل ما حصل بعد دخول العربة فيقول:

- ما إن دخلنا عشرات قليلة من الأمتار حتى شعرنا بالعربة تطير، عرفنا أن لغماً مضاداً للمدرعات قد انفجر تحت سلاسل العربة، وشعرنا نحن الثلاثة أن أمورنا الصحية ليست على ما يرام، وفي أثناء تفكيرنا هذا أتى زملاؤنا لإسعافنا، فأسعفونا جميعاً إلى قيادة الوحدة أولاً، حيث تمت الإسعافات الأوليّة، تم نقلنا بعدها إلى مشفى حلب الجامعي.

وأنا كسارد للحدث، ومستمع للجريح البطل، كنت راغباً بأسئلة كثيرة، تدور كلها حول مقدار الألم الذي سببه هذا الانفجار، وعن معاناته بعدها، لكن أسئلتي بدت تافهة أمام ما يحكيه من تفاصيل، التزمت الصمت والاستماع، وتركته يتابع حديثه:

- ولأننا من عناصر الجيش نقلونا إلى مشفى حلب العسكري، بعد إجراء ما يلزم من علاجات إسعافية سريعة، وفي المشفى العسكري كان العلاج الشامل، ورغبة مني باستكمال العلاج في مشفى تشرين العسكري، لقرب المشفى من أهلي المقيمين في دمشق، نُقِلت إلى هناك.

وأنا شردت قليلاً، أفكّر بتلك العاطفة الربّانية التي تربط المقاتلين بعائلاتهم، ورحت أسترجع الأدعية المنطلقة من أفواه الأمهات صوب اللّه، ليحمي

ويحفظ ويبارك الأبناء، ويوفقهم أينما توجهوا، وييسر لهم دروبهم الخيرة، ويعمي عنهم عيون الظالمين، وقطع شرودي هدوء الحديث، فرحت أستمع، وراح الجريح البطل حذيفة جابر ديب يتابع:

- في مشفى تشرين زارني الأهل والأصدقاء، أيّ فرح انتابني وأنا أرى الوجوه مبتسمة على حزن وأسى، المهم... بقيت في مشفى تشرين حتى انتهاء العمليات الجراحية، كانت ساقي اليمنى قد كسر عظمها، وتعرضت أوعيتها الدموية لأذية كبيرة، تم على إثرها ربط الشريان الرئيسي الممتد خلف الركبة، أما الساق اليسرى فقد تفتت عظمها، ونقص بمقدار 3- 4 سم، فتم استبداله بعظم مثيل له من عظام الخاصرة.

وهنا تجرّأت وسألته:

- أين كانت أصعب المعارك؟

أجاب:

- كل المعارك كانت صعبة، لكن الأكثر صعوبة كانت في بلدة سرحان، ففي إحدى الليالي، والمقاتلون نائمون بعدما ساد هدوء مريب، خرجت أتمشى خارجاً، وكأن منادياً ناداني أن أخرج، فوجئت بأعداد كبيرة من الإرهابيين قد وصلوا إلى قرب مكان نومنا، هرعت باتجاه زملائي، وأطلقت رشقة من الرصاص، ثم استيقظوا بسرعة وأخذوا أماكنهم الدفاعية، بينما كنت أنا أشاغل المسلحين الإرهابيين إلى حين خروج جميع الرفاق من نومهم، لتبدأ أشرس المعارك، وأرجو ألاّ تسألني عن عدد الشهداء والجرحى، فهم كثيرون.

- اسمح لي بسؤال أخير، كيف وضعك الآن؟ ولماذا لم يتم تسريحك؟

- وضعي جيّد، والحمد لله، وأستطيع متابعة أي مهمة أكلّف بها، فلماذا أطلب التسريح؟ أنا بالأساس تطوعت في الجيش العربي السوري رغبة مني، ولم أكن أستبعد يوماً أن أجرح أو أستشهد، فأنا من اخترت هذا الطريق، وبكل فخر سأتابع السير فيه حتى النهاية.

- حفظك الله وحماك، بك وبأمثالك أتيحت لي الفرصة لأكون هنا، أحاورك، وأستمع لحديثك بكل جوارحي، فأمثالك حين يتحدثون... على كل من حولهم أن يصمتوا ويستمعوا.

***

من أجمل المكاشفات، وأصدقها على الإطلاق...

حكاية الجريح البطل علاء درباج

من محافظة حمص

لطالما قلت في نفسي إنني سأنسى الحقبة العسكرية التي ظُلمنا بموجبها من الصديق قبل العدو، ولطالما لم تنصفنا الأقدار، فلننصف بعضنا، ولننصف أنفسنا فيما قدّمنا وبفخر.

لقد كانت سنة 2013م سنة صعبة ومصيرية.

إنه الخطر يحدق بنا من كل جانب، وها نحن محاصرون من كل اتجاه، وليس لصالحنا أي يوم يمضي.

كانت العلاقات جيدة، لكنها اتسمت بالجدية لحراجة الموقف، ولم تخل من بعض النهفات سنأتي على ذكرها إن أتيح لنا ذلك. إلا أن قساوة الظروف، وثقل المعركة، جعلنا متوترين بعض الشيء، لقد كان (أبو محمود) إدارياً، وأنا جبهوياً مقاتلاً، وسفير المهام في كل مكان، ولطالما حصلت بيننا مشاحنات في صالون الاستراحة، لكونه استفزازياً حتى في سلامه، ولكوني انفعالياً وسريع الغضب..

ها هي الصالة تضجّ بصياحنا من جديد، والأخوة يعملون كجدار فصل بيننا، مضت على خير والحمد لله...

وفي المساء، أبلغونا أن ننزل إلى بيوتنا حتى اليوم الثاني، وعلى غير العادة، وفي غير وقت استراحتنا، لقد استشعر الرفاق أننا أمام دورة جديدة، ربما تكون فجائية، وقد كنت على يقين أننا أمام عمل عسكري كنا قد تباحثنا به قبل أيام.

بالفعل، عدت وودعت العيال، وحجزت لهم ثاني يوم إلى القرية، فالعمل، إن صحّ، وما هو في البال، قد أكون أحد اثنين، إما شهيد وإما جريح، لذا من

الأريح أن يستقبلوني هناك، حيث لحدي الافتراضي، وفي الصباح تودّعت وآل بيتي والتحقت برفاقي المقاتلين، ليكتمل النّصاب في اجتماع ضم عدداً من القياديين، منهم من هو معروف ومنهم من هو جديد.

وأبلغونا ضرورة تنفيذ مهمة سريعة، لدرء خطر كبير يلوح في الأفق، وكنا في خطتنا أمام خيارين؛ كل منهما أمرّ من الآخر، إما عمل عسكري على الخط العرضي، والقضم باتجاه الطول، وإما مباغتة الخط الطولي، والاقتحام بالعرض..

وبما أن تجهيزاتهم كلها في الخط العرضي، فقد كان الأصوب مباغتة الخط الطولي بعملية نوعية، وبرفقة قوّة أخرى تؤازرنا من الجهة الأخرى للخط الطولي، وبدأ العمل في الخامسة صباحاً، وقسّمت المهام على ثلاث مجموعات، الأولى مع "أبو أحمد" للسيطرة على الكازية، والثانية معي للسيطرة على المشفى بعد الكازية، لتأتي بعدها القوة من الجهة الأخرى، وتلتقي معنا في نقطة محددة جانب المشفى..

وبالفعل بدأنا، وما إن وصلنا إلى المزرعة قبل الكازية حتى استفاق (المسلحون) علينا، وطلبوا التعزيز، فلم نعطهم فرصة لذلك، واقتحمنا قاطعين مسافة 300 متر إضافية، غير التي كسبناها بالمباغتة، وتعتبر من أخطر ما يكون تحت القنص والاستهداف..

لقد وصل أبو أحمد ومجموعته، بينما لم أستطع إلا واثنين من مجموعتي الدخول، ووصلنا بناء الكازية الملاصق للكازية، والتي فر حرّاسها من مواجهتنا، وسيطرنا على المكان بشكل كامل، ليصبح المشفى هدفنا اللاحق، لكن، لن يكون ذلك دون باقي مجموعتي من الرفاق الذين ضاقت بهم الحلول، ولم يستطيعوا اللحاق لصعوبة وخطورة الموقف، والذي تحوّل لصالح المسلحين بشكل قطعي بعد أن تم قطع الطريق واستهدافه بيننا، وأصبحنا الـ 14 مقاوماً محاصرين في الكازية من ثلاثة جوانب، مع قطع الجانب الرابع والوحيد للإمداد نارياً، ورحت أدير الموقف بالتعاون مع أبو أحمد الذي كان سنداً حقيقياً في تلك العملية، التي تقاسمنا خطرها بالتساوي، وحاولت أن أعوّض نقص العدد من الرّفاق الذين لم يستطيعوا الالتحاق بنا، من خلال تعبئة أكثر من نقطة، وتوجيه الرفاق في البناء المذكور، والمؤلف من ثلاثة طوابق من الاسمنت المتين، والذي رد

عنا الكثير من القذائف والصواريخ بنهاية أول وثاني جولة، لتهدأ الوتيرة ويخف الضغط، معاودين تنظيم الأمور، ولأجس نبض المنطقة، وكيفية الدخول أنا والاثنين ممن معي في المجموعة لاقتحام المشفى، وبهذا نكون قد أنجزنا ما تعجز عن إنجازه كتيبة كاملة، وما إن حسمت قراري دون الرّجوع لأحد حتى بدأت الجولة الأخطر، والتي كانت وابلاً من كل ما توفر عندهم من حقد وذخيرة، ومحاولتهم اصطيادنا أحياء وأشلاء.

وفي تلك اللحظة لا تستطيع القول إلا كلمة (خوتوا) لأن المسافة أصبحت أمتاراً معدودة، وهكذا حتى الحادية عشرة والنصف، لتحسم لنا هذه الجولة أيضاً، فعدت لأتفقد الرفاق في الطابق الثاني والثالث، ومحاولة مدّهم بالعزيمة، والتي كانت بالفعل مثار تحفيز لهم، وعلى طريقتي نزلت الدرج لأعاود توجهي إلى جدار المشفى، الذي وضعته نصب عيني، إلا أن للقدر كلمة أخرى، كلمة حرمتني، ولم تحرمني، من تلك المواجهة، إذ أنه ولدى توجّهي لأخذ التموضع، كانت المفاجأة برؤيتي لكاميرا مركبة بإتقان، كانت تكشف سير حركتنا التي بموجبها يتم التعامل معنا، فتم الصراخ على عناصر الهندسة، ولدى إشارتي للكاميرا خرج المسلحون من الجحور والأنفاق، متجهين إلى الجدار ذاته، ومحاولين الحسم في عملية تشبه مناطحة الثيران، لكون المسافة معهم من اليمين ثلاثة أمتار وجدران المبنى، ومن الأمام خمسة أمتار وشبه جدار، وببدء المعركة كنت المستهدف الأول الذي حددته لهم قيادتهم، وبوابل من الرصاص، كان لي نصيب منها ثلاث رصاصات، لأسقط أرضاً، مما جعل ردّة فعل الرفاق أقسى، ولا أريد أن أدخل في حيثيات الدم وإحصاء الخسائر من الجانبين، إنما في حيثيات المعركة، ومدى ثقلها وأهميتها وذكراها.

المهم لا مجال لإزاحتي من مكاني في تلك اللحظة، وعلى مدار عشر دقائق جعلتني مضرجاً بالدماء، ومحظوظاً من نصف متر من البلوك أمامي لحماية جزئي العلوي، إلا أن القناص في بناء المشفى قد رأى ذات القدم تحت مرمى قناصته، لتكون الرصاصة الرابعة من نصيبها، مما دفع صديقي المقاتل (أنس) لسحبي باندفاع وبتغطية سريعة من المقاتلين (حسين وعلاء)، وُضِعت في غرفة محمية نوعاً ما، وتم التعامل مع العدو بذات المشفى بالطريقة المناسبة، ولدى

مخاطبتي من غرفة العمليات، أبلغتهم أن أحد عناصري قد أصيبت قدمه بسقطة باردة، غير حربية فاطمأنّوا غير مطمئنين، لعجزهم عن تقديم أي شيء إضافي، وبذلك انتهت جولة أيضاً، وتمّت السيطرة على الموقف الذي لم أحمل به أي وجع في جسدي إلا وجع الخسارة، وسلاحي في يميني جاهز لما هو أسوأ من ذلك، خاصة في ظل تأخر القوّة المتفق معها للدخول معنا بغير اتجاه، مما جعل الضغط كله علينا، إلا أنه لم يكن هناك الأسوأ بهمة الرفاق، والذين تصدّوا للموقف ولمخاوفي من التّراخي، وحملوا ما تبقى من واجب سيطروا به نارياً على المشفى، لنكون قد أنجزنا ٩٠ ٪ من العمل الذي تحوّل جزء منه بعدها ليكون محاولة إنقاذي ممن خافوا علي كثيراً، خاصة أنه لم يكن معنا حقيبة طبّية، لأنها مع أحد العناصر ممن لم يتح له الدخول، وعادت القيادة لتخاطبني بعد ساعة وتسأل عن حالة المصاب فأبلغتهم أنه بخير ولا مشكلة من التأخر، وعادوا وعاودوا التواصل بعد نصف ساعة، وكأنهم استشعروا كذبة بنبرة صوتي، فعدت لأبلغهم بعدم الحاجة لشيء مبدئياً، إلا أن أبا أحمد انبرى عبر جهازه طالباً التدخل، ومبلّغاً أني أصبت بعدة طلقات، وأني أنزف وبحالة خطرة، مما وضع غرفة العمليات بوضع حرج، وضربوا أخماساً بأسداس، محتاجين 300 متر من التراب الأحمر المتوفر، لإقامة حماية تمكنهم من الوصول إلينا وإسعافي، وإسعاف الموقف بشكل عام، وعندما بدؤوا بالتنفيذ ضُرِب التركس بقذيفة أوقفت عمله، مما دفعهم لجس نبض الأخوة على من يرغب بإيصال الحقيبة الطبية عبر عملية تسلل كيفية، الأمر الذي وجده المقاتل (هاني) فرصته الذهبية، وضالته لإثبات عكس ما يشاع ويقال على أنه (خوّيف)، فانبرى عارضاً نفسه لخطر لم يطله، والحمد لله، من خلال عملية زحف على البطن 200 متر بين الأراضي المفلوحة، وركض سريع 100 متر، وصل ومعه الحقيبة، فسررت بذلك الموقف، وأثنيت عليه وعلى شجاعته التي أثبتها ونالها كوسام، وابتسمت له وابتسم بوجهي، لكنّ الصدمة أن إبرة تخثر الدم غير موجودة... إنما عثرنا على إبر المسكن المخصصة، وسيروم لم يوجد اختصاصي لتعليقه، الأمر الذي دفع بعضنا للضحك، وإضحاكي، ممن علموا أن رأسمال الحياة ضحكة في موقف حرج ومبكٍ، وبالفعل تم استفقادي ومحاولة إبقائي صاحياً بالتناوب، حسب

إرشاد أبو جعفر ومع الاستفقاد كانوا يكلفونني بمهمة تعبئة المخازن، لأني (قاعد لا شغلة ولا عملة) على حد تعبير أحد الطيبين الفكاهيين، ومضينا على تلك الحال في معارك أقل حدّة من ذي قبل، لكون الإسناد المدفعي والصاروخي رجّح كفتنا، ومضى الوقت من الثانية عشرة ظهراً وحتى السادسة مساءً، يمرّك نزيفاً تحتي، لا أراه إلا محفزاً للحياة وللنصر الذي أريدَ لذلك الدم أن يكون شاهداً له ومورّداً به.

وفي السادسة والنصف، كانت طاقتي الجسدية والروحية في نهايتها، وكنت أوصي الرفاق بيوسف وحيدي آنذاك قبل سماعي بخبر مفاده مغامرة إحدى العربات عن طريق الفلحان، وقدومها نحونا بسرعة تحقق لها الأمان النسبي، وبالفعل كان أحمد دوشكا ومحمد المي والشوفير (أبو محمود) الذي قال لي وبعتب (لو تاركينك عليّ من يومين مين كان بدو يجي يطالعك هلق) لقد حبست دموعي في تلك اللحظة، وساعدني في ذلك تغيير الحديث الذي دار عن كيفية إخراجي من الغرفة، والتي تحتاج إلى تكسير أحد جدرانها لاختصار الطريق، ولنكون في أمان من مرمى القناصين الذين رصدوا المداخل جميعها، ولم يكلف ذلك العمل أكثر من عشر دقائق، فكسرنا جدارين مترادفين، ومن خلال ذلك صنعنا معركة جديدة لإبعاد النظر عن عملية إسعافي، والتي تمت بسلام، وتم نقلي إلى العربة التي أسعفتني بسرعة قصوى مع رشة بي كي سي أكلناها، وطالت الحديد فقط، وعند الحاجز وغرفة العمليات عادت لي الروح ببعض النظرات، ونزل أبو محمود ليعطي قيادة العربة للحاج أبو علي، الذي كان قد تواصل مع مشفى (بهمن) الذي استقبلني، وأجرى بعض الإسعافات الأولية بتخدير موضعي، مكنني من الحديث مع أبو علي الذي طالبته بالمغادرة لاستكمال ما تعبنا لأجله، وكان نقطة بداية وانطلاقة متقنة لتحرير الريف الجنوبي لمدينة دمشق بأكمله، وامتثل لرغبتي مودّعاً ومطمئناً قبل أن يحولوني، وعلى وجه السرعة مع مسؤول الجرحى آنذاك حسين إلى مشفى الـ 601 الذي كان بانتظاري أيضاً، وعبر طاقم يديره الدكتور لؤي غانم، رعاه الله .. الذي أدخلني فوراً غرفة العمليات، ومع إعطائي المخدر سمعت مساعده يقول بتر، فردّ لؤي لا... لأستيقظ بعد يوم من عملي الجراحي، ويخبرني أن حياتي كانت رهينة

(سيرنك دم) لا أكثر، وأني تجاوزت الخطر، وسأكون بخير مستقبلاً كما هو حالي الآن بعد سبع عمليات في نهاية المطاف الذي لم ينته بعد..

رحم الله موسى وهادي وحسين ش وحسين الفوعة وأبا تراب والشقيقين أبا القاسم وأبا حيدر وعافى شقيقهم الثالث جعفر وعافى علاء وحسن حمود وشادي وياسين وحمى البقية الباقية خضر الشهم أبو أحمد الوحش أبو إبراهيم أنس أبو محمود محمد ح وكل من كان أو عملنا معاً حين كان الصدق عنواننا وكنّا أصدق وأطهر من عليها.

للتنويه : الحديث ليس عن بطولة ولو كان كذلك لصغناه بطريقة تفصيلية تقشعر لها الأبدان إنما تعالينا ليكون المقال قصصياً وذكرى توثيقية شفافة عن حدث تاريخي مهم في يوم تاريخي وهو 2013/6/18م أو ما يعرف باليوم المجنون.

***

وعدتُ حيّاً

حكاية الجريح البطل سامر شيخ عيسى

من محافظة دمشق

الاثنين 2013/10/7

قُرابة الساعة الثامنة مساءً:

كان ذلك أول يوم من أيام إجازتي الثلاثة، أقضيها بين أهلي.. كنت حينها في غرفتي قد أنهيت تواً صلاة العشاء، حينما رنّ هاتفي برقم مسؤولي في عملي القتالي.

أجبتُ على الهاتف، وبعد أن تبادلنا السلام قال لي:

- هناك مهمة كبيرة غداً، فهل أنت مستعد للمشاركة؟
- طبعاً أنا مستعد.

أجبته بفرح وحماس كبيرين، ثم اتفقنا على موعد ومكان الانطلاق.

أنهيت المكالمة وجلست أفكر، كان فرحي مصحوباً بإحساسٍ غريب، إحساس لم أشعر به في المهمات السابقة التي شاركت فيها، لا، بل لم أشعر به في حياتي أبداً.

تسرّب إلى قلبي فرح غامر، وشعور بأنّ مهمتي غداً هي الأخيرة لي، وأن غيابي لن يعقبه عودة إلى الحياة، تنهدتُ مطمئناً، فقلبي هادئ ينتظرُ بترقب حلول موعد الانطلاق.

مباشرةً بدأتُ بتحضير ما أحتاجه لمهمتي من أغراض عسكرية، تفقدت سلاحي، ثم أعددت لنفسي فنجاناً من القهوة، وجلست أجدّد كتابة وصيتي، وأعددت منها نسختين، كما كنتُ أفعل دائماً.

كان وقتاً قصيراً ذلك الذي قضيته مع أهلي، وقد أخبرتهم بعودتي في صباح اليوم التالي إلى العمل، كنتُ أعلمُ أن ثمّة انزعاجاً خفيّاً سيمدّ يده إلى قلوبهم، ولكنّ القبول والرضا الذي ارتسم على وجوههم غطىّ ذلك الانزعاج، فنحن في حرب لا مجال فيها للراحة أبداً.

كان شعوري بأنّي أقضي ساعاتي الأخيرة في الحياة، دافعاً لأن أخرج من المنزل لألتقي برفاقي المقربين، وبين شفتيّ ترانيم الوداع تعزف آخر الوصايا، وقد وشى إحساسي لهم بأنّي إن عدتُ هذه المرة، فلن أعود على قدميّ، إنما محمّلاً على أكتاف من بقي من هذه المهمة المرتقبة، ثم نظرت إلى أحد أصدقائي وقلت له:

- لقد أعددت نسختين من وصيتي، وضعت واحدة في غرفتي، والثانية ستكون في جيب قميصي الأيمن.

أعرب بعضُ الرفاق عن قلقهم، وحاولوا إقناعي بعدم الذهاب، إلا أنّني كنت مصرّاً على ذلك..

كان توديعي لهم مبلّلاً بالدموع، عدتُ إلى المنزل أجرّ أذيال الذكريات بيننا؛ سهراتنا، ضحكاتنا، معاركنا، الأيام الجميلة التي مضت وكنا ننعم فيها بالأمان، قبل أن تنهش أنياب الحرب أحلامنا.

ودّعت رفاقي، وودّعت معهم عمراً من الزّمن الجميل.

قضيتُ ليلتي الأخيرة في المنزل بالعبادة والدّعاء والصّلاة، وكأنّها آخر ليلة من عمري، ليلة أكثر من رائعة قضيتها بين يدي ربي، حتى شعرتُ أنّي كنتُ قاب قوسين أو أدنى.

الثلاثاء 2013/10/8

الساعة السادسة صباحاً

ارتديتُ لباسي العسكري الذي كانت أمي قد أنهت تحضيره تواً، وأخذتُ حقيبتي، قبّلت تلك الأكفّ الطّاهرة تقبيل مسافرٍ بلا عودة، وحرصتُ ألا تشعر تلك الأم الطاهرة التي تحوطني بدعائها وابتسامتها وهدوء وجهها بأي شيء.

أخذت سلاحي وخرجت من المنزل، وصوت أمي وهي تدعو الله أن يعيدني سالماً يرنُّ في مسامعي، وتمتمات والدي لي بالتوفيق تُعبّد طريقي.

حملتُ حقيبتي على ظهري ومضيت، أبي وأمي يقفان عند الباب يُشيعانني بنظراتهم المحبة، وأمام ناظري تلوح قبّة مقام السيّدة زينب عليها السلام، تلمع تحت أول خيوط الشمس الباهتة.

وصلتُ إلى المكان المتّفق عليه في الوقت المناسب، انتظرتُ وبعض الأخوة المجاهدين اكتمال العدد، ثم انطلقنا متكلين على الله تحفُّ الدّعوات طريقنا.

طوال الطريق كنا نتبادل الضحك والمزاح اللّذين كشفا عن الاطمئنان والسرور الغريبين في نفوس رجال يذهبون في مهمة خطرة.

وصلنا إلى مكان التجهيز في منطقة السيدة زينب، حيث تزوّدنا ببعض الذخيرة والمعدات والخرائط، وبعض لوازم العمل.

ثم ذهبنا إلى مكان تجمّع القوات في "حي غربة"

حي غربة...

الساعة الواحدة إلا ربعاً ظهراً.

وصلنا إلى مكان التجمّع، حيث التقينا ببعض الأخوة المسؤولين عن المهمة، وجميع المشاركين فيها.

وسرعان ما اجتمعنا مع المسؤولين الذين زودونا بالخطط، وأخبرونا بطبيعة تلك المهمة ووظيفة كلّ فرد منّا.

قال لنا المسؤول بصوتٍ حازم، وقد أشار بإصبعه إلى طريق في الخارطة أمامه:

- هذا طريق إمداد للمسلحين، وهو وريد أساسي يضخُّ لهم السلاح والمؤونة، مهمتكم قطع شريان الحياة هذا عنهم.

تنهّدنا جميعاً، وتبادلنا نظرات يلمع فيها البأس والإصرار، والتقت نظراتي بنظرات صديقي حبيب الذي ابتسم ابتسامة القوة، ((حبيب)) المقاتل الذي لم يفارقني منذ البداية، كان أخي وشريكي في تلك المهمة، كنت قد عرفته منذ

زمن، وأحببته جداً ووثقت به، سُرِرتُ لوجوده معي في تلك المهمة، فقد كان صديقاً مخلصاً ومقاتلاً حقيقياً بكل ما للكلمة من معنى، تناولنا معاً وجبة الغداء، وسرعان ما حان موعد صلاة الظهر، فقمنا بأداء الصلاة وصلينا ركعتين على نية النّصر والتّوفيق، غير أني أدّيتها وكأنها آخر الركعات في حياتي.

جلست أنتظر الأوامر بفارغ الصبر وبنفسٍ مطمئنة، وكأنني بعد ساعة سأجلس على عرش السعادة الأبدية.

في كل خطوة، ومع كل شهيق وزفير، كانت جوارحي تقول "رضاكِ يا أمي" وهذا ما كنت أحرص عليه منذ البداية، رضا اللّه من رضا الوالدين.

ما إن أتت الأوامر بالانطلاق، حتى بدأ العد التنازلي لتنفيذ المهمة، أخذنا عتادنا، وسلّمنا على باقي الأخوة، وودعناهم واتكلنا على اللّه تعالى.

التحقتُ أنا وحبيب بفصيل القوة الخاصة المؤلف من 45 فرداً مقاتلاً، يترأسهم أحد الأخوة المقاتلين من لبنان الشقيق.

أنا وحبيب مهمّتنا كفريق استطلاع هي إيصال فريق القوة الخاصة إلى طريق الإمداد الخاضع لسيطرة المسلحين، وللوصول إليه لا بدّ من اجتياز عدة أبنية واقعة تحت سيطرة العدو.

بدأنا التقدم عبر السّواتر، والطلّاقيات، كنا نسير تارة ونركض أخرى، وتارة نمشي محنيّي الظهر، خشية أن يرانا قنّاص العدو المتربّص، حتى بذرّات الهواء.

كان علينا الوصول إلى إحدى النقاط "نقطة الصفر" التي تعدُّ مقرّ مرابطة، ونقطة تماس مع العدو، ويتمركز فيها بعض الأخوة، وقد استغرق ذلك الطريق حوالي نصف ساعة تقريباً.

المكان هناك عبارة عن مبنى من طابقين؛ في الطابق الأرضي يرابطُ ثلاثة رجال من أمن الدولة، أكبرهم سناً يدعى (أبو ميلاد) وكان رجلاً طيب القلب، وفي الطابق العلوي يجلس شخصان، يراقبان شاشة تلفاز موصولة بأربع كاميرات مراقبة مثبّتة على جدران البناء من الخارج، ومسلّطة على خطّ التّماس مع العدو،

لرصد أي تحرّك، أو محاولة تسلّل، وهناك ثلاث طلّاقيات صغيرة يجلس خلف كل واحدة أخ مرابط.

استطلعنا المكان أنا وحبيب، وأخذنا فكرة واقعية عن طبيعته واستراتيجيّته.

كان الإسناد النّاري يقصفُ المكان، والطّيران الحربي يُغير عليه، تمهيداً لمهمّتنا، وبانتظار لحظة الصفر، كنتُ وحبيب في الطابق العلوي، نراقبُ المجريات عبر فتحة صغيرة فتحناها في الجدار، وإذ بحبيب يرصد مكان أحد القناصين الذي كان يطلق النار بكثافة، ويعيق تحرّك قوّاتنا، فتواصل حبيب مباشرة مع القيادة وأرشدهم إلى مكان القناص للقضاء عليه.

لم نكن أنا وحبيب نعرف أي شخص من أفراد الفصيل، ولكن من بين الجميع كان هناك شاب شعرت بأني أعرفه منذ زمن، وأحسست بودّ غريب تجاهه، وقد حاولت جاهداً معرفة مكان لقائي به سابقاً.

اقتربتُ منه وهو جالس على الأرض، فأفسح لي المجال للجلوس بجانبه، أخرجتُ علبة سجائري وعرضتُ عليه التدخين، فأخذ سيجارة وهو يشكرني بابتسامة لطيفة ثم بادرت إلى الحديث معه.

سألته:

- ما اسمك؟

- اسمي مهتدي، وأنت؟

- أنا أويس _ وهو اسمي الحركي _ وينادونني أحياناً بـ"عزرائيل"

قال مبتسماً:

- تشرفت بحضرتك.

أجبته:

- بل الشرف لي.

سكتُّ برهة قصيرة وبادرته بالسؤال:

- هل سبق وتقابلنا من قبل؟

توسعت عيناه تعجُّباً وقال:

- أردت أن أسألك السؤال ذاته! صراحة أشعر أنني أعرفك منذ زمن، ولكن لا أذكر متى وأين تقابلنا.

قلت:

- سبحان الله، هذا الشعور متبادل، وهو الذي دفعني للحديث معك، ولكن أين التقينا من قبل يا ترى؟!

وبدأنا بأسئلة التعارف المعتادة، من أين أنت؟ أين تسكن؟ أين عملت سابقاً؟....إلخ

كل الأجوبة لم توصلنا إلى مكان أو زمان مشترك بيننا، فهو من أهالي إدلب وأنا من دمشق، وعلى الرغم من تباعد المسافة، إلا أننا أصررنا على أننا تقابلنا قبل الآن.

كان مهتدي شاباً وسيماً طويل القامة، هادئاً، بشوشَ الوجه، جميل المبسم، وطيب القلب، فيه شيء يميّزه عن الآخرين، شعرتُ به كثيراً، لكنني لم أستطع تحديده.

استأذنت من مهتدي، ووقفت أتحدث مع حبيب عن بعض الأمور، ثم اقتربنا من مهتدي وعرفته إلى حبيب.

تفاجأت عندما سألت مهتدي عن اختصاصه ووظيفته في المهمة فأجاب:

- اختصاصي هندسة ألغام.

أبديتُ حماستي:

- حقاً؟!

ذلك يعني أنه سيكون مسؤول الهندسة الذي سيرافقنا أنا وحبيب في التقدم، وهو ما بعث السرور والتفاؤل لدينا نحنُ الثلاثة.

جاءت الأوامر بالاستعداد.

كان هناك أربعة أبنية علينا اجتيازها كفريق استطلاع، والتأكد من أمن كل بناء قبل أن نتّصل بالفصيل لإرسال من يتمركز فيه ويثبّت قاعدة نارية.

اتكلنا على اللّه، وتقدّمنا باتجاه البناء الأول، وهو عبارة عن منزلٍ مؤلفٍ من غرفتين سقفهما حديد، عندما وصلنا إليه اقترح مهتدي أن نفتح فجوة في الجدار لنعبر من خلالها، فأشار بيده إلينا للابتعاد، فيما وضع إصبعين من مادة TNT المتفجرة، وطلب منا الاحتماء كي يفجرها، وهي بالكاد تكفي لفتح نافذة في جدار آمن غير مفخخ.

ولكن ما إن فجّرها حتى صدر صوت هائل غير متوقّع، وقد طار سقف المنزل في الهواء أمام أنظارنا المندهشة، ثم وقع على الأرض، وامتلأ المكان بالغبار، انتظرنا ريثما ينجلي الغبار، وقد تفاجأنا أنه لم يعد هناك أي أثر للغرفتين سوى ذلك السقف الذي التصق بالأرض، فقط عندئذ عرفنا كمية المتفجرات الموضوعة داخله.

أكملنا التقدم باتجاه البناء الثاني، والمعروف بالبناء الأسود، لأنّه تعرّض لحريقٍ في السّابق، فصار لونه أسود، وكان مؤلفاً من طابقين، وبابه مغلق، وهذا يعطي احتمالاً قويّاً بأن الباب مفخّخ، وقد ينفجر لمجرد فتحه، ولم يكن هناك مجال لفتح (طلاقية) في الجدار للدخول منها.

اقترح مهتدي أن نتقدم نحو البناء ونفجّر الباب من الخارج، ثم ندخل حذرين، لكن كان هناك حل أفضل، وهو أن نرمي الباب بقذيفة B7 فينقلع من أساسه، وتنفجر المواد المتفجرة خلفه، وهذا ما حصل.

تواصلنا مع قائد الفصيل وطلبنا منه رمي القذيفة على الباب، فقام أحد الأخوة برميها، وكانت إصابته محققة بفضل اللّه، فانقلع الباب من مكانه، وانتشر الغبار حول البناء وداخله.

انتظرنا قليلاً ريثما ينجلي الغبار من المكان، ثم تقدمنا نحن الثلاثة نحو البناء تحت نيران قنّاصي العدو عن يميننا ويسارنا، وبفضل اللّه نجونا وأصبحنا بالقرب من البناء.

كان حبيب يتقدمنا، ويليه مهتدي ثم أنا ثالثهما، وآخران يتبعانني لتأمين العبور، دخلنا المكان المؤلف من مدخل ضيّق جداً، يتصدّرُه (منور) ومن الجهة اليسرى السلّم الذي يقود إلى الأعلى، وعن اليمين باب الطابق الأرضي.

تقدم حبيب راكضاً، وصعد إلى منتصف السلّم تقريباً وتوقف، ثم لحقه مهتدي ووقف قبل آخر المدخل، بعدها دخلتُ مباشرةً ووقفتُ خلفه بمسافةٍ قليلة.

بينما كنا نلقي نظرة تفقّدٍ على المكان من الداخل، خشية وجود ألغامٍ أو عبواتٍ أو ما شابه ذلك، وإذا بحبيب يصرخ مشيراً بيده إلى الزاوية اليمنى من الأعلى، أي فوق باب المنزل الأرضي مباشرة: "هناك كاميرا". ودون أي تردّد، قمت أنا ومهتدي بالرمي عليها وإصابتها وتعطيلها.

وفجأة! لم أعد أرى إلا سواداً، كأنّ غطاءً أسود ألقي على المكان، ولم أعد أسمع أي صوت، سوى دقات قلبي التي خفّت تدريجياً وعمّ الصمت، لم أعد قادراً على التنفس أو الكلام، وشعرت حينها بانعدام الجاذبية تماماً..!

ـ ماذا حصل..؟

ـ أين أنا..؟

ـ هل استشهدت..؟!!

بينما كانت تتصارع وتتزاحم تلك الأسئلة والأفكار الغريبة في داخلي، بدأ ذلك السواد ينقشع، ويزول تماماً كما يمحو ضوء الشمس سواد الليل المظلم، ولكن بشكل أسرع، وسرعان ما امتلأ المكان نوراً، رأيت نفسي ملقىً على الأرض، ورأسي متّجه للناحية اليمنى، وقد شعرت باطمئنانٍ عميقٍ لمجرد رؤية ذلك النور، لم أستطع تحريك شفتيّ اليابستين، وبينما أنا على تلك الحال رأيت سواداً من بعيد يقترب ناحيتي بسرعة، وعندما اقترب أكثر اتضح أنهن مجموعة من النساء تتقدّمهن امرأة جليلة، ثم توقّفن واقتربت السيدة التي تتقدمهن نحوي، ووقفت على بعد أمتار قليلة مني، كانت الهيبة والعظمة الإلهية تملآن وجودها، وحولها هالة نورانية ملأت المكان، يعجز اللّسان عن وصفها، ولا يمكن أن تتخيلها العقول، شعرتُ بالخجل لمجرد وجودي هناك..!

لست أدري ما الذي حصل لي، كنتُ ضائعاً في مزيجٍ من المشاعر.

لم أشعر في حياتي قط بمثل هذا الاطمئنان.

صارت دموعي تنهمر بغزارة، وقد غضضتُ بصري حياءً منها.

لا أدري كيف أصف ذلك الموقف حقاً، يعترينى العجز عن وصفه، ففي تلك اللحظات لم أكن أنا، لم أعد أمتلك زمام روحي، تجرّدت حتى من إرادتي، بل ربّما تجرّدت من وجودي، ومن كلّ شيء.

توقفتُ حينها عن التفكير، وكأني تخطيت مرحلة التفكير، وبلغت الغاية منه، لم أعد أرغب بأي شيء، باختصار :

"لم يعد هناك أنا"

رفعت تلك السيدة الجليلة يدها اليمنى، ووجّهت كفّها نحوي، فصدر منها ما يشبه الشعاع، وامتد نحوي، وإذا بيدي اليمنى تتحرك حتى لامس ذلك الشعاع كفّي الأيمن.

حينها سمعت صوتاً حنوناً دافئاً يقول:

"إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ"[1].

وفجأة صرت أسعل بشدّة، وعاد بي سعالي إلى عالم الدنيا بعد أن كنتُ في سكينة، عدتُ ملقىً على الأرض تماماً، بالهيئة نفسها التي كنت عليها قبل أن أصحو، لا أقوى أبداً على الحراك، والتراب يملأ عينيّ وأنفي وفمي، بل وصل إلى آخر حلقي. جسدي مخدر كلياً، باستثناء يدي اليمنى "التي لامست ذلك الشعاع".

كان هناك شيء ثقيل على وجهي، رفعت يدي اليمنى بصعوبة، وأزحت ذلك الشيء لأكتشف أنها يدي اليسرى!

إلى هذا الحد كان جسدي مخدراً؟!

كنت أحمل على ظهري حقيبة المعدات، وكانت كبيرة وثقيلة بعض الشيء، وهي التي حمت ظهري، والتي أصبحت بمنزلة سرير بالنسبة لي، ولكن بسبب ضخامة تلك الحقيبة كان رأسي حراً بالكاد يلامس الأرض، ورقبتي ثُنيَت إلى الوراء بشكل كامل.

ـ ما الذي حصل..؟!!

---

(1) سورة القصص آية 85

ـ لم أنا على هذه الحال..؟!!

لا أدري ما الذي حصل، ولكن سرعان ما علمتُ أنني تعرّضت لإصابة بالغة.

ناديت مباشرة: "حبيب" ولكن لم يخرج صوتي.

أجابني بارتباك وتوتّر مصحوب ببعض السرور:

- أنت حي، لا تقلق لا تخف.

سألته:

- هل أنت بخير؟

قال:

- نعم.

كان يبحث عن شيء في الأرض، لم يساعدني بصري على رؤيته بوضوح، ولكن عندما أخذ شيئاً من الأرض وتكلم علمتُ أنّه جهاز الإرسال.

سألته:

- أين مهتدي؟

أجاب:

- تعرّضنا لانفجار، وها هو مهتدي قد نال الشهادة رحمه الله.

عندها سكتُّ، بدأتُ أتذكر ما حصل قبل ساعة بيني وبين مهتدي، وعلمت ما السر في ذلك الشعور الذي تبادلناه.

ثمّ تواصل مع غرفة القيادة عبر جهاز الإرسال، وأخبرهم أنّ لديه شهيداً وثلاثة جرحى، أحدهم بحاجة إلى إسعاف مباشرةً لأن حالته حرجة.

أيقنتُ حينها أنني في خطر، ولكنّي لست أدري نوع الإصابة، أو مدى خطورتها، سألت حبيب عن نوع إصابتي ومدى خطورتها، فبدأ يهوّن علي الأمر كيلا يخيفني، فقال:

- لا تقلق، إنّها إصابة بسيطة في قدمك..!

ولكن ارتباكه وتوتّره أوضح أنّ الأمر أخطر من ذلك بكثير.

حاولت أن أجلس.. لم أستطع.

حاولت أن أرفع رأسي.. أيضاً لم أستطع..!

لم أشعر بعطش في حياتي كشعوري به في تلك اللحظات.

طلبت من حبيب أن يُجلسني، فخشي من ذلك مخافة أن يقوم بحركة خاطئة تزيد الأمر خطورة، واكتفى بربط ساقي بخيط ثخين مثل حبل، ولا أدري ما الذي يفعله، ولا من أين أتى بالحبل.

ثم طلبت منه أن يسقيني قليلاً من الماء، فأبى أيضاً، لأنني كنت أنزف بشدة، غير أن الماء موجودٌ في حقيبة المعدات الموجودة تحت ظهري. كل ذلك حصل خلال لحظات، ولكنّها أطول اللحظات.

قلت بيني وبين نفسي:

- ساعد الله قلبك يا حبيب على هذا الموقف، نحن تحت سيطرة العدو، ولا ندري بأي لحظة ومن أين سيدخلون علينا، ومهتدي قد استشهد رحمه الله وجثّته أمام عينيك، وأنا مثخن بالجراح، وكأنّي ألفظ أنفاسي الأخيرة، ولا تستطيع أن تفعل لي شيئاً. وأصعب ما في الأمر أنك عطشان ولا يوجد ماء إلا في الحقيبة التي تحت ظهري، هنيئاً لك صبرك وإيمانك وشجاعتك، موقفٌ لا يتحمله إلا المقاتل الشجاع.

كان جواب القيادة أن الإسعاف سيصل إلينا خلال لحظات..

بدأت أردد بعض آيات القرآن، وبعض أبيات العزاء وأنا بكامل الاطمئنان. حاولتُ مراراً أن أرفع رأسي وأنظر إلى جسدي، ولكنني لم أقوَ على ذلك، حتى تمكنت في النهاية من رفعه بصعوبة بالغة، وعلمت خطورة إصابتي.

رأيت الحذاء الذي كنت أنتعله في قدمي اليسرى بعيداً عني بعض الشيء، وتخرج من داخله نصف ساق، أما الجزء المتبقي من ساقي كان الدم ينفر منه بشكل غزير، وذلك رغم ربطه بالحبل. وأما الساق اليمنى فقد كسرت من منتصفها تقريباً، وثُنيت إلى الأعلى، وكأن هناك مفصلاً في منتصف الساق، وثيابي ممزقة، وقد اختلف لونها بسبب الدم والتراب، وأنا ملقىً على الأرض وتحتي بركة كبيرة من الدّماء.

هذا المشهد الذي رأيته بنظرة خاطفة، لا أتصوّر أن الأيام والسنين كفيلة بمحوِه من مخيلتي أبداً.

كان الوقت يمضي، والتّوتر يزداد شيئاً فشيئاً على وجه حبيب، والإسعاف لم يصل بعد، وحالتي تزداد سوءاً.

مضت الساعة الأولى من الوقت، وحبيب يعيد التّواصل مع القيادة في كلّ دقيقة، والإجابة دائماً نفسها "أرسلنا لك فريق الإسعاف"، وما تبين لاحقاً أن فريق الإسعاف لم يكن يستطيع التقدم بسبب كثافة نيران العدو، ووقوعنا في مكان يصعب عليهم الوصول إليه، ولكن ذلك لم يكن بالعذر المقنع بالنسبة لحبيب ولي أيضاً.

كلّما مضت لحظة ازداد ألمي، واشتدّ أكثر فأكثر، لم أكن أرغب بأن يزول ذلك الألم، لما كان يصحبه من لذّة تمتاز بالعذوبة والنقاء، حقاً لا أدري كيف أصفها، وكيف اجتاحتني وأنا أغرق في بركة من دمائي، كانت أشبه بنشوة النصر، أو فرحة الوصال، كنت أتذكّر معاركي السابقة، أتقدّم استبسالاً، وأنتصر، هل انتصرنا في معركتنا هذه؟ أين الرفاق الذين جاؤوا معي؟ وأين الرفاق الذين نفتح لهم الطريق؟ هل انتصرنا؟ هل انتهت المعركة؟ كنت سأسأل حبيب عن هذه التفاصيل كلها، لكن إغماءة سرقت أسئلتي، ونقلتني إلى عالم آخر.

بعد مضي ساعتين تقريباً كنت أغيب عن الوعي تارة، وأصحو تارة أخرى، وكلما صحوت كنت أرى حبيب يتحدث عبر جهاز الإرسال بانفعال وأسأله:

- هل حصل شيء؟..

ولكن لا جديد..

حاول اثنان من الأخوة في الفصيل الموجود خلفنا بمسافة 30 متراً تقريباً التّقدم والوصول إلينا، ولكنّ نيران قناص العدو حالت بيننا وبينهما، وأصيب أحدهما في قدمه، والآخر في صدره، وقد تمكّنا من الانسحاب رغم إصابتهما.

الألم يزداد كل لحظة، ونداء الآه تترجمه كلمة "رضاكِ يا أمي".

هكذا مرت ساعاتٌ خمس.. نعم خمس..!

ونحن على حالنا..

حبيب يحاول إيقاظي كلما غبت عن الوعي.

وفي الساعة الأخيرة بدأت أشعر بالاحتضار، أشعر بنفسي في عالم لا أدري ماذا أسميه.. لم أسمع عنه من قبل، صور تمر أمام ناظري، وأفكار تتصارع في مخيّلتي، وكلما صحوت وجدتُ حبيب جالساً أمامي يحاول إيقاظي.

عندما أحسستُ أن روحي أصبحت في حلقي حضرني قول الله تعالى:

"فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ"[1].

أومأت إلى حبيب ليقترب مني، فاقترب ووضع أذنه على فمي وهو يغالب دموعه، فأوصيته ببعض الأمور، وقلت له كلمات بالكاد فهمها:

"ضع إصبعي في حلقة القنبلة، وعُدْ وانجُ بنفسك".

كنت أحمل قنبلة في جعبتي، وأردت أن ينجو حبيب بنفسه بعد أن يضع إصبعي في حلقة القنبلة، لأنّ وجوده لن يغيّر في الأمر شيئاً، فإن دخل عليّ أفراد العدو وأنا ما زلت على قيد الحياة أقوم بتفجير نفسي فيهم، وإن وصل إليّ فريق الإسعاف قبل العدو وأدركني حيًّا أسعفني مباشرةً، فوجود حبيب لن يفيدني في شيء، فقال مرتبكاً ودموعه تجري:

- لا، لن أدعك وحدك، وسننجو معاً بإذن الله، فلا ترهق نفسك بالكلام.

تمتمت ببعض الكلمات وآيات الذكر الحكيم، ولكن لا أعتقد أن حبيب فهم ما أقول لأن شفتيّ بالكاد كانتا تتحركان، وصوتي قد اختفى تماماً، وبعدها فقدت الوعي.

عند غروب الشمس وحلول اللّيل ومضي الساعة الخامسة، كان الخبر قد انتشر في جميع المحاور أن هناك مقاتلاً في المحور الفلاني قد تعرض لإصابة، ولم يستطع أحد الوصول إليه، فسمع أحد المقاتلين الأبطال واسمه "أحمد" بذلك، فجاء مسرعاً وقطع مسافةً لا بأس بها حتى وصل إلى النقطة التي تسبقنا (مكان

---

(1) سورة الواقعة 83

الفصيل) وسأل عن مكان وجودي، فأرشدوه، وانتظر حتى غابت الشمس تماماً ليصعب على القنّاص رؤيته، ثم دخل راكضاً باتجاهنا، وعند وصوله إلينا استيقظت على صراخ حبيب وهو يقول له:

- احذر ستدوس على قدمه.

فتحت عيني ورأيته يحاول حملي، فأومأتُ له بصعوبة أن يقصّ شريط الجعبة التي أحملها، وشريط الحقيبة أيضاً ليصبح الوزن أخف عليه، وبالفعل قام بذلك وأزال الجعبة والحقيبة، وحملني على كتفه وركض، هذا آخر ما أذكره.

نقلت إلى مستوصف "بهمن" في منطقة السيدة زينب، حيث أُجريت لي بعض الإسعافات الأولية، إضافة إلى عملية جراحية في الساق اليمنى، وأثناء ذلك توقف قلبي عن العمل أربع عشرة دقيقة، كانت كافية بأن تجعلني أفارق الحياة لولا لطف الله عز وجلّ، وعودة القلب للعمل فجأة.

ثم نُقِلت مباشرةً إلى مستشفى 601 العسكري في دمشق، وأُدخلت إلى غرفة العناية المشدّدة، حيث نمت ليلةً كاملةً فيها. وفي اليوم التالي، قام الأخوة والأصحاب بنقلي إلى مشفى دار الشفاء الخاصة في دمشق، وأُدخلت إلى غرفة العناية المركزة، وأنا غائبٌ عن الوعي تماماً، ووضعي بحالةٍ حرجةٍ.

بدأ الأهل والأحبّة بالوفود إلى المشفى للاطمئنان على حالتي، حضر أبي وأمي وأنا لم أزل في غيبوبة، كان موقفاً رهيباً، لكن إيمانهما بالله عز وجل كان أقوى من كل شيء.

بدأت أمي تحاكي الله بدموعها، وتتوسل إليه أن ينجيني مما أنا فيه، أما أبي فكان يتكلم مع طبيب العناية المشرف على حالتي، ويسأله عن رأيه الطبي بكل وضوحٍ وشفافيةٍ ودون أي مقدمات.

فأجاب الطبيب:

- ما ورد في التقارير أن ابنك قد توقف قلبه أربع عشرة دقيقة، وهذا يعني أن الأوكسجين توقف عن الدماغ المدة ذاتها، وبالتالي سيدخل المريض في غيبوبة أقلها خمسة عشر يوماً، وإن أفاق بعدها فهناك احتمال كبير بأن يكون هنالك خلل بوظائف الجملة العصبية؛ يعني باختصار المريض سيفقد شيئاً من حواسه الخمس، والعلم عند الله.

استاء والدي لهذا الكلام ولكن سلّم أمره لله عز وجل، فما عند الله خيرٌ وأبقى.

كان هذا الكلام بتاريخ 2013/10/9 الساعة السادسة والنصف مساءً.

قام بعض الإخوان بإقناع أبي وأمي بالذهاب إلى المنزل ليرتاحا، وبالفعل ذهبا إلى المنزل.

وفي الليلة ذاتها، وفي تمام الساعة الثانية ليلاً، استيقظتُ وفتحتُ عينيّ، رأيت أحد الأخوة جالساً إلى يميني، وآخر إلى شمالي، يقرآن بعض الأدعية والقرآن الكريم، فعرفتهما مباشرةً، وكلمتهما وسألت عن المهمة، وعن باقي الإخوان المشاركين فيها، لكنّ صوتي كان مخفياً، وحواسي كلّها تعمل بفضل الله عز وجلّ.

كان ذلك وسط صدمةٍ لدى جميع الحاضرين من إخوان وممرّضين وأطبّاء، فمنذ ساعات كان الطبيب يقول إنّي لن أستيقظ قبل خمسة عشر يوماً، وسأكون فاقداً للذاكرة، أو لشيءٍ من حواسي الخمس، لكنّني استيقظت باليوم نفسه، وحواسي كلها سليمة، حقاً أثار ذلك ذهولاً لدى الجميع.

عدت إلى النّوم، واستيقظت في الصباح بكامل نشاطي، لأرى طبيب العناية واقفاً أمامي، فعرّفني إلى نفسه، وسألته عن أمي وأبي وكانا يقفان خارجاً، فدخلا وسلمت عليهما، ونظرت من نافذة الغرفة لأرى رفاقي وأحبائي قد تجمعوا خارجاً، والدموع تملأ أعين الجميع.

بدأ الأحبة والرفاق يدخلون واحداً تلو الآخر، كنت مسروراً جداً بهم.

بقيتُ في غرفة العناية المركّزة عشرة أيام، لأخرج بعدها إلى الغرفة الخاصة، وأقيم فيها خمسة وأربعين يوماً، ومن هنا كانت بداية رحلة العلاج الشاقة التي استمرّت عامين ونصف العام، أجريت خلالها أربعة وعشرين عملاً جراحياً، انتهت بعملية بتر للساق اليمنى بتاريخ 2016/3/15.

كانت رحلةً شاقةً مليئةً بالمتاعب والآلام والضغوطات. ولكن بالرغم من ذلك كانت تحمل معها لذة رهيبة فريدة من نوعها، أتمنّى أن أمرّ بها ثانيةً.

رحلة تحكي، في كل لحظة وفي كل تفصيل، لطف الله عز وجل بعباده.

وتبرهن أنه من كان صادقاً في ادعائه بحبه لوطنه، مخلِصاً في أدائه بالدفاع عنه، سيكون من الفائزين وإن مزقت جسده أنياب الغدر وقطعته سيوف الضلال.

لا شكّ أنّ اللّه عزّ وجلّ يتفضّل وينعم على عبده بمراتب هو أدرى وأعلم بها منه، كيف لا وهو الكريم الغيور الرحيم، ولكن بعد ذلك يصبح الأمر الأهم هو أن يحافظ العبد على تلك المرتبة، فالامتحان ما يزال مستمراً، بل يصبح أصعب من ذي قبل، لأنّ أبواب الرياء والغرور، وأمراض النفس التعيسة أضحت أوسع، وسبلها أكثر، ولئن لم يهدني ربي ويرحمني لأكوننّ من الظالمين، هو وليّي في الدنيا والآخرة فلا سعادة دون هداه ولا فوز دون رحمته.

ها أنا قد عدت لكنّي لم أعد على قدميّ...

***

المعمعة

حكاية الجريح البطل علي أحمد ديب

من محافظة اللاذقية

من معهد الكهرباء في منطقة عدرا التابعة لريف دمشق كانت البداية.

كنت مع أحد زملائي المقاتلين، وكان معنا سبعة وعشرون عنصراً من مقاتلينا الأشاوس، وفي تاريخ 2012/12/11 بقيت ساهراً طوال الليل، أفكّر بما عليّ من واجبات، وفي المقدّمة إيقاظ خطيبتي لتذهب إلى الجامعة لاستلام شهادة التخرّج، سعادة مفاجئة تسللت إلى كياني، فبعد أيام سيتمّ ترقيتي إلى رتبة أعلى، وسيكون حفل زفافي في اليوم نفسه، هكذا اتفقنا أنا وخطيبتي.

في صباح 2012/12/12 وبعد إيقاظ خطيبتي بحوالي ربع ساعة سمعنا إطلاق عيارات نارية ضمن المبنى، ذهبت سريعاً أنا وزميل لي إلى الطابق الأول فوجدنا عنصرين، أحدهما مصاب بطلقة قريبة من القلب وأخرى في خاصرته، فحين كانا ذاهبين بعد فترة الحراسة فاجأهما المسلّحون خلف فتحة موجودة في الحائط، وتمكن الإرهابيون من الإطلاق عليهما قبل هروبهم، أسرعت بتوزيع العناصر على الطلاقيات والإشراف عليها لصدّ الهجوم، فقام الإرهابيون بإطلاق قذائف ال (آر. بي. جي) على باب المبنى مما جعل المبنى مكشوفاً أمامهم، شعرت بأن مهمتي بدأت تزداد صعوبة، فبذلت جهداً كبيراً، كنت أتنقل بين الطوابق للرصد والمتابعة وتوجيه العناصر.

قمت بنقل العنصر المصاب إلى الطابق الثاني لأضمن أمانه، وقمت بإجراء الإسعافات الضرورية لوقف النزيف، وبقيت قريباً منه لأمنعه من الإغماء، كنت أتنقل بين الطوابق لمتابعة المهمة ثم أعود إلى المقاتل الجريح لأطمئن عليه، وأثناء صعودي إلى الطابق الثالث فوجئت بالإرهابيين يرتدون لباساً عسكرياً، ويقومون

بإسعاف جرحاهم، فتبادلنا إطلاق النار، وقمت بالاتصال بزملائي خارج المبنى لأحذرهم من المسلحين، لكنهم كانوا قد استشهدوا جميعاً.

حبّة البطاطا...

بقينا على هذه الحالة ما يزيد عن خمس ساعات، نتبادل النكات والغناء، والسخرية الجميلة، سخرية بعضنا من بعض، فزميلي يريد الذهاب إلى المرحاض وعليّ أن آخذ مكانه في مكان الإطلاق... أحذره من وجود أحد المسلحين هناك، فيضحك ويبدأ السباب، كان الماء يملأ المكان بفعل المطر والأسقف المضعضعة وأنابيب المكيفات، كان زميلي واقفاً خلف عمود إسمنتي قبل أن يذهب لقضاء حاجته وانتقالي إلى مكانه، وفجأة سمعت أحد الإرهابيين يصيح بنا:

- سلموا أنفسكم، وعليكم الأمان.

أجبته:

- ماذا ستفعلون بنا إذا سلمنا أنفسنا؟

قال:

- نحاكمكم بعدالة، ونعيدكم إلى أهلكم.

بحثت في جعبتي فلم أجد سوى قنبلة واحدة، وهذه لا أستطيع التخلّي عنها، فلها مهمّة أخرى أتمنى ألاّ أصل إليها، نظرت باتجاه زميل لي وأشرت له أن يدحرج تلك الحبات من البطاطا صوبي، ففعل وهو يضحك، وكأنه عرف ما نويت فعله، قذف لي حبتين متوسطتي الحجم، فناديت بأعلى صوتي:

- (أنا بدّي اسلّم نفسي فلا تطلقوا النار أرجوكم)

صاح أحدهم:

- بارك الله فيك أيها المجاهد.

صرخت ثانية:

- خذ هذه إذاً... الله أكبر...

ورميت حبة بطاطا باتجاه الصوت، فاصطدمت بالحائط وسقطت بينهم، سمعتهم يتصايحون (قنبلة... قنبلة) وسمعت لغطاً وبعض الضجيج فعرفت أنهم

انبطحوا خوفاً من القنبلة (حبة البطاطا) وفي هذه الأثناء استطعت جمع بعض أكياس الرمل وصنع ساتر رملي، ووضع رامي الرشاش رشاشه على الأكياس واستعدّ لبدء مرحلة جديدة من المعركة، وأثناء وضع الرشاش على الساتر الرملي صعد المسلحون إلى عتبة المبنى، مما مكّن الرامي من رميهم بالرصاص وقتلهم جميعاً، وساد جو من الضحك وتبادل النكات عن حبات البطاطا.

وأثناء مراقبتي للمنطقة حول المبنى، رأيت الدخان يتصاعد من إحدى نقاطنا العسكرية، ورأيت عربة تحترق، كان الخروج من هنا صعباً للغاية، فالمسلحون يحاصرون المبنى من الاتجاهات كلها، أجريت اتصالاً مع أحد زملائي هناك، فأخبرني أنهم في طريقهم لفكّ الحصار عنا. خفّت حدّة الاشتباكات قليلاً، ومع حلول المساء كنا على استعداد تام، حيث انتشرنا على الطلاقيات الرئيسة وانتظرنا قدوم زملائنا لفكّ الحصار.

في هذه الأثناء قمت باتصال مع أختي الممرضة لأسألها عما عليّ فعله مع زميلنا الجريح، فطلبت مني الحديث مع أحد الأطباء الجراحين، فوصفت له الحالة بدقّة فكانت تعليماته واضحة وقمت بتنفيذها بالكامل، امتنعت عن تقديم الطعام خشية أن تكون الطلقة قد فتتت أمعاءه، واكتفيت بالماء القليل ومسح جراحه بالماء المالح والضمادات.

في صباح اليوم التالي كان الجو هادئاً، اتصلت بقائدي وأخبرني أنه في مبنى البحوث العلمية، وأن معظم النقاط صارت بأيدي المسلحين الإرهابيين، أخبرته بنفاد ذخيرتنا إذ لم يبق معنا سوى القليل من الرصاص، فطمأنني بقرب وصولهم إلينا.

وكان أحد زملائي قد قرر المجيء إلينا عبر ثلاثة أبنية، وهي عبارة عن عدة معامل، وهي الطريقة الأنسب للوصول إلى معهد الكهرباء الذي نتمركز داخله، وقبل دخوله البناء الأول تم قنصه واستشهد، جاء بعده المقاتل أحمد أبو صحاح في عربة مدرعة، وبعد اشتباكه مع المسلحين تمكّن من الوصول إلى سور البناء الأخير، ولم يعد يفصلنا عنه سوى جدارين اثنين، فطلب منا إحضار زميلنا الجريح وبقائنا في المبنى ذاته، فقمنا بتنفيذ طلبه وسلمناه زميلنا الجريح وعدنا إلى ما كنا عليه.

الخروج...

في الصباح عادت الاشتباكات إلى ذروتها، كان الهجوم علينا من ثلاثة محاور، حتى إن نقطتنا في معرض المرسيدس اقتحمها المسلحون وسيطروا عليها، فأصبحت كافة المعامل في أيدي الإرهابيين وتحت سيطرتهم، عندها صار الضغط على سور مبنى البحوث العلمية من جهة الصرف الصحي، ولم يبق معنا سوى ثلاث وخمسين طلقة، فقررت مع زميلي بأن نجازف قبل وصول المسلحين إلينا، فقد أصبحنا داخل حلقة محكمة الإغلاق، انطلقنا خارج المبنى في حركة لم يتوقعها المسلحون، وقد التقينا ببعضهم خلف السور فاصطدناهم، وتابعنا تقدمنا باتجاه السور الثاني، لم نجد أحداً فدخلنا المعمل الأول، وواجهنا أيضاً بعض المسلحين وتخلصنا منهم، وحين اكتشفوا خروجنا من المبنى بدأ زخّ الرصاص باتجاهنا، ونجونا بلطف الله، وبقي أمامنا معملان اثنان للخروج، توكلنا على الله وركضنا بمحاذاة السور الذي يفصل المعامل المجاورة عن بعضها، قام المسلحون بالالتفاف علينا ليباغتونا، وكانت فرصة لعدم الاشتباك معهم، كانت الطلقات تتناثر حولنا دون أن يصاب أحد منا بفضل الله ورعايته، وصلنا إلى الطريق العام ركضاً، فاجأنا زملاءنا بقدومنا، وبدأ الترحيب والمزاح والتهنئة بالسلامة، أحد الجنود وجد رشاشاً في حضن إرهابي مقتول فأخذه، ورغب بالاحتفاظ به، وجندي آخر نسي إحضار (بابور الغاز) وندم كثيراً على نسيانه لأنه سيشرب الشاي بارداً.

ثلج وعشب...

في اليوم التالي اقتحمت مع مجموعة من زملائي معملاً للرخام، وفتحنا في جدرانه عدّة طلاقيات، بينما تمركزت باقي القوات على امتداد سور الصرف الصحي والبحوث العلمية، ومجموعة أخرى تمركزت في معمل الإسفنج، وهو المعمل الوحيد الذي بقي تحت سيطرتنا، وهو الذي يفصل المسلحين الإرهابيين عن مستودعات البحوث.

في هذه الأثناء اشتدت وتيرة الاشتباكات واستمرت حتى حلول الليل، وبدأت السماء تساعدنا بأن بدأ الثلج بالهطول، فحدّ من حركة مدرعات الإرهابيين، وساعد في ذلك طول الأعشاب من جهة الصرف الصحي، ومع الوضع الجديد أصبحت حركة المسلحين الإرهابيين بطيئة جداً مما خفف من وتيرة المعارك.

وعند التاسعة ليلاً، جاءنا عدد من المقاتلين الأشاوس لمؤازرتنا، جاؤوا من البحوث ومن القوى الجوية، وكان عددهم يقارب المئة، مما خفف العبء عنا، وخصوصاً أن المدينة العمالية في عدرا أصبحت في أيدي الإرهابيين.

في الحادية عشرة ليلاً طلب مني قائدي أن أحلّ محلّ زميلي المقاتل أحمد الكنج في معمل الإسفنج، وكان من أشدّ المقاتلين بأساً وتدريباً وصلابة وهدوءاً، أخذت سلاحي ومضيت إلى هناك، وجدته يصنع القنابل من الظروف الفارغة لطلقات الرشاش عيار 23 وبقينا هناك مدة يومين بهدوء تام، وفي ليل 2012/12/15 سمعنا صوت آلية ثقيلة (تريكس) يعمل تحت ضوء القمر المكتمل، صعدنا إلى سطح المعمل برفقة زملائنا الوافدين إلينا حديثاً، رأينا التريكس يبدأ بفتح الجدران ورفع السواتر، وكأنهم يتحضرون لهجوم جديد، طلب مني صديقي المقاتل أحمد الكنج إطلاق بعض قذائف الهاون في ذلك الاتجاه، نزلت سريعاً وحملنا الهاون 120 ورميت قذيفتين، فتوقف التريكس عن العمل بضع دقائق، ثم عاد يتابع عمله، كانت المسافة بيننا قصيرة بحيث لا تسمح بإطلاق قذائف ال (آر بي جي) ورميت قذيفتين أخريين فكرر توقفه وعودته إلى العمل، أبلغنا القيادة بذلك فطلبت منا توخي الحذر.

وفي صباح 2012/12/16 استيقظت على صوت قذيفة تضرب حائط المعمل، القذيفة آتية من دبابة تتمركز في المعمل المقابل لنا (معمل المدافئ) بعدما فتِح الطريق في الليلة الماضية بالتريكس، انتشرنا جميعاً وبدأ الاشتباك، كانت نيران القذائف كثيرة من الدبابة المتمركزة أمامنا، وبينما كنت أرمي من إحدى الطلاقيات لمحت سبطانة مدفع الدبابة وهي قادمة نحونا، وقبل أن أحذر أصدقائي لم أجد نفسي إلا وقد سقطت أرضاً، ولم أعد أسمع إلا أصوات الطنين تسدّ أذنيّ، والغبار يتعالى حولي، عندها عرفت ما فعلته قذيفة الدبابة، فقد هدّمت الجدار الذي أقف خلفه، جاءني أحد عناصرنا وبدأ سحبي من نطاق البدلة التي أرتديها، كانت الدماء تغسل وجهي، وفي فسحة بين معمل الإسفنج وباقي المعامل اجتمع الأصدقاء حولي، لكن القناصين الإرهابيين شاهدونا وبدؤوا إطلاق النار، فانبطحنا أرضاً بشكل عشوائي وارتطم رأسي بحجر كبير، ارتطاماً أدى إلى جروح وبعض النزيف، وبين الطلقات المتناثرة حولنا

استطاع رفيقي سحبي بعيداً، وتابعنا سيرنا متكئاً على كتفيه حتى وصلنا مبنى البحوث العلمية، وهناك شاهدت أصدقائي الجرحى حيث كانت نقطة تجمّع للجرحى، نُقِلنا بعدها بواسطة حافلة صغيرة إلى مدرسة الاستطلاع، ومن هناك نقلونا بسيارات الإسعاف إلى مشفى تشرين العسكري.

أذكر أنني بقيت واعياً حين أدخلوني في جهاز التصوير (طبقي- محوري) ثم فقدت الوعي مدة يومين، استيقظت بعدها معصوب العينين، صرخت: من هنا؟ هناك شخص أمسك يدي قائلاً: حمداً لله على سلامتك، طلبت منه أن يساعدني في النهوض لأتفقّد جسدي، وبعدها ضحكت فرحاً، وحين سألني عن سبب ضحكي، أجبته أنني بكامل صحتي وسأعود فوراً إلى رفاقي المقاتلين، هدّأني قليلاً حين علمت بأني فقدت إحدى عينيّ، وضحكت مرة أخرى قائلاً:

- لي عين ثانية أستطيع أن أسدد بها.

وطلبت منه الاتصال بوالدي وسمعت صوته وسمع صوتي، شرحت له ما أصابني، سمعت عبر الهاتف زغردات وأصوات بكاء، قلت لوالدي:

- لا تهتم يا غالي... غداً أو بعده بقليل سأكون عندكم.

أمضيت سبعة أيام في المشفى، خرجت بعدها بعين واحدة وارتجاج في الدماغ، ولن أقول إلا حمداً لله، نحن بخير ما دامت بلدنا الغالية سورية بخير. الرحمة لأصدقائي الشهداء، والشفاء للجرحى، والمجد لسورية.

***

الوطن أولاً وأخيراً

حكاية الجريح البطل رياض عبد الرحمن الدليمي

من محافظة دير الزور

رمى بثراء الدنيا وإغواءاتها وراء ظهره، وعاد إلى الوطن بما يمتلك من ثروة وبنين، تاركاً المملكة العربية السعودية، وكان قد هاجر إليها منذ عام 1992 وجاب أراضيها متنقلاً، حتى إن أحد أصدقائه السعوديين قال له:

- هل أنت مجنون يارجل كي تترك المال والثراء والعيش الآمن، وتعود إلى بلاد يعيث فيها القتل والدمار والتفجير، ورحى الحرب تطحن الكبير والصغير، والحجر والشجر؟

يرفع رياض عبد الرحمن الدليمي سبابته في وجه صديقه قائلاً:

- والله لو خسرت نعيم الدنيا كله، وجميع أولادي، لن أتخلى عن وطني في محنته، وسوف أكون وأولادي مع جيشنا العربي السوري، نقاتل حتى الموت.

في عام 2012 حط رحاله على أرض الوطن مع عائلته، وتطوّع مع أولاده في الجيش العربي السوري حاملاً دمه ودم بنيه على أكفهم، ومضوا معه كالأسود للقتال في دير الزور مدينته التي نشأ وترعرع فيها طفلاً، وشاباً يافعاً، لدحر الدواعش والإرهاب، وصار يصول ويجول بين مدنها وقراها، وبندقيته على كتفه لا تعرف الراحة والهدوء، وأولاده الأشاوس معه يقاتلون في اتجاهات مختلفة، وبقلوب صلبة كالحديد، مليئة بروح الحماس وحب الوطن، وقلبه كان يتمزق بين هذا وذاك، وخصوصاًأن الحرب مع الدواعش كانت في أوجها، والداخل بينهم مفقود، يروي الجريح رياض عبد الرحمن الدليمي قصته قائلاً:

- ذات معركة ضارية مع الدواعش، اتجهت مع مجموعتي نحو الهدف، وحشدنا قوتنا وعزيمتنا بالله الواحد الأحد، رجال من جميع المحافظات السورية، شددت عمامتي على رأسي، وفي قلبي ألف أسد مفترس متعطش لقتال أولئك

المجرمين الإرهابيين، ودارت بيننا معركة حامية، قتلنا فيها عدداً كبيراً منهم، وكنا على ثقة بالنصر المؤزر ما بين صد ورد في ساحات القتال. وفي جبهة أخرى كان ولدي بشار يقاتل مع مجموعته، وكنا على تواصل مع بعضنا، وعندما وصلني خبر استشهاده عام 2014 احتسبته في سبيل الوطن، وتابعت معركتي مع المجموعة التي انضم إليها، وقلبي يقطر دماً على فراق ولدي، وبقي قلبي مليئاً بروح الحماسة والإصرار .. وبعد انتهاء المعركة عدت بجثة ولدي لأدفنه مع باقي الشهداء الذين ارتقوا معه في الوقت ذاته.

ويتابع الجريح البطل رياض قائلاً:

- تابعت مسيرة النضال، وقد أقسمت عليها كإنسان غيور، ومحب لوطنه ومخلص وفي له .. وأنا الذي نشأت بين ربوعه، وشربت من عذب مائه، وتنشقت نسيم هوائه، وتغنيت بجمال طبيعته وأنا في ريعان شبابي عاماً بعد عام، ورحت أنتقل مع رفاقي المقاتلين لمحاربة الدواعش وإجرامهم، واستطعت أن أشكل حشداً شعبياً كبيراً في مقر المحاربين القدماء، حشداً مبنياً على محبة الناس، وثقتهم الكبيرة بنا، مما زادني جرأة وتصميماً ..ومما جعلني محط أنظار الدواعش ..خاصة بعد أن أجريت لي بعض اللقاءات على الفضائيات العربية، في المنار اللبنانية، وسما السورية، وغيرهما، وهذا ما أوقد نار الحقد في قلوبهم أكثر، وكأني بهم يتساءلون: (أيعقل أن يشكل هذا العجوز الهرم رعباً لنا؟) فاتصلوا بي، وحاولوا إغرائي بوسائل كثيرة كي أعطيهم معلومات عن تحركات جيشنا، لكنني رفضت البيع أو المساومة وقلت لهم:

- نحن أصحاب حق، ولن نستسلم حتى النصر أو الموت.

ويتابع الجريح البطل رياض حديثه:

- اختطفوا أخي من أمام المسجد، وحاولوا مساومتي مرة ثانية، وكنت غير مبال بكل تهديدهم ووعيدهم، وحين يئسوا مني، قاموا بإجرامهم المعتاد فقطعوا رأس أخي عبيد على مرأى من عيون أهالي المدينة، أمام المسجد، ونكلوا بجثته أبشع تنكيل، ولم أستطع رؤيته، ولا حضرت دفن جثمانه. كل هذا جعلني أقوى عزيمة وإصراراً على مقاومتهم .. نترصدهم بقلوب جريئة وعيون لا تغفل..

أصبت بجروح كثيرة، حوالي أربع مرات، ولن أضعف أبداً، وكانت كل إصابة تعطيني حافزاً أكبر لمقاومتهم ومصارعة الموت. في عام 2016 ..جاءني خبر استشهاد ولدي الثاني محمود رياض عبد الرحمن الدليمي، في جهة أخرى لأراضي دير الزور، ودفنته وأنا مفاخر به وبكل شهداء الوطن الذين بذلوا دماءهم في سبيل عزة الوطن.

واليوم، ومع كل المعاناة والمصائب التي ألمت بالجريح البطل رياض عبد الرحمن الدليمي، إلا أنه مازال متمسكاً ببندقيته التي صارت جزءاً من جسده.. يتنقل بين السباع والأسود، وبروح المقاتل الوطني الشريف، ومبادئ الإنسان الحر الأبي، يدافع عن شرف الوطن وقدسية ترابه، شعاره (اطلب الموت بعزة ترخص لك الحياة واطلب الشهادة يأتك النصر) .. و ينتقل بين رموز الوطن بشراً وحجراً، آثاراً ومدناً، ينهل من ينابيعه أعذب حكايات العشق التي تليق به، ويحلق نسراً دامياً راصداً أعداء الوطن .. ليكون حالة عشق أبدية ما بينه وبين الوطن.

***

من يوميَّات مقاتل

حكاية الجريح البطل محمد عمر جمعة

دمشق – مخيم جرمانا

- كان المقاتل إلى يميني يتراجع بخطوات مدروسة،
فلا يرجع إلاَّ بعد أن يُثبِّت رجلاً،
ثمَّ ينقل الأخرى،
فاطمأننت أنَّني إذا ما تعثَّرتُ
بسبب رجلي الَّتي لم تُشفَ بعد
سوف يحميني.

**

أصيب محمَّد عمر جمعة في رجله اليسرى، ولكنَّه رفض أن يدخل غرفة العمليَّات قبل أن يطمئنَّ على رفاقه الَّذين أصيبوا معه، ولا سيَّما رفيقه، وابن دورته، حمزة الَّذي أسعفه مخاطراً بنفسه تحت أنظار القنَّاص في البناء المقابل مسترجعاً الموقف من كثب:

- بينما هو يسعفني أصيب في ظهره، ولم ينتبه إلَّا وأنا أقول له: "في دم عم ينزف من ظهرك يا حمزة".

*

بعد خروجه من المستشفى العسكريِّ في فترة نقاهة مرضيَّة، واندلاع المعارك مجدَّداً رفض محمَّد إلَّا أن يكون مع رفاقه.

كان موقع مجموعته بين حييّ "يلدا" و"الحجر الأسود".

وحين هاجمتهم مجموعات "داعش" بشراسة ووحشيَّة طلب منهم قائدهم العقيد الركن أن يتراجعوا، وهم يطلقون النار على المهاجمين، فلا يعطونهم ظهورهم حتَّى لا يغدروا بهم مثل عادتهم في أثناء انسحابهم، فلمَّا وصلوا إلى الخطِّ الخلفيِّ، وقد توقَّف المهاجمون راح الرفاق يتندَّرون على بعضهم:

ـ نتفة حفرة وقَّعتك، يا سميح.

ـ ولا أنت، شوكة صغيرة خَلَّتك تعرج، جورج أفندي.

لحظتئذ نظر نحوي أحد المقاتلين من الحرس، وقال:

كانت حركتك غير منتظمة، وأنت تنسحب، يا محمَّد!

فهزَّزت رأسي موافقاً:

ـ صحيح. لأنَّني مصاب في رجلي اليسرى، ولم أُشفَ بعد.

وأردفتُ مبتسماً:

ـ يجب أن أكون نقاهة الآن، أي في استراحة مرضيَّة.

ـ سلامتك.

قالها مبتسماً، ثمَّ رفع البنطال العسكريَّ عن رجله اليمنى، فإذا هي مقطوعة من تحت الركبة، وثمَّة رِجلٌ اصطناعيَّة، يسير عليها، ومع ذلك يأبى إلاَّ أن يشارك رفاقه القتال.

*

بعد ذلك قمت بجولة واسعة بين رفاقي المقاتلين، وكتبت ملحوظتي الشخصيَّة:

- كنت أعتقد أنَّني أفعل شيئاً نادراً إذ أعود إلى القتال مع رفاقي، ولم يشف جرحي بعد، فإذا هناك من بترت ساقه، وآخر ينزف من خاصرته، وقد غطَّى الجرح بالشاش، وغيره مصاب في ظهره...

على الرغم من ذلك لم يتوقَّف أحد منهم عن القتال.

***

قاهر المفخخات

حكاية الجريح البطل رمضان أحمد تجور

من محافظة اللاذقية

كم أنت عظيم حين تدفع الموت بعيداً عن الناس الأبرياء! وكم أنت أعظم حين تدرك أنك قد تكون أنت الضحيّة!

في عينيه ضوء غريب، ضوء يستفزّك لمعرفة ما يكنّه هذا الرجل، حدقتا عينيه تعانقان أحلاماً بلون الورد، وهما دائمتا التوثب، وكأنه يستعد للانطلاق لتفكيك عبوة متفجرة تنتظره في مكان ما.

بدأ يحكي، ورحت أستمع بشغف، وكأنني أمام شخص أسطوري، شخص يمتلك من الحكايات الكثير، ومن العنفوان أكثر، أصيب مرتين، وفي كل مرّة يزداد إصراراً على المضيّ باتجاه الخير والسلام والأمان، إنه الجريح البطل رمضان أحمد تجور، من محافظة اللاذقية، بدأ حديثنا بكثير من المودّة، فقد وجدت في ملامحه صورة لصديق قديم لي، شبه غريب بين الوجهين، صرّحت له بذلك، ابتسم قائلاً:

- وأنا صديقك أيضاً، صداقتنا تبدأ في هذه اللحظة.
- شرف كبير لي.
- فلنبدأ حديثنا إذاً.
- تفضل.
- مع بداية هذه الحرب اللئيمة أدركت بفطنة المستشرف أن مؤامرة كبرى تحاك ضد بلدي سورية، فحمّلت نفسي مهمّة دائمة ومستمرة حتى النهاية.

كانت بداية الحرب حمّالة عبء نفسي عليّ، لأنني قرأت الواقع جيداً، وأثبتت هذه النهايات صدق ما كنت أقرؤه وأتوقعه، بدأت بتشكيل مجموعة من

رفاقي المقاتلين، تدرّبنا كثيراً حتى أصبحنا خبراء في تفكيك العبوات الناسفة والسيارات المفخخة والأحزمة الناسفة، وعلى مدى هذه الحرب فككنا مئات العبوات الناسفة وعشرات السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة، كان ما يثير غضبي على أولئك الإرهابيين هو وضعهم السيارات المفخخة في أماكن ازدحام المواطنين المدنيين الذين لا علاقة لهم بالحرب وما يدور فيها وحولها.

إصابة أولى...

في الشهر الرابع من عام 2015 تمّ إبلاغنا بوجود سيارة مفخخة في منطقة برزة الواقعة قرب دمشق، سيارة مركونة في شارع ضيق، بين أبنية متقاربة، وهي مفخخة بمئات الكيلو غرامات من مادة ال (سي فور) وهي مادة شديدة الانفجار، وقد تؤدي في حال انفجارها لإصابة أعداد كبيرة من الناس المدنيين، أطفال ونساء وشيوخ.

انطلقت مع مجموعتي باتجاه منطقة برزة، وكنت في كل حالة تفكيك شديد الحذر، حذر تعلّمته أثناء التدريب، ودائماً أقوم بالحركات الأولى طالباً من عناصر مجموعتي الابتعاد عن المادة المتفجرة وأخذ الحذر والحيطة، وذلك إلى أن يحين دورهم في العمل، وبعدما تمت السيطرة شبه الكاملة على الموقف، حيث تم نزع المادة المتفجرة وإبعادها عن السيارة، لم يبق سوى الصواعق، بدأت تفكيكها، وهذا الإجراء طبيعي أثناء التفكيك، ولكن على ما يبدو أن الإرهابيين توقعوا قدومنا للتفكيك فقاموا بإخفاء بعض المتفجرات بحيث لا يمكن اكتشافها، وحين وصلت إلى الصواعق الأخيرة انفجر أحدها، وأدّى إلى تفجير المواد المتفجرة والمخبأة في أماكن لا أحد يتوقعها، مما أدّى إلى غبار كثيف في المنطقة، وإصابتي بجروح طفيفة، وتم إسعافي بعدها إلى المشفى، حيث تمت الإسعافات الأولية، لأعود سريعاً إلى مزاولة عملي، وكأن شيئاً لم يكن.

إصابة ثانية...

وبتاريخ 2015/10/25 تم إبلاغنا أيضاً بوجود سيارة مفخخة في منطقة داريا في ريف دمشق، ذهبت مع مجموعتي...

وهنا قاطعت الجريح البطل رمضان مستفسراً عن السرّ في تشكيل هذا الفريق، لماذا الإصرار على المجموعة ذاتها في كل مهمة، ابتسم قائلاً:

- ليس من السهل أن تختار وتنتقي مجموعة من الأصدقاء تكون على قلب واحد، نتفاهم بالإشارة، والكلام المختصر، إضافة إلى أن المجموعة تتمتع بروح وطنية عالية، وسلوك فدائي بكل ما للكلمة من أبعاد، بالإضافة إلى مهارات قلّما توجد عند كل عناصر الهندسة، وهكذا كنا.

المهمّ، انتقلنا إلى منطقة "داريا"، قمنا بمعاينة المكان، وبدأنا التفكيك، وأعتقد أن من فخخ سيارة "برزة" هو نفسه من فخخ سيارة "داريا"، وذلك لما يمتلك من براعة التفخيخ، واختيار الأماكن التي لا تخطر على بال، وإبعاد أي احتمال للمفككين عن وجود المتفجرات في تلك الأماكن، كانت السيارة مفخخة بطريقة مركّبة بحيث يصعب تفكيكها إلا لمن يمتلك الخبرة والدهاء والحنكة، بالإضافة إلى برودة الأعصاب والقلب الحديد، وهذه صفات مشتركة بيننا نحن فريق العمل.

كل ما أذكره هو أن يدي اليسرى كانت تمسك بالصاعق، واليد اليمنى تقوم بنزعه، ثم لم أعد أذكر شيئاً، فقد كان الانفجار قوياً إلى درجة لم نعد نحن المجموعة نرى بعضنا، وأذكر أيضاً أنني بقيت في مشفى الشهيد يوسف العظمة أياماً عديدة، وما يدعو للفخر أن قادتي جميعاً اتصلوا بي واطمأنوا عليّ، وطلبوا من الأطباء عدم بتر يدي، وقد كانت مصابة إلى درجة يستحيل ترميمها، ولا بدّ من البتر، لكن إصرار القادة، وتعاون الأطباء، وخصوصاً الدكتور الجرّاح غياث موصلي والدكتور الجراح عمار غصة، اللذين أدين لهما بالشكر والامتنان والعرفان على العناية الفائقة بي، واللذين تحديا كل الصعوبات لأجل أن أخرج بيدين اثنتين.

وبعد الإصابة...

ومع نسبة العجز البالغة خمسين في المئة 50٪ أصرّ الجريح البطل رمضان أحمد تجور على إكمال عمله ومتابعة مهماته الخطرة، فما زال مقاتلاً في الجيش العربي السوري رافضاً التسريح، وما زال المهندس الأول في تفكيك المفخخات، وذلك بشهادة زملائه وقادته، ولم يتوانَ عن تنفيذ أية مهمة يكلف بها، ففي عام 2018 تم تكليفه مع مجموعته بنقل عبوة ناسفة من طريق مطار دمشق الدولي

إلى مكان بعيد وتفجيرها هناك عن بعد، وذلك لاستحالة تفكيكها، فقام مع مجموعته بنقل العبوة، وكان نقلها خطراً لأنها قد تنفجر في أية لحظة، تم نقلها بعيداً عن الطريق وتفجيرها.

ولأنه متميز في التعامل مع المفخخات بحذر وذكاء وخبرة نوعية متميزة، مع مجموعته كلها، أصبحت القيادة تكلفه بالمهام الحساسة والخطرة، والتي تتطلب المزيد من الخبرة، حيث تمّ استدعاؤه مع مجموعته بطائرة خاصة من دمشق إلى حماة للتعامل مع سيارتين مفخختين مع أربعة عشر حزاماً ناسفاً تركها الإرهابيون قبل أن يلوذوا بالفرار، فنفّذت المجموعة المهمة بنجاح، وتمت السيطرة على الموقف الذي كان يتصف بالحرج.

وما زال الجريح البطل يتابع مهماته عند الضرورة، ويقوم بتدريب المئات من عناصر الهندسة بدورات مستمرة متمماً مهماته النبيلة، والتي يفخر ويعتز بها حتى الآن.

***

وعد الحرّ دَيْن

حكاية الجريح البطل خالد نذير زلف

من محافظة حماة

في دمشق، حيث يقيم الأهل والأصدقاء، تكثر الأحاديث عن هذه الحرب اللئيمة، وخصوصاً في السهرات التي يجتمع فيها الجريح البطل خالد نذير زلف مع أصدقاء الدراسة الجامعية، تطول الأحاديث وتتشعب، لتزيد من إيمان الشبان بضرورة الدفاع عن سورية الوطن، أحاديث دفعت الكثير من الشبان السوريين للانخراط في صفوف الجيش العربي السوري، تاركين دراستهم الجامعية، إلى حين تسمح الظروف بإكمالها، وكان الشاب المندفع خالد زلف من بين مئات الطلاب الذين أجّلوا دراستهم ليدافعوا عن وطنهم.

بدأ خالد حياته العسكرية متطوّعاً في إحدى الوحدات المقاتلة، وبعد دورة تدريبية قصيرة انتقل مباشرة إلى الأعمال القتالية، مبتدئاً المعارك الأولى في حقل (الشاعر) على حدود بادية تدمر.

وبعد كثير من المعارك الطاحنة التي انخرط فيها الجريح البطل خالد نذير زلف، تم تحرير حقل الشاعر النفطي، ولم يبق سوى تطهيره من المسلحين الإرهابيين، وفي الثالث والعشرين من شهر آب عام 2017 وفي منطقة (تل سلمون) القريبة من الحقل تجمّع بعض المقاتلين الأشاوس لبدء مهمة التطهير، وفي أثناء تجمّعهم أرسل المسلحون الإرهابيون عربة مفخخة، وتم تفجيرها بين مقاتلي الجيش، كانت الإصابات كثيرة ومختلفة من حيث تأثيرها، وكان نصيب المقاتل خالد زلف كسور في عنق القدم، نقل الجميع إلى المشفى الميداني، حيث تلقى الجرحى منهم العلاجات الإسعافية، ومن ثم تابعوا تطهير المنطقة.

ومن بادية تدمر انتقل الجريح البطل خالد نذير زلف مع بعض رفاقه إلى محافظة حماة، وهناك تدور المعارك الطاحنة في ريف حماة الشمالي، وفي قرية (قصر علي) تجمّع المسلحون الإرهابيون، فرأت قيادة الوحدة العسكرية ضرورة

تطويق الإرهابيين ضمن القرية، والقضاء عليهم، وكانت الخطة محكمة، بحيث يتم الالتفاف على القرية عن طريق خلف التل المحيط بها، وكان المقاتل خالد في طليعة المهاجمين.

ولأن المسلحين الإرهابيين لا يقيمون أية أهمية لأي قيمة أخلاقية، فقد كانوا شديدي البأس والغدر والتهوّر، أعداد هائلة من المجرمين تجمّعوا في قرية صغيرة، وعاثوا فساداً وقتلاً وترهيباً بين أبنائها.

وأثناء عملية الالتفاف كان القناصون الإرهابيون قد توقّعوا هجوماً عليهم، فأخذوا أماكن تتيح لهم الرصد والمتابعة لتحرّك الجيش، قناصون مدرَّبون على أحدث الأسلحة، وأكثرها فتكاً بطلقات متفجرة شديدة الخطورة، ولأن المقاتل خالد زلف دائماً ينطلق في مقدمة الجنود المهاجمين، فقد جاءته طلقة قناص، الطلقة دخلت من أعلى ظهره، لتخرج من الصدر، بعد أن فعلت فعلها في الجسد البطل، وكانت النتيجة الأخطر لتلك الطلقة القناصة إصابتها الرئة دخولاً وخروجاً، بالإضافة إلى تكسير عدد من الأضلاع في الجهة اليمنى من القفص الصدري.

ولصعوبة الموقف، حيث كان الإرهابيون يستهدفون العربات المسعفة بالصواريخ الحرارية بشكل دائم، فقد تأخّر إسعاف الجريح البطل خالد نذير زلف، وبعد ساعات أُسعِف إلى مستوصف الوحدة العسكرية حيث تمت له معالجة أولية، من تضميد وضخ بعض أكياس من الدم بعدما فقد الجريح كثيراً من الدماء، نقل بعدها إلى مشفى حماة الوطني وذلك بتاريخ 2017/11/28 وبقي هناك في المشفى للمعالجة مدة خمسة أيام.

وبعد الاطمئنان على وضعه الصحي تمّ نقله إلى مشفى الشهيد يوسف العظمة في مدينة دمشق لاستكمال العلاج والمتابعة، وبقي هناك ثلاثة أيام حتى اطمأن الأطباء على وضعه الصحي، فمنح عدة أيام استراحة يقضيها في بيته، مع الأدوية المناسبة لحالته الصحية.

يقول الجريح البطل خالد نذير زلف:

- إن أكثر ما كان يؤلمني حين أتذكّر كيف يخوض زملائي المقاتلين معاركهم، وأنا بعيد عنهم، ولم تعد الاتصالات بهم كافية لريّ غليلي، علماً أن

الأخبار التي ينقلونها لي كانت مثار فخر، لحجم الانتصارات التي أحرزوها، ما أصعب ذلك حين يقودك خيالك إلى معركة رابحة من دون أن تكون مشاركاً في عملياتها القتالية!

وبعد الشفاء التام عاد المقاتل خالد إلى رفاقه سعيداً بانتصاراتهم، وحزيناً لعدم مشاركته معهم، لكن ذلك لا يهمّ، فالمعارك ما زالت مستمرة، على قلّتها، وما زال الجريح البطل خالد زلف يتنقّل من مكان إلى آخر، ومن معركة إلى أخرى، محققاً الانتصار تلو الانتصار.

وما زال بطلنا خالد يتابع دراسته الجامعية إلى جانب مهماته العسكرية التي لا يريد لها أن تتوقف إلى أن تعود سورية الوطن إلى حالتها الطبيعية قبل الحرب، بل وأفضل مما كانت، هو عهد قطعه أبطال الجيش العربي السوري، وهم ليسوا ممن يخلفون وعدهم.

***

وحيد، لكنني لست وحيداً

حكاية الجريح البطل حسن محمود مرعي

من محافظة طرطوس

خير الكلام ما يقوله الجريح البطل ذاته، فلنقرأ ما كتبه، ولنستمع إلى ما قاله:

- مع بداية الأزمة، كنت أعمل مدرساً في الثانوية الزراعية، ومع تطور الأحداث واشتدادها، أدركت أن القضية أصبحت معركة وجود، فتركت عملي في المدرسة، وحملت السلاح منتسباً إلى القوات الرديفة، لأصبح مقاتلاً من خلالها.

شاركت بمعارك كثيرة في ريف حماة، وريف إدلب، وريف حمص الشرقي، وحرستا، وأُصبت بمعارك تحرير داريا.

في حرستا تعرفت إلى أصدقاء كثيرين، كنا نتقاسم الأفراح والأتراح، نمزح معاً، نغنّي معاً، نخسر بعض معاركنا معاً، ونربح الكثير معاً.

كنا مجموعة أخوة، وكانت الميزة الأساسية بيننا جميعاً هي المروءة، فكل أخ منا يريد الاقتحام أولاً.

في القرية كنت وحيد أبويّ، وكانت تلك الصفة تلاحقني أينما ذهبت، حتى شكّلت عبئاً حقيقياً، تعرّضت لضغوط كثيرة حين التحقت بالقوات الرديفة وحملت السلاح، ضغوط من أهلي وأصدقائي وأقربائي.

أما في المعركة، وقد تخلصت من صفة الـ(وحيد) صارت الحياة مختلفة، فلا أنا أكترث بهذه الصفة، ولا أنا وحيد أصلاً، فأصدقائي هنا أكثر من أخوة، يفدونني وأفديهم، وكلنا فداء للوطن الغالي.

جاء أمر الانتقال من حرستا، في ريف دمشق، إلى داريا، حيث كانت تدور المعارك الطاحنة، انتقلنا إلى هناك، وتعرّفت إلى أخوة جدد أيضاً، هكذا بدأت أسرتي تزداد، أي فرح هذا الذي يغزو كياني؟!

عدّة أيام أمضيناها في "داريّا"، كانت المعارك تتناوب بين اشتداد وهدوء، وفي يوم 13 /2016/8 أخبرونا بقرب عملية عسكرية ضخمة، فبدأنا نتحضر لها، وفي اليوم التالي 2016/8/14 بدأت المعركة الموعودة وكنا نعرف مدى صعوبتها، وقد حذرنا القادة من تلك الصعوبة، وتركوا لنا الخيار حول المشاركة أو عدمها، ولكننا لم نأتِ إلى هنا إلاّ لنحارب وندافع، ولا نكترث بأية صعوبة، وكان شعارنا الراسخ هو (الشهادة أو النصر).

وفي مزارع "داريا"، كانت تدور الملاحم، وبدأ الاقتحام، وأقسم بالله أن الاقتحام كان كالمشي على الجمر، تفرقنا، نحن الأخوة، في عدّة مجموعات، وبدأ القتال بشكل لم نعرف له مثيلاً، شراسة تقابلها شراسة، وإصرار في مواجهة إصرار، ولا صوت سوى صوت الرصاص.

ومع شدّة الحرّ يصبح الماء كنزاً لدى المقاتل، وكم افتقدنا تلك الكنوز المائية، كنا نحصل على الماء من البرك والمستنقعات، مياه آسنة ومليئة بالحشائش والبرغش، لكنها تبقى أفضل من العطش.

أنهينا مهمة الاقتحام بتحرير الكتل المطلوبة، بالإضافة إلى كتل سكنية أخرى، وذهب بعض الأصدقاء المقاتلين للاستراحة، وبقيت أنا في مهمّة تثبيت السيطرة على الكتل المحررة، خصوصاً أن رفيقي الشهيد باسل محمد جاء إلى مجموعتي للمؤازرة.

وعند الساعة الواحدة والنصف من صباح 15 /2016/8 بدأ الإرهابيون بالتسلل إلينا، تسللاً كبيراً وقوياً، بمختلف أنواع الأسلحة، حاولنا التصدي لهم وردّهم على أعقابهم، لكن الوضع كان حرجاً، بسبب نفاد الذخيرة منا، وبدأ الوضع يزداد صعوبة، فاضطررنا للانسحاب.

وفي طريق العودة سمعنا صراخ أحد الرفاق المقاتلين الجرحى، ينادي ويستغيث، فطلبت من الشهيد باسل أن يغطّي تقدمي باتجاه الجريح ريثما

أستطيع سحبه وإنقاذه، وكان ما طلبته، باسل يغطي وأنا أتقدم باتجاه الجريح، فوجئت باستشهاد صديقي باسل الذي كان يغطي تقدمي، ولم يتبقّ وقت للتفكير فأسرعت بين الرصاص والغبار، ولم أشعر إلاّ بقوّة تدفعني بعيداً، قوّة انفجار ضخم جعلت ساقي تصطدم برأسي، أدركت حينذاك قيمة المروءة والشهادة في سبيل الآخرين.

كانت العضلات قد فارقت ساقي، والفخذ تفتت، كنت أشاهد لحمي كيف يتناثر خلفي، والدم يسيل ليملأ الحذاء العسكري، فبالإضافة إلى الانفجار، كان الرصاص يحصد أنحاء جسدي وأنا أزحف باتجاه صديقنا الجريح، وما زلت حتى الآن أعاني من رصاص متفجر في كتفي وذراعي اليسرى.

وفي حوالي الساعة الخامسة صباحاً حاولت إخراج هاتفي الجوال من الجعبة، ربما أجد من يأتي وينقذني، فوجئت بأحد المسلحين الإرهابيين يقف قريباً مني بمسافة عدّة أمتار، مسدداً إليّ رشقة رصاص فتتت يدي اليسرى.

ومع اقتراب المسلحين الإرهابيين ليسحبونا كأسرى، حاولت فتح قنبلة وتفجيرها لئلا أقع في قبضتهم، وعند الرمق الأخير وصل صديقاي المقاتل (أحمد خضيرة) والشهيد البطل (أحمد محسن).

كان للشهيد أحمد فضل كبير بإخلاء الجرحى، راح يشدّ من عزيمتي، ويشجعني على التحمل، أشعل لي سيجارة، ونزع الجعبة عني، ثم حملني بين ذراعيه، وركض باتجاه المقر الخلفي، يا لها من لحظات لا يمكن نسيانها!

أحسست بطمأنينة، وكأنني بين أهلي، أو كأن ملاك الرحمة يجلس قربي.

لم يقبل الشهيد أحمد أن ينسحب، فبعدما تعاون الأصدقاء، وأبعدوني إلى مكان آمن، بقي الشهيد أحمد ليسحب أخوتنا الجرحى.

وعند وصولي إلى المشفى، سألت أصدقائي عن رفيقي أحمد محسن، البطل الذي تركته هناك ينقذ أصدقاءنا الجرحى، فوجئت بخبر استشهاده، حينها شعرت بخسارة كبيرة لي وللوطن ولأهله.

أيام طويلة من الجوع والعطش والألم أمضيناها في ريف دمشق، لم يكن هناك شيء يعوّض ما نحن فيه سوى الروح الأخوية، وهي روح لا يعرف قيمتها إلاّ

من لامس حرارتها، فأن يفديك أخ بروحه، لعمري تلك هي الأخوة الحقّة، الأخوة التي زادت من تلاحمنا وانتصاراتنا، الأخوة حين تدرك أن مصيرك مرتبط بمحبة أخيك ولهفته عليك، أخوّة تغنيك وتجعلك تنسى أنك وحيد أبويك.

كثيرون هم الشهداء والجرحى الذين فقدوا حياتهم أو أصيبوا بجروح خطرة، كل ذلك لسبب وحيد، هو أنهم يمتلكون تلك الروح الفدائية التي تلزمهم إنقاذ أخوتهم من الموت، حكايات كأنها أساطير، عشناها معاً في معارك الشرف لتبقى مخزّنة في ذواكرنا ما دمنا أحياء.

رحم الله شهداء الوطن، شهداء الحق والخير والسلام، وشفى جرحانا الأبطال، والنصر لأمتنا ووطننا بإذن الله أولاً، وبهمّة رجال تجمعهم روح الأخوّة.

***

ملف جرائم الإرهابيين

مأساة في عش الورور

حكاية الشهيدة مريم عباس ديب

من محافظة اللاذقية

أن تنتقل مع أسرتك من منطقة خطرة بسبب العمليات الإرهابية، إلى منطقة آمنة، لتحافظ على زوجتك وابنتيك من خطر داهم البلاد كلها، ثم تكتشف أن تلك المنطقة الآمنة لم تعد آمنة، فالإرهابيون قادرون على الوصول إليك في غفلة عن كل شيء، غفلة عن الضمير _في حال وجوده_ وغفلة عن الوطنية بأضيق حدودها، غفلة عن أي ملمح إنساني، هكذا يتسلل الإرهابيون، وينفذون جرائمهم بعيداً عن أية أخلاق إنسانية، بل هي أقرب إلى الوحشية.

فما جرى لعائلة السيد علي القادري بعد انتقالها من بلدة "الهامة" غربي مدينة دمشق، حيث أهله وأقرباؤه ومرباه، إلى حي عش الورور أحد أحياء السكن العشوائي في دمشق، حيث يقيم أهل زوجته وأقرباؤها؟

كان السيد علي القادري يظن أن حيّ عش الورور آمن، وأن أهل زوجته وأقرباءها يشكلون ضماناً لسلامة العائلة، أما الذي حصل يثبت أن لا أمان لأولئك المجرمين الإرهابيين سوى بتخليص البلاد منهم.

وحينما كان الأب السيد علي القادري في عمله، كانت الزوجة "مريم عباس ديب" تتهيأ لإحضار ما يلزم لعشاء العائلة الصغيرة، أما الطفلتان "سارة، وأمل" فسترافقان أمهما إلى سوق الخضار، وفي نيّة كل منهما شراء لعبة أو قطعة حلوى، وستصرّان على الأم لشراء ما ترغبان بشرائه، فالأم الحنونة لن تبخل على ابنتيها بشيء.

لم تكن الشهيدة مريم ديب على علم أن خروجها من البيت هو الخروج الأخير، والطفلتان لم تدركا أن ما تنويان شراءه سوف يحترق ويتحطم على الرفوف وفي واجهات المتاجر.

حتى الأب المكلوم لم يخطر في باله أن السيارة المركونة في سوق الخضار يتوقت انفجارها مع وصول زوجته وابنتيه إليها، ولا أحد يعرف لماذا يترصد أولئك المجرمون كل من هبّ ودبّ ليكونوا أهدافاً لهم، يترصدون الأمهات والأطفال، البشر والشجر، يترصدون فضاء الأمكنة ليملؤوها بسمومهم.

وبينما بدأت الأم بانتقاء ما يلزمها من خضار وفواكه، كانت الطفلتان تحدّقان إلى الألعاب في الواجهة، بينما كانت السيارة تبدو هادئة ومسالمة، وكأن سائقها ركنها في منطقة تكتظ بالناس ذلك اليوم لتحصد أكبر عدد ممكن منهم.

وفي لحظة بدت مثل دهر مثقل بالمصائب... انفجر المكان، وتحول إلى ساحة تعبث فيها النار، وينتشر الغبار وأشلاء الناس، عربات الخضار تحطمت، والشرفات تترنح، والناس يصرخون، وأصوات المعادن المتشظية يغطي الأصوات كلها.

(يا مريم... يا أم سارة... يا سارة... يا أمل..)

كل شيء بدا صامتاً في مسمع الأم وابنتيها، والكثير الكثير من الناس، بعض عناصر الجيش السوري الموجودين في المكان نقلوا الجرحى إلى مستشفى تشرين العسكري، وهو المستشفى القريب من مكان الانفجار، وهناك اكتشف الأب السيد علي القادري أن الحياة توقفت، وأن ما حصل هو نهاية الكون، كل ذلك قبل أن يستردّ وعيه، ويعود ليدرك بعد وفاة زوجته، وبتر ساق ابنته سارة أن الحياة قد حوّلت مسارها فقط، وأن الكون قد فقد بعض توازنه، لكنه لم ينته بعد.

الزوجة الشهيدة مريم عباس ديب لم تكتشف شيئاً، فقد سبق الموتُ الاكتشافَ، بقيت في العناية المشددة مدة أسبوع، لتغيب بعده عن هذه الدنيا، الطفلتان (سارة، وأمل) يتجدد اكتشافهما كل يوم، اكتشاف بدأ بتحطّم الأحلام الصغيرة أمام واجهات الألعاب، إلى اكتشاف معاني اليتم المتجدد كل صباح، فحين تغيب كلمة (ماما) يغيب كل جميل في هذا الكون.

- لماذا لا تتزوج ثانية يا علي؟

- ولماذا أتزوج؟

جواب في سؤال، جواب يلخّص بكل صدق الاكتشاف المريع الذي توصّل إليه الأب السيد علي القادري، فهو يرى كل صباح ابتسامة الزوجة على وجهي ابنتيه، ابتسامة تصرّ على استنباط الفرح من شلال الدموع البريئة كلّما ذُكرت أم سارة.

وفي المرآة الكبيرة، أمام الصبية الجميلة (أمل علي القادري) يجلس خيال الأم لتعطي رأيها وملاحظاتها في اكتمال الأناقة، أما الصبيّة الرائعة (سارة علي القادري) فغالباً ما تستغني عن عكاز ينوب مكان الساق المبتورة، لتستند متّكئة على الخيال ذاته، خيال الأم العظيمة التي غادرت أسرتها الصغيرة، وما زالت حاضرة في الأذهان والمنامات.

***

تاريخ الاستشهاد 2013/12/8

خريفُ تمّوز

جريمة في قرية الشبكي

من ريف السويداء

ليلة الخامس والعشرين من شهر تموز من عام ألفين وثمانية عشر ميلادي، كانَ القمرُ كبيراً تلك الليّلة، يشعّ نوره فوق تلكَ القرية، يناظرُ نفسَه فوقَ البركة وكأنّه يقفُ أمام المرآة؛ يُضيء تلك البيوت المتراصّة جنباً إلى جنب، وكأنّ الذين بنوها منذ سالفِ العصر قد أعطوا بعضهم ميثاقاً أمام الله أن يكونوا بنياناً مرصوصاً.

السّاعة قُرابة الحادية عشرة ليلاً، وصوتٌ غنائي بالكادُ يُسمع من أحد البيوت المتطرّفة للقرية :

(لنصب على العين خيمة وأنكر المايا... خويفْ ع بو عيون سود يقلب النيه)

أخذت غازية بالتجوال في الدّار، تدخل تارةً إلى المطبخ، وأخرى غرفة نومها، ثم تخرج إلى أرض الدار قلقةً، حائرة كانت، أفكارها مشتّتة لاحول لها أو قوة،أبوها المريض المُلقى على الفراش، والدتها المتعبة والمرهقة، انتظارها للنصيب الذي لم يأتِ بعد .. فالقطارُ قد فاتها، حسب ما كان يقال لها من بنات جيلها، فهي قد تجاوزت الأربعين من عمرها، قاربت السّاعة الثانية عشرة ليلاً، سمعت صوت والدها ينادي لها طالباً الماء، هرعت مسرعةً إليه وأعطته يشرب، لم يمضِ على خروجه من المشفى أكثر من ثلاثةِ أيام، فوضعه غير مستقر كثيراً، أخذ الماء منها وحمد الرّب على نعمهِ بصوت مثقلٍ بالحنين والألم:

- أين أمك؟
- نائمة، فهي متعبة قليلاً من أعمال المنزل.
- إخوانك أين هم ؟

- هل أتي بهم يا أبي؟

يُومئ برأسه بالإيجاب:

- بالحال سوف يكونون هنا.

ذهبت تنادي أمّها وأخاها مشرف، وهو أستاذ في مدرسة القرية، ملتزم دينياً ، يتبرع بثُلث راتبه، تجاوز الخامسة والأربعين من عمره ولم يتزوج بعد. ثم نادت لأخيها أنيس الأصغرِ منها وهو متزوّج، يسكن في منزلٍ مستقل. لا يبعد منزله أكثر من عشرين متراً عنهم. استجاب أنيس لنداء أختهِ وقام يمشي يتأمل أرض الدار، يصعد الدّرج المؤدي إلى المضافة، إحدى عشرة درجةٍ يخطوها بسرعة، يدخل المضافة المبنية من الحجارة السّوداء الصلبة ذات القناطر الثلاثة وخابية ماءٍ مصنوعةٍ من الصّخر باردة صيفاً ودافئة في الشّتاء، وإلى اليمين أدوات القهوة المرّة من دِلالٍ نُحاسية ومطحنة كهربائية للبُن ومهباجٌ خشبي قديم لم يعد يُستخدم منذ زمن. . وراديو قديم وعدّة مفكَرات لتدوين الأحداث اليوميّة.

وفي صدر المضافة صورٌ لشهداء وقادة ورجالُ دين، وراية كبيرة مطرّزة مرسومٌ عليها النسر العربي، يعود تاريخها لمعارك الشّرف إبان الاحتلال العثماني والفرنسي، كان يحملها المجاهدون والثّوار من هذه العائلة للدلالة على المشاركة، وكان من يحملها يُسمّى (حمّال البيرق) أبو ناصر يتوسّط المضافة على فراشٍ صوفي، وحوله أم ناصر تردّد بعض الآيات القرآنية التي حفظتها في صغرها على مسامعه متمنية الشّفاء العاجل له، فهو عامود الدّار وسندها، مشرف على الجانب الآخر يتلو بعضاً من الكتاب المقدس، لتهدئة النفوس على حسب ما كان يذكر. غازية تشرب الماء وترقبُ الجميع بعين العطف والقلق لما يحدث، وماذا سيحدث، فالوضع خطرٌ جداً ، فهي تخاف المرض وتخاف السّماع لأنين المرضى وتخاف الموت وتخاف أن تتقدم في السّن. أنيس يُمسك يد والده يقبلها ويضمّها إلى صدره. يبتسم وجه "أبو ناصر" بابتسامةٍ مُثقلة بالدّموع، فعلى الرغم مما كان يحدث سابقاً بينه وبين أنيس من مناقشات وإحراجات أمام الناس فهو يحبّه. نظر إلى عيني أنيس، وذاكرته بدأت تسبَح نحو الماضي، فعندما وُلد أنيس كانت فرحته لا توصف، فمن الوهلة الأولى بدت على وجهه

ملامح الشّهيد أنيس ابن إبراهيم، الذي استشهد في فلسطين المحتلة في تل العزيزات عام ألف وتسعمئة وثمانية وأربعين، فسماه على اسمه. حتى إن مدرسة القرية قد سُميت فيما بعد باسم الشّهيد أنيس إبراهيم الجباعي، فزاد حبه لابنه أكثر شدّ يده على يد ابنه أنيس، وبدأ يستذكرُ أحداثاً ماضية، ويذكر مناقبَ رجالٍ من القرية، منهم عطا والمجاهد متعب وقفطان، ورشراش الذي أتى برسالة من الأردن من سلطان باشا الأطرش إلى جاد اللّه سلام إبان الثورة السورية الكبرى ضد المستعمر الفرنسي. حديثٌ اعتاد على تكراره أمام الآخرين تخليداً لذكرى الماضي.

تجاوزت السّاعة الواحدة والنّصف ليلاً، وهو يتحدث بهذه الذكريات من باب التماسك الاجتماعي واللُحمة الأُسرية. أخذ آخر أنفاسه ناطقاً كلماته المعتادة (خليكن سوا يا با) ولكنّها كانت الأخيرة مودعاً الحياة ليلاقي وجه ربّه الكريم.

صرخت أمّ ناصر، وهلعَ الجميع وخيّم الحزن عليهم، قد مات كبير العائلة ذهب مشرف لمناداة السّائس، وهو شيخ القرية الشّيخ أبو نزير واعظ ديني وشيخ تقيٌّ ورع، اختاره أهالي القرية لتنظيم بعض الأمور الدينية عند الأفراح والأتراح. ناداه مشرف ليقوموا بتغسيل أبيه وتكفينه والصّلاة على جثمانه وتلاوة بعض السّور القرآنية، منتظرين الصّبح لينبلج كي ينعوه لأهالي القرية.

أنيس يتجول أمام فسحَة المضافة ذهاباً وإياباً، ينظر إلى ساعته وقد تجاوزت الثّالثة ليلاً، فقد أخبر زوجته وعمّته وزوجها، وينتظر مجيئَهم، فهو قلقٌ يفكرُ بالأمور المتعلّقة بالوفاة وكيف ستجري، ينتظر الصبح ليخبر باقي إخوته وأهل القرية والقرى المجاورة، فالعادة تجري هكذا هنا.

سماعٌ لصوت إطلاق نارٍ كثيف قادم من اتجاه الشّرق، ينصت أنيس السّمع ليعرف مصدر صوت إطلاق النّار، وإذ به يقترب أكثر وأكثر، تخرج أم ناصر وغازية، تسألان عن سبب إطلاق النّار، إنه قريب جداً يا أنيس، الصوت من اتجاه المدرسة من الأعلى، تقول أم ناصر:

- نعم، يا ساتر يا رب ما الذي يجري؟

يقول أنيس:

- ادخلوا إلى المضافة، سأعود بعد لحظات.

ويهمّ أنيس مسرعاً باتجاه المدرسة، يتجاوز درج الحيّ المؤدي إلى المدرسة ليصبح على بعد أمتارٍ منها، يقف خلف جدارٍ لأحد المنازل فلا يرى سوى رايات سوداء، يحملها أشخاص يطلقون النار في كل الاتجاهات، خفقَ قلبه: "داعش" يا ساتر يا رب. لم يعد يعي ماذا يفعل "داعش" !! تصبّبه العرق، يبست شفتاه وجف لعابه، ولم يستطع نطق أي كلمة. تراجع مسرعاً إلى منزله، تفتح زوجته الباب وهي تصرخ وتبكي:

- أنيس ما بكَ؟ ما الذي يحصل في الخارج ؟

- اغلقي الباب، وضعي خلفهُ أي شيءٍ ثقيل، ولا تفتحي لأيّ يكنْ.

على عجلةٍ من أمره يعطي البندقية لأخيه مشرف قائلاً له أن يبقى داخل المضافة، وألاّ يخرج مهما حدث، ليحمي أمّه وأخته وأباه المتوفى. تمركز أنيس عند بداية المدخل المؤدي إلى المضافة، لم يكن حامياً ظهره بشكل جيد فالمكان غير ملائم جداً. وبدأ الرصاص بالهطول من كل حدب وصوب، أعداد هائلة من هنا وهناك تتهافت بين أحياء القرية. نصبَ أنيس الرشاش على حافة الجدار والعرق يتصبب منه واضعاً يده على الزناد، ومصوباً إلى الطريق القادم من اتجاه المدرسة، وهو يسمع أصوات النساء وصراخ الأطفال ونحيب الثكالى، فالإرهابيون يقتحمون الدور ويذبحون كل من يخرج أمامهم، ضغط على الزناد وأطلق النار بكثافة، وسمع أنين أحدهم يرتمي على الأرض، يتابع إطلاق النار بشكلٍ كثيف، ليقتل منهم، وينبّه أهل القرية جميعاً لما يحدث، ما زال متمركزاً يصوب ويقتل فيتنبهون ويتفرقون باتجاهات مختلفة، ويطلقون عليه الرصاص فيصاب بأول طلقةٍ سامّة في ذراعه، فالرصاص الذي كانوا يستخدمونه مطليّ بالسُمّ، ناخرٌ للعظام. يبقى أنيس مقاوماً بعض الشيء، يتلقى رصاصةً في زنده، تلاحقها أخرى في أعلى صدره كان مستقرها. يخرُّ صريعاً على الأرض، يبصق الدم من شدة الألم سابحاً بدمائه، يتنفس الصعداء مجبوراً فقد خارت قواه ولم يعد باليد حيلة، غاب عن الوعي، بالكاد يسمع وقع أقدامهم، يدوس أحدهم على ظهره (هذا الكلب الذي كان يقاوم) بئس مصيره.

خذوا عتاده كاملاً. . يدخل في غيبوبة عميقة، على ما يبدو إنها سَكرَات الموت، وكأنه سابحٌ في السّماء، مستذكراً تفاصيل حياته منذ أن وُلد حتى تاريخِ اللّحظة، وكيف أسموه "أنيس" محبّة بالشهيد أنيس ابن إبراهيم، إلى أن كبر وتعلم في مدرسة القرية، وكيف ترك الدراسة وسافر إلى ليبيا ليعمل هناك، حيث دام مكوثه أكثر من عشرة أعوام. بعدها عاد إلى بلده والتحق في صفوف الجيش العربي السوري، ليؤدي الخدمة الإلزامية، وكان الأول في الرياضة ضمن دفعته، وما إن انتهى من الخدمة الإلزامية حتى قامت الحرب على سورية، فعاد والتحق في صفوف الجيش، وتنقل في فصائله وفي كل إجازة كان يأتي بها مدة ثمانٍ وأربعين ساعه تَذرف دموع اللقاء ودموع الوداع ابنته الصغيرة ذات الأربع سنوات ... كل هذا كان يجول في رأسه وهو منهار القوى طريح الأرض، لا يريد الإهانة والذّل. يصعد الإرهابيون إلى المضافة، يضربون الباب بأقدامهم ويقتحمون للدّاخل دون أي مقاومةٍ تُذكر.

- اخرجوا إلينا ...

يخرج مشرف دون السّلاح وقد خبأه داخل المضافة، لم يكن جباناً ولكن حرصاً على من كان معه، أراد التّحلي بالصبر والتفاهم معهم بشكل سلمي وأخلاقي ... يخبرهم أن أباه قد مات منذ ساعتين. يدخل أحدهم ويطلق النار داخل المضافة على الجدران والأثاث وأدوات القهوة لإرهاب المتواجدين هنا. يبدأ أحدهم الحديث مع مشرف:

- ما اسمك؟ ما هو عملك؟ لماذا ترتدي هذا على رأسك؟!

كان وجهه يقطر سُمّاً، عاقداً حاجبيه، يلفظ الكلام وكأنه ينفثُ النار من شدة الغضب. يجيبهم مشرف ضمن منطق التربية والأخلاق كيلا يغضبوا أكثر فيفتعلوا شرّاً بمن في الداخل.

تأتي هناء وهي ابنة العمّة مسرعة خائفة، شعرها يتناثرُ في الهواء، والدّم يسيل من فمها، تريد الاختباء عند منزل خالها هرباً ممن اقتحموا منزلهم أيضاً، وما إن صعدت أول درجة حتى لقيت حتفها برصاصةٍ مزّقت جسدها... ويتابعون حديثهم وكأن شيئاً لم يكنْ.

كظمَ مشرف الغيظ في كبدهِ لما حدث، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ... أحدهم تحدث إلى مشرف:

- سنأخذك معنا !!! أنتَ جيد وكلامك لابأس به، وتفقه بأمور الدين.

هنا تخرج أم ناصر من المضافة غاضبةً، بينما بقيت غازية مختبئة داخلاً تحت خابية الماء، منطوية على نفسها، فالمكان ضيق جداً. كيلا يراها أحد، تستمع للحديث بقلقٍ وخوفٍ شديد. تصرخ أم ناصر:

- ابتعدوا عن الصبي، ابتعدوا عنه لماذا انتم هنا؟ ماذا تريدون؟

"تجهش بالبكاء":

- من أتى بكم إلى هنا !!! ارحلوا هيا ارحلوا. .

بتهكمٍ يجيبها أحدهم:

- جئنا ننصر دين الله يا امرأة.

يجرون "مشرف" من يده ليأخذوه، أم ناصر تضرب بكلتا يديها على صدره دافعةً إياه للخلف كيلا يأخذوه. مقاومة بسيطة من امرأة تجاوزت الخامسة والستين من عمرها، أبت الذل ورفضت أن ينالوا منها ومن ابنها، لكن رصاصات الغدر كانت أقرب إليهما. فقد قتلا معاً بأكثر من عشر رصاصات لكل منهما من الرأس حتى أخمص القدم. تمتزج فسحة المضافة المرصوفة بالحجارة البيضاء اللون بالدماء ... يدخلون المضافة مرة أخرى، ويطلقون النار، غازية بقيت مختبئة دون أي حراكٍ، قلبها بين قدميها لشدّة الهلع.. تحاول حبس دموعها كيلا تصدر صوتاً.. مصيبة على رأسها خيمت، أبوها المتوفى، إخوانها وأمها وابنة عمتها فوق الأرض العطشى يَرونَها، سماعها لأصوات صراخ الأطفال ونحيب النساء، وأصوات جلبة تنذر بالتراجع، لم تفهم شيئاً من هذا الذي سمعته، إنه صوت جماعات من الرجال يحيطون بالقرية، أتوا، كما يزعمون، تلبيةً للنداء لنصرة المدنيين والأبرياء.

السّاعة تقارب التاسعة صباحاً، مناورات عسكرية، كرٌّ وفرّ، سيارات الإسعاف والمنقذين ينقلون الجثث إلى السيارات، ويبحثون ما بينها عمن ما زال على قيد الحياة.

أكثر من ثمانين جثة نُقِلت إلى قسم العناية المشددة، وأكثر من سبعين جريحاً أيضاً كانوا هناك. والمشفى يغصّ بالجرحى وبدماء الشهداء، وأشخاصٌ هويتهم قد أصبحت مجهولة، ولم تحدد حالاتهم بعد.

أنيس يفتح عينيه فلا يرى إلا سقف الغرفة، وسماع أصوات العويل حوله، ينظر إلى جانبيه يرى الأسرّة ممتلئة بالأطفال والنساء والرجال ممن أصيبوا بالمعركة. يذرف دمعتين، ينظر إلى يدهِ ثلاث إصابات بليغة ووجهٌ شاحب، وجسم نحيل، وأب وأم وأخ في عداد الشهداء، وابنة عمة مرمية على جانب الدرج، وأخت بائسة وزوجة وطفلتان لا يعلم عنهن شيئاً، وحالٌ يرثى له، وعجزٌ كبيرٌ كبير أمام الحياة، ورغبة بالثأر وتمنى الموت، الشهادة، تلك اللحظة، مردداً بهمسٍ غير مسموع:

(آه.... آه ... يا إلهي .. وا حسرتاه لما حصل)

أغمض عينيه ونام الحزن فيهما.

ـ صوت في بهو المشفى ينادي بالتكرار عدة مراتٍ:

ـ أين الشهيد الحي أنيس توفيق الجباعي؟

استيقظ على هذا الصوت، تتكرر الكلمات أين الشهيد الحي، أين البطل؟ كانت الساعة الثامنة مساءً. إنه صوت لأحد الرجال الذين لبوا نداء الفزعة؛ يقول:

ـ إصاباتك وسام على صدورنا، وشرف لكل من قاوم ودافع أيها البطل، أكثرت من قتلهم، دافعت عن أهلك وصمدت في وجه البغاة، كنت الأول ممن دافعوا لنصرة الحق. لا تحزن إن الله مع الصابرين يا بن الشهداء وحفيدهم.

التفت أنيس إلى الشيخ ليشكره على طيب كلامه وثنائه فلم يجده. ينظر إلى النافذة فيرى القمر كبيراً، لونه أحمر، وكأنه اصطبغ بدماء شهداء القرية، وفي مسمعيه كلام والده :

"خليكن سوا يا با".

- ها نحن سوياً يا أبي، أكثر من ثمانين شهيداً ارتقوا للعُلا يا أبي: (أمي، أخي، عمي منصور، فرحان، ريدان، ناظم، سلمان، هناء، نوال، سناء، ضحى،

خالد وزيدون) والكثير يا أبي كلهم رحلوا سوياً.. حتى جرحانا على الأسرّة يتعاضدون سويّاً يا أبي.

اغرورقت عيناه بالدموع، وفي قلبه غصة، وعلى صدره ثلاثة أوسمة، والكثيرُ الكثير من الفخرِ والأنفة.

***

مرح والفستان الجديد

حكاية الشهيدة مرح نادر الصباغ

جرمانا ـ ريف دمشق

ودعت صبا رفيقة الدراسة، مرح نادر الصباغ، بعد أن وصلتا إلى مفترق الطريق الذي يفصل بين حارتيهما، قالت مرح وهي تمسك بيد والدها:

- غداً نلتقي يا صبا في المدرسة، وسأفاجئك بما سأشتري.

ولوحت بيدها لصبا التي ذهبت إلى منزلها في الحارة المجاورة، وعند باب بيت مرح، كانت أمها (سهى الأوس) تهم بالذهاب إلى السوق لإحضار بعض الحاجات الضرورية، رغم القذائف التي تنهال على مدينة جرمانا في هذه الفترة، لكن الناس أصبحوا غير مبالين بالقذائف، وهذا ما أذهل الإرهابيين والخونة، واعتقادهم بأن الناس سوف يهابون الموت.

يقول والد مرح إن ابنته أصرت على الذهاب مع أمها إلى السوق رغم اعتراضنا أنا ووالدتها، لكنها كانت بشقاوتها، وعذوبة كلامها، قد أقنعت أمها بالذهاب، وتقول لها:

- لا أريد أن يسود وجهي أمام صبا، فقد وعدتها بشراء قميص لي وقميص آخر لها، بنفس اللون والحجم، وغداً سوف أفاجئها به.

يقول والد مرح:

- ذهبت مرح مع والدتها من أمام المنزل، ولم يبتعدا أكثر من خمسين متراً، وكنت ما أزال أراقبهما بقلب مقبوض، وكأنني أشعر أن أمراً ما سوف يحدث، كنت أراقب "مرح" وهي توزع ابتساماتها البريئة، وكأنها عصفورة تغرد للحياة، وهذه كانت عادتها الدائمة، لا تعرف الحزن والكآبة، حتى باتت مصدر فرح للبيت كله، كانت اسماً على مسمى، وأتت القذيفة من الأفق

الشاحب فوق الأبنية، وكأنها أتت لتحرق تلك الشجرة التي مرت من تحتها مرح وأمها، ليسقطا مع كثير من البشر في تلك اللحظة في ساحة الوحدة، حيث نسكن، رأيت المشهد أمام عينيّ، وسقط قلبي من بين أضلعي، وركضنا باتجاه القذيفة التي حصدت الأرواح، وأذكر آخر عبارة لفظتها مرح: (لا تنسوا الحلوى والقميص لصبا).

وراحت في غيبوبة أبدية.

لم تكن سهى زوجتي قد فارقت الحياة بعد، ونقلنا المصابين كلهم إلى المشفى، لكن "مرح" كانت قد فارقت الحياة من اللحظة الأولى لنزول القذيفة، وزحف الليل مسرعاً إلى الأحياء في جرمانا.

والدة صبا تقول:

- كانت صبا تقف معي أمام النافذة، واذ بصوت محزن يداهم مسامعنا، حاولت أن ألهيها عن صوت المنادي الذي أكد على استشهاد مرح الصباغ، صديقتها الأغلى لكنها وبعدما سمعت صوت المنادي قالت:

- أمي، أسمعتِ؟ لقد ماتت مرح.

وانهارت تماماً لسماع الخبر وهي تبكي وتنتحب لهذا الخبر الصاعق، وأسرعت تهبط الدرج، وأنا أستوقفها محاولة تكذيب الخبر، وبقيت تركض في الحارة حتى وصلت بيت مرح الذي كلله السواد والبكاء، وأمام باب المنزل، كان يقف والد مرح الذي كان يبكي بألم وحرقة. فسألته صبا، والدموع تنهمر من عينها كشلال:

- أصحيح ماتت مرح يا (عمو)؟

نظر إليها السيد نادر الصباغ، والد مرح، وأجهش ببكاء تتقطع له شرايين القلوب:

- أجل يا صبا، ماتت مرح، أخذتها القذيفة الغادرة بعد أن ودعتك في الحارة، ستذهبين وحيدة إلى المدرسة، من دون مرح، ليتني تركتها في المدرسة ولم آت بها إلى المنزل لتلاقي موتها هنا أمام عيني.

وتتابع والدة صبا:

- كانت ابنتي صبا تبكي وترتجف، وقد أبكت معها كل أقارب مرح، وإخوتها، ثم اتجهت إلى صالون المنزل الكبير الذي أُعدّ لاستقبال المعزّين، ورأت صورة مرح بجدائل شعرها الطويل، وابتسامتها المشرقة، واقتربت منها بهدوء وهي ترتجف، أمسكت الصورة الكبيرة واحتضنتها بقوة، والبكاء يقطع شغاف قلبها، وراحت تكلمها بعتب جارح:

- لماذا نقضت العهد يا مرح؟؟ ألم نتعاهد على البقاء معاً حتى نكبر ونشيخ؟؟ ألم نتفق على الذهاب في العطلة إلى السويداء، لنقضي عطلة جميلة في جمال ربوعها؟؟ من سيزرع معي الياسمينة التي تعاهدنا على زرعها معاً أمام باب منزلكم؟ هل كل شيء انتهى يا مرح؟؟ ومات معك الفرح؟ لتبقى هذه الصورة التي كتب في أسفلها تاريخ رحيلك؟؟

وبحزن وأسى كبيرين تتابع والدة صبا:

- مرت ثلاثة أيام، وأنا وابنتي صبا ملتزمتان بالعزاء مع أهل مرح، وقد رحلت والدتها في اليوم الثالث لعزائها، في 2014/4/17 ومرح قبل ثلاثة أيام أي في 2014/4/14 وكنت أصطحب ابنتي صبا محمد الخضر إلى منزل مرح يومياً، لأن صدمتها كانت قوية بصديقتها مرح التي كانت رفيقتها أيضاً في المرحلة نفسها، مقعد الدراسة نفسه، وكلما عدنا إلى المنزل، كانت تحدثني عن مرح التي كانت تزرع الفرح بين الشوارع المليئة بعرائش الياسمين، وكيف كانتا تقطفان الياسمين، وتزرعان الشوارع بالضحكات والفكاهات، فقلت لها:

- إن مرح صارت بجوار ربها، بين الأشجار الوارفة، سعيدة مع أمها، وصار لها أصدقاء جدد يحبونها مثلك، قالت صبا:

- سأظل أزور أهلها دائماً، ولن أنسى "مرح" ما دمت حية، إلى أن أعود إلى بلدي التي هجرنا منها، وسأبقى على عهدي معها، وأخلص دائماً أبداً لبلد الياسمين.

***

وعد الرجال

حكاية الشهيد الأديب علي أحمد عبد الله

من محافظة القنيطرة

آه يا علي، ثم آه يا علي

آه من دفء القلب الذي نسيته معكما، ونبض الروح التي شعرت بها وهي تتسل مني ذات غفلة، وكأنني غدوت في ليلة مظلمة هجرتها كلّ أقمار الدنيا.

تذكر الآن جيداً ذلك الوقت الذي كنت فيه وحيداً، تقابل جهازك المحمول وسط غرفتك المستأجرة في حي التضامن الدمشقي، كنت لحظتها تفكر في أمر تهجيرك القسري، والدرب الطويل الذي قطعت، والموت الذي حفّ بك، وتخطاك ثلاث مرات في السابق.

يتصارع الصوت مع رائحة الفجيعة الممتزجة مع ونين الذكرى، والوجع في داخلي، فيغلب ذاك الذي لا يريد أن ينسى أي شيء، ويصر ألا يترك ولو تفصيلة صغيرة، فأطاوعه، وأنقاد لرغبته ولما يريده مني، حيث أهز رأسي، وأقول:

- حاضر. هدئ نفسك ولا تدع الألم يسيطر عليك.

سمعت نقراته الخفيفة يومها على شباك النافذة المطلة على الشارع، كانت تشبه خربشات العصافير العائدة، يحملها الشوق إلى موطنها بعد طول غياب، لحظتها عرفت أن صديقي الشاعر وموجه اللغة العربية في مدينة إزرع (علي أحمد طلب) قد وصل، ذاك الرجل الذي عاد من الكويت مع أول الأحداث، وهو يردد جملته باستمرار:

- سأدافع عن سورية ولو بالكلمات.

لقد كان رجلاً حقيقياً، لا يهاب المغامرة ولا يخشى عواقبها.

لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء مني، فقد تم تأجيل هذا الموعد لأكثر من مرة فيما سبق، وليس لي في هذا الحي الدمشقي من أحد يدق على هذه النافذة سوى صديقي الروائي علي أحمد العبد الله، الذي نقلني من سكني في مدينة جرمانا، واستأجر لي هذه الغرفة، لأكون قريباً من منزله، ولا بد أنه الآن في مبنى اتحاد الكتاب العرب، أو في مكتب اتحاد الناشرين.

سهرنا معاً البارحة حتى وقت متأخر، وأخبرني عن عزمه طباعة رواية جديدة، جمعني معه البعد، والنفي، والحرمان، ووحدتنا الغربة، فهو قد هرب من "كحيل" أو الريف الشرقي للجنوب، وهربت أنا من "معرية" أو الريف الغربي، ثم جاءت الكتابة لتجعلنا لصيقين حدّ التماهي. نتناقش، نختلف، ونتخاصم، ونصل للسباب، ونعود بعد ذلك كلّه، لنتعانق من جديد، حيث نقفز فرحاً حين نصوب الخطأ، أو نخرج بفكرة جديدة.

فتحت الباب لصديقي القادم من قرية " قرفا" وكانت علامات التعب بادية عليه، حيث طلب بعد أن صافحني أن يغتسل، ريثما أكون قد جهزت له الطعام. لم يغير عادته أبداً، فهو متعجل في كلّ شيء. يريد أن يأكل بسرعة، وأن يكتب متلهفاً قصيدته، وأن يتابع عمله في التوجيه، وأن يتحدث عن الحبّ، ثم ينام وهو يستمع إلى دروس العربية، أو يراجع دروس الإنكليزية التي أتقنها، وأراد أن ينتقل للفرنسية من بعدها، حيث كان بحق عالماً ومتعلماً في الآن ذاته، وكثيراً ما لمت نفسي على ما حدث، فأنا أجلت الموعد إلى هذا الوقت، وقد قلت أكثر من مرة لصديقي علي:

- لدي نص أقوم بكتابته الآن، ولن ينتهي إلا يوم الأحد.

حكايتي معه حكاية طويلة وقديمة، حيث بدأت مع شقيقه "محمد" قبل الأحداث بمدة غير قليلة، ثم تطورت، ليكون كلّ فرد من العائلة صديقي وأخي، ويصبح والده بمنزلة والدي، وكذلك والدته. كنا نتزاور ولا نكاد ننقطع عن بعضنا، وعندما خفت على نفسي ممن حملوا السلاح ضد أوطانهم هربت إلى قريتهم، وسكنت عندهم شهوراً عديدة قبل أن أتوجه إلى العاصمة.

تناولنا الطعام، وبالغنا فيه حدّ التخمة، وحين رجع صديقنا علي العبد الله من مشواره رفض قطعياً أن يضع في فمه لقمة واحدة، وقال إنه سيوفر شهوته للطعام لوقت المساء في ذاك المطعم الفاخر، الذي دعينا إليه، وأنا تعبت من مخاطبة أحدهما، ليرد عليّ الآخر بدلاً منه، لذلك قررت أن أدعو علي العبد الله، (بالكحلاوي) وعلي طلب (بالقرفاوي) نسبة إلى بلد كلّ منهما، وليطلقا عليّ بدورهما لقب (المعراوي) بدلاً من اسم محمد الحفري.

- 2 -

التصق تاريخ ذاك اللقاء في بالي، وأصبح مع مرور الوقت تاريخاً شخصياً، يخصني وحدي من دون غيري من البشر، وما حييت لن أنسى يوم الأحد الواقع في 7/24/ 2016م حيث هاتف الدكتور ناظم الغزالي صديقي الجالسين معي في الغرفة، يحثهما من أجل أن نسارع، ونذهب إلى حيث ينتظرنا مع ولديه في مطعم (قمر الشام) في باب توما، أحد أحياء مدينة دمشق.

حاولت يومها المماطلة، لاعتقادي أن إطلاق القذائف يتوقف مع حلول المساء من جهة، ثم أن الجوع لم يمسسني بعد من جهة أخرى، لكنني في نهاية المطاف استجبت لرغبة صديقي، فقد كنت محكوماً بحبهما، تدفعني الرغبة لتجريب ما يقدم في تلك الأماكن الفخمة، بعيداً عن الزعتر والزيتون والفلافل التي نشقى للحصول عليها، شأننا في ذلك كشأن الفقراء من أمثالنا.

في ذلك العام، كانت الحرب قد زادت ضراوة، واشتعل أوارها إلى حدّ لا يوصف، ودمشق العاصمة التاريخية لم تستثنَ من ذلك، وكأن الغاية منها تدمير كلّ شيء، ومع ذلك تناسينا خوفنا وحذرنا فور وصولنا إلى ذلك المكان الجميل، ولقائنا مع صاحب الدعوة الكريمة، حيث رحنا نتمازح، ونتناكف كعادتنا، وعندما نفدت السكائر من صديقي الكحلاوي كان شرطي أن أبيعه كلّ سيجارة بمبلغ قدره خمسمئة ليرة، فوافق وضحكته تجلجل رقة وعذوبة.

أتذكر كلّ شيء الآن، ولا يمكن لي في لحظة من اللحظات أن أنسى دموعه وهي تنسكب غزيرة على وجنتيه، وذلك حين عدنا معاً في وقت متأخر من الليل، وأصر أن يوصلني إلى غرفتي، وعندما شكوت له من الجوع الذي يمزق أمعائي، راح ينتحب ويرتعش، وهو يسند رأسه إلى شباك نافذة الغرفة، وبعد أن نهنه البكاء، وحرقتني دمعاته سألني:

- هل يعقل أن تجوع وبيتي قريب من هنا؟

تذكر كيف تعانقتما في ذلك الليل، وكيف اعتذرت منه بليونة ورفق حتى لا يغضب منك، فأنت تعرف أن ما في بيته لا يكاد يسد رمق أفراد الأسرة، وكثيراً ما كنت تتعفف وتأكل بضع لقيمات حين يدعوك لتناول وجبة الغداء في بيته، خشية أن تجور بطعامك على حصة بناته الست، وزوجه ووالدته العجوز، وكانت أغلب تلك الوجبات مؤلفة من البرغل، مع الحمص، أو شوربة العدس مع الخبز، وعلى الرغم من قلة ذات اليد فقد كان الكحلاوي رجلاً، وكريماً بما تعني تلك الكلمة، كان غالباً ما يروي لنا كيف ترك بيته وأرضه تحت جنح الظلام بعد أن تعاظمت سطوة المسلحين على المنطقة، حيث حمل والدته على ظهره، واقتادت زوجته بناته الصغيرات، وساروا مسافة طويلة مبتعدين عن الخطر الذي يهدد حياتهم بعد أن ارتكب القتلة أكثر من جريمة بشعة بحق أفراد عائلته ومعارفه وأصدقائه، ويومها وجدوا عند وصولهم إلى الطريق الدولي حافلة ركاب نقلتهم إلى العاصمة دمشق.

كانت حكاياتنا جميعاً تكاد تكون متشابهة، مثل حكايات السوريين بشكل عام. تسخر من نفسك أحياناً على ذلك التشبيه، ولكنك مع ذلك كنت تراها، كما الكثير من أصدقائك، طريقة مناسبة للصمود وتجاوز المرارة، وليس من سبيل لقهر تلك الخيبات التي مررنا بها سوى بالسخرية منها، وكنا لأجل ذلك نطلق النكات ونضحك بدلاً من البكاء، وكنا نتندر على بعضنا، وعلى تصرفاتنا وحتى على خوفنا في بعض الأحيان.

- 3 -

حين عدنا لجديتنا قال القرفاوي إنه سيعود معي إلى بلدتي معرية "العلم" عندما تتحرر من يد الإرهاب، وسيشعل نرجيلته، ويجلس بين زيتوناتنا، ويأكل من شجرات التين والصبار التي تسور أرض منزلنا، والتي يشتاق كثيراً لطعمها، ثم رحنا نتحدث عن بيض بلدي، وسمن، وعسل، وحمام مشوي وملذات أخرى حرمنا البعد عن بلداتنا منها. شغلنا موضوع الطعام في تلك الآونة بسبب الحصار، والحرب التي قلت فيها الموارد، ولا زلت أذكر أنه لم يكن في غرفتي المستأجرة من طعام سوى وعاء فيه كمية من الزيتون الذي كان طعامي الوحيد مع الخبز لشهور عدة ريثما تدبرت أمر السكن، والعمل في مدينة دمشق.

كان صديقنا الكحلاوي في تلك الجلسة قد غير رأيه، وقرر أن يرافقنا في عودتنا المأمولة تلك قبل أن يعود إلى بلدته كحيل، لنستمتع هناك بمنظر وادي اليرموك، ولنقف على الشفا الشمالي، ونراقب وادي الرقاد، ومن خلفه أرض الجولان. كان الشوق يحرقه للعودة إلى "كحيل" بلدته الساكنة في روحه.

صوت القذيفة التي سمعنا ارتطامها في الشارع المحاذي خفف من حماسة أحاديثنا، وخاصة حين طلب الدكتور ناظم من ولديه الدخول إلى القسم المسقوف من المطعم. لكنه لم يكمل كلامه فقد سقطت علينا القذيفة التالية.

أذكر أن الزجاج قد تهشم بشكل مفاجئ، وأن شيئاً ما قد دفعني لأطير من مكاني، ويطير عقلي من الألم. هي لحظة واحدة سمعت فيها شخير الموت الذي صدر من الكحلاوي الجالس إلى جانبي، وهو يسقط من فوق الكرسي.

فتحت عيني بعد إغماءة قصيرة، فوجدت الدخان يملأ المكان، شعرت بالاختناق. حاولت النهوض، ولم أستطع، لكن حلاوة الروح دفعتني كي أزحف، وأصل إلى الشارع حيث تمددت هناك، وأنا أردد من شدة الألم:

- أسعفوني... مات علي.

في المستشفى الفرنسي كنت أطلب متوسلاً المسكنات كي يخف عني الألم الذي انتشر مثل نار كاوية من أخمص قدمي حتى قمة رأسي، وكانوا يطلبون

مني الصبر، لأن إصابتي هي الأقل بين الجميع، فقد دمر المطعم بالكامل والناجون هم قلة، وأنا واحد منهم، لذلك تم تأجيل العمل الجراحي الذي سيجرى لي إلى ما بعد منتصف الليل، وبعد خروجي من العملية عرفت أن الكحلاوي قد غادر هذه الحياة قبل أن يصل إلى مشفى المجتهد، بينما أصيب الدكتور ناظم وولده الأكبر بجروح خطيرة، وأخذ الموت ولده الأصغر أسامة.

راودنا الأمل أن ينجو القرفاوي، لكنه انطفأ، حين رحل في اليوم التالي متأثراً بجراح ونزوف داخلية، لم يستطع الطب أن يوقفها.

ـ 4 ـ

أيام عصيبة قضيتها بين الصحو والغيبوبة حزناً على سنابل القلب التي انحنت، وغيبها الموت عني، وحين ينام الناسكان صديقاي يدوران حولي، والأكف ممدودة لكي أنهض، وكنت أعاتب الموت لأنه نسيني، ولم يأخذني. هناك شيء أحسبه يتفجر في رأسي. كنت أغضب، وأبكي وأغني، وأضحك، وأصرخ من الوجع، وحالة من فقدان التوازن سيطرت علي لشهور طويلة، وفي الروح حزن لا يضاهيه حزن، ووجع يكاد يطير جسدي، ويقتلع روحي من مكانها، ولو أنني أحسبها قد اقتلعت منذ تلك الحادثة الفاجعة.

لم أصدق أن الموت قد فعل ذلك. كأننا يومها اجتمعنا للوداع، وكأن القدر قد رتبنا ورسمنا في تلك الصورة التي أخذناها معاً ذات مرة في تلك السهول الفسيحة.

كانت تلك هي المرة الرابعة التي أنجو فيها من الموت، حيث خرجت بجروح، توسدت روحي، وخمسة كسور فقط، وأوجاع لم تتوقف فيها آهاتي حتى اللحظة، ومع ذلك قرأت، وكتبت، وأرسلت مواد لصحيفة الأسبوع الأدبي، والموقف الأدبي، وتشرين، والآداب العالمية، والحياة المسرحية، وقدمت لمجموعة قصصية، ومجموعة شعرية، وبمتابعة من الأصدقاء صدرت روايتي جنوب القلب.

ثمة حزن لا يضاهيه حزن، وثمة كلمات لا تكفي للتعبير عما يلوح في داخلي. حروف تراوغ، وترتعش معها الأصابع حين يذكر الأصدقاء الرائعون، والمؤمنون كلّ الإيمان بزوال الغمة، وانتصار الوطن.

كنت أريد أن أخبر علي العبد الله أنني افتقدته، ورحلت عن المكان الذي كنت أحبّه، لأنه لم يعد يسكن فيه، ولم تعد تجمعنا السهرات مع زوجه السيدة "هناء" وطفلاته" نبال، وناريمان، وإيمان، وإحسان، وسميرة، وصفاء، ورتاج " ووالدته الموقرة "أم علي" التي بقيت على صدمتها من دون أن تبكيه لعدة أيام، لأنها لم تصدق ما حدث.

وكنت أردد اسمه كما لو أنه نشيد:

- آه يا بن العبد الله.

أيها المشرق دوماً في داخلي. من سيرافقني كلّ خميس لزيارة " سهيل وزهدي وفهد "؟ من سيتفقدني كلّ مساء؟ ومن سينقر نافذة غربتي مثل عصفور جميل؟ وكنت أخاطبه كما لو أنه يجلس أمامي قائلاً :

- أعرفك صادقاً يا علي، ولن تغيب عني. لن تتركني وحدي، فقم يا رجل. هيا انهض. كتلة من النشاط والحيوية والعطاء أنت. انهض فنومة اللحود لا تليق برجل مثلك.

حين رأيتك آخر مرة في مبنى الاتحاد، وأنت على عكازك ذكرتني بشخصية الأعرج في مسرحية الغزاة، ذاك الذي بقي يدافع عن الفقراء طوال العمل، وكنت كذلك صديقي الطيب والرائع طوال حياتك، أنت الذي تسكن روحي، ولا تغادرني طوال الوقت، نتجاذب الحديث، ونطرق الألم كي نحوله إلى سعادة.

كنت أريد أن أخبره أيضاً أن ثمة وجعاً آخر، وجناحاً كسر، ووردة تشبهه في رائحتها وطيبها، وعبقها، وردة فريدة سافرت في اليوم التالي لرحيله، ذاك هو صديقنا الشاعر الأستاذ علي أحمد طلب، لكنني تراجعت عن الأمر، لأنني أعتقد أنه ما من داعٍ لذلك، فالشهداء الأحياء يعلمون ما لا نعلمه نحن الأموات.

كنت أريد أن أذكره من جديد بصديقنا علي أحمد طلب، وأعيد عليه السؤال الذي أوجهه لنفسي:

- هل ننسى صديقنا يا صديقي؟ هل ننسى أهله الذين صدوا مع غيرهم العدوان الغاشم عن بلدتهم أكثر من مرة؟ وزوجته السيدة " سميرة" وأطفاله " أحمد وخلود ومحمد ولين " الذين تحلقوا حولنا في تلك الجلسة، ووالده السيد أحمد الذي وضعنا داخل قلبه، ووالدته السيدة عائشة التي أعدت لنا فطائر الكشك احتفاءً بحضورك يا صديقي، ألم تحدثني عن أحضان أشقائه "عبد الله وعبد الرحمن ومحمود" التي تشبه حضن الوطن.

في ذلك اليوم زرنا مدينة درعا، ثم عدنا لنتجول في السهول بين مدينة إزرع، وبلدة قرفا، برفقة صديقنا القاص محمد طلب. كنت سعيداً يومها، وكنت كذلك أيضاً، لأنني أعدتك إلى تربتك الأولى التي حرمت منها لسنوات امتدت على مدى المحنة والمعاناة.

صديقنا فؤاد لحقنا يومها ليصطحبنا بسيارته في جولة داخل البلدة، وفي المنزل كان قد أعد لنا " الرقاقة، أو المكامير" التي تحبّها كثيراً.

كنت أريد أن أقول لكما معاً إنني حين تماثلت للشفاء، واستطعت المشي على قدم ونصف، لأن كعبي قد طارت مع انفجار القذيفة، لم أستطع أن أقدم لعائلاتكم سوى كلمات العزاء الباردة، فقد كنت مندهشاً من فعلة الموت الرهيبة، لكنني حملت معي ياسمينة من دمشق، وزرعتها هناك في قرية "قرفا" على قبر صديق روحي علي طلب، فقد كان من عشاق الشام، ويحبّ ياسمينها كثيراً.

الآن أريد أن أخبركما معاً: إن بلدتي "معرية " أو "العلم" كما يحلو لي أطلق عليها، قد تحررت كما غيرها من البلدات والمدن، لكنني لم أعد إليها، ما زلت أنتظر، وأنا، وعلى الرغم من الألم، والوجع، أشعر أنكما إلى جانبي، وبالقرب من روحي، بعد أن تيقنت أنكما جزء من تمام المعنى، ومتأكد أننا سنعود معاً إلى هناك، فأنا أثق دائماً بوعد الشهداء، وهم الرجال الذين لا يخلفون الوعد.

***

ربيع الذئاب

حكاية اختطاف الشاعر والإعلامي محمد خالد الخضر

من محافظة إدلب

عندما خُطِفْتُ، وكانت السيارات المدججة بالسلاح تسير بي.

هبط الرتل في الوادي.. وعلى الرغم أن هناك عصبة شديدة على عيني.. أحسست أن قبر أبي على يميني.. وعلى الرغم من كل ما أنا فيه تذكرت قوله: (لا تأت إلي وأنت منهزم)

أجل يا أبي.. حتى في استقراري قربك، سترفع رأسك بي.. وصعدت السيارات مرة أخرى الجبل.. فقررت أن أموت، ولا أفيد المتآمرين مع الصهيونية.

....

كل المحبة والولاء للجيش العربي السوري، حامي الأرض والعرض، وكل الشكر والعرفان للأبطال الذين داسوا على الإرهابيين، وحرروني ومنهم:

المقدم نمير ديب

والمقدم أحمد عون

والرائد الياس شلهوب

والنقيب الشهيد كنان أبو الفخر

....

في صباح السابع والعشرين من أيار لعام 2011، وعند الساعة التاسعة صباحاً، فتحتُ نافذة الغرفة الشمالية، فاجأني شابٌ قصير القامة، أسمر الوجه، إلى درجة أقرب إلى السواد، أجعد الشعر، صرخ بأعلى صوته:

- افتح الباب (ولاك).

ولقّم بارودة روسية من نوع أخمص طيّ، وبالتزامن مع صوته البشع خُلع الباب، طوقتني مجموعةٌ من المسلحين، لم أفاجأ بهذا الاقتحام، فقد سمعت الكثير عن سلوك هؤلاء الإرهابيين، تقدّم الشاب أسود الوجه ذاته مني، بدا عابس القسمات، مكفهر الوجه، اقترب مني أكثر وصفعني على خدي قائلاً بحزم:

- هيا معنا.

فتشوا بيتي، أخذوا كل شيء يخصني، محفظاتي، ومصنف أرشيفي الشخصي، ومفكراتي، ودفاتري المكتوبة بخط يدي، وحين توسلت إليهم زوجتي ضربوها بأخمص البارودة، قالت لهم:

- خذوني معه أو اتركوه.

دفعوها أرضاً، وضعوا على عينيّ عصابة سوداء، حاولت أن أقاوم، لكن كثرتهم غلبتني.

في سيارة البيك آب الشاحنة، ألقوني بشكل عشوائي، مددوني في صندوق الشاحنة، ولفوني ببطانية شتوية، ثم جلسوا فوقي.

لم أدرك أين اتجهت سياراتهم الكثيرة، وفي هذا الضيق الخانق الصعب، وصلنا إلى مدجنة تقع في قمة جبل، رفعوا العصابة عن عينيَّ لأن قرارهم كان قتلي، أجل... أدركت جازماً أنهم متفقون على قتلي.

أحدهم ضربني بالكبل الرباعي ضرباتٍ عدة، ومع شدة الألم بدأت ملامحي تقسو، وبدأت القرارات الحاسمة تتولّد في ذهني، خصوصاً حين قال صاحب الكبل الرباعي:

(أنت مع الرئيس يا واطي ما هيك... ولاك نحن بالساعة منصنّع ألف تنكة زيت، والله لنصنّعك من أول وجديد)

شابّ آخر استخدم في يمناه كبلاً رباعياً مجدولاً، وفي يسراه وضع على كتفي عصا كهربائية، وقال:

- هل عرفتني؟ أنا مؤيد علي.

وانهال عليَّ ضرباً، وتابع أسئلته:

- هل تعرف طرزان؟

وطرزان هذا رجل يعمل في مؤسسة أمنيّة، وهو معروف بأخلاقه العالية، هو من قرية والدتي ذاتها. قلت:

- أعرفه.

قال:

- هذا زوج عمتي .. (واللّه.. ل.... عمتي).

ضحك الجميع مقهقهين ومبتهجين، ولا سيما أنهم يتشاركون في تعذيب شخصية ليست (ثورية) ولها حضور اجتماعي وثقافي واضح، كما صرّح قائد مجموعتهم، المدعو ياسر، الذي كان يتلقى التعليمات من سيده المدعو أحمد الرامي، قائد تجمع الزاوية الإسلامي.

وهكذا كانوا يتناوبون على تعذيبي، كل ساعة كان يستلمني واحدٌ منهم، حتى قال لهم ياسر:

- ضعوا خلفه ستارة سوداء، جاءتنا تعليمات كي نسجل له إعلان انشقاقه عن النظام، لتبثّه قناة صفا، مجموعة من الأسئلة وصلتنا، يجب أن ينشق عن حزب البعث، وعن الدولة، ويقدم صفته الثقافية المهمة، ثم يعلن انضمامه للثورة، ثم يجب أن نسلمه إلى اللّه تعالى، حتى لا يكون هناك أي احتمال لتغيير ما صرح به لقناة صفا إذا ما أفلت منا، أو ظل على قيد الحياة.

مؤيد علي قال:

- يا معلم، واللّه ناقصو قتل كتير ليحكي، الواطي عنيد.

فأجابه ياسر أبرص:

- لقد أعلن سيدنا العرعور على قناة صفا، مساء البارحة، قائلاً:

- يوم الخميس ستشهدون انشقاق شخصية مهمة من حزب البعث في إدلب.

سمعت ما قاله ياسر، كبُر العناد داخلي، وقلت بذاكرتي ونفسي لن أفعلها حتى لو قطعوني إرباً.

فتشني عبد الباسط المحمود فوجد في جيبي بطاقة اسميّة لرئيس تحرير جريدة الدومري، وهو من القنيطرة، فقال لي:

- يا حقير هذا اسمه ياسر إسماعيل (عم تتواصل مع بيت إسماعيل في القرداحة؟)

أجبته:

- هذا رئيس تحرير جريدة الدومري، وهو ضد الفساد أيضاً، وهو من القنيطرة، ولكن ما دمتم تقومون بثورة، ما دخل القرداحة بالموضوع؟

قال:

- الرئيس منها.

أجبته:

- طيب، الرئيس عدو للصهيونية وأمريكا.

نزل عليَّ غضبٌ جماعي، وتشابكت الخيزرانات والعصا الكهربائية والكبل الرباعي واللكمات مجتمعةً على تعذيبي، ثم ألقوا بي أرضاً:

- أمريكا يا / يا واطي / أشرف من أبيك.

لقد زار خيالي تجمّع أخوتي بوجوههم الحزينة، وعيونهم الدامعة، إذا سمعوا هذا التصريح، فالعرعور يؤكد انشقاق شخصية ثقافية من إدلب على غاية من الأهمية، فوراً سيتوقعون أن هذا الذي سينشق تحت التعذيب هو أخوهم، ثم أيقظني من شرودي صفعةٌ من الشاب الذي قال إنه يصنع الزيت، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- ما رأيك بالنظام يا ابن ال....؟

قلت:

- ألا تقولون إنكم (ثوار) هل هكذا تحقق (الثورة) مبتغاها؟

صرخ مؤيد علي:

- (ولك بلا علاك ولاك) .

وبعد قليل من الوقت، وضعوا اللمسات الأخيرة للستارة السوداء خلفي على الجدار، ثم وضعوا طاولة ووراءها كرسيٌّ، قال ياسر:

- قم يا واطي، واجلس على الكرسي.

جلست، ونظرت إليهم باشمئزاز واحتقار، أبعدوا عصابة العينين والكبل والعصا الكهربائية، ووضعوا أمامي فنجان قهوة، وفي جيبي شيئاً، توقعت أنه مسجّل، ثم سألني ياسر:

- ما رأيك (بثورتنا)؟

قلت:

- لا يوجد (ثورة) ..(الثورة) لا تعتقل المثقف والأديب والمفكر.

سحب الجهاز من جيبي، وضع علي مؤيد على كتفي اليسار العصا الكهربائية، ارتجفت حتى الصراخ. قال:

- من هو بشار الأسد؟

قلت:

- رئيس الجمهورية العربية السورية،

وأضفت:

- إذا كنت رجلاً أطلق سراحي، وناقشني في الطريق، ألستم جميعاً من كان يرقص ويغني، هو وأهله وقومه، رجالاً ونساءً، في ساحات إدلب فرحاً باستفتاء رئيس الجمهورية؟

صفعني عبد الباسط المحمود، وهو من قرية محمبل، بقوة وقال:

- (ما بدك تبطل علاك)؟ أيام معدودة ويأتي رئيسٌ جديد.

ثم أردف ياسر قائلاً:

- ما رأيك بالانشقاق، ثم الذهاب إلى تركيا؟ أنت رجل فهمان ومثقف، ومكانك بين العظماء، هي بضع كلمات وتنتهي القصة.

طال الليل، واستمر تعذيبي، ولم يستفيدوا شيئاً.

في الصباح، تهت في حالة من النوم والإغماء، استيقظت على رفسات واحد منهم وهو يقول:

- (لسا نايم يا كلب) اليوم المعلم (بدو يشبحك)؟

- كيف يعني؟

قال:

- سيعريك تماماً، ويعلقك في السقف من رجليك، ورأسك إلى الأسفل، ثم تستمتع بأعذب لحظات التعذيب.

أجبته:

- تعذيب أو غير تعذيب، الموت أعذب.

جاء ياسر وأعطاني قطعة محشي كوسا، قلت له:

- أنا لست جائعاً.

قال:

- (بدك) تضرب عن الطعام (ولاك)؟

وركلني على وجهي، قلت له:

- لن أتناول طعاماً أو شراباً حتى الموت، وخاصة بعد أن سمعتك تطلب من جماعتك كي لا يسمحوا لي بالدخول إلى الحمّام، صفعني وقال:

- ستتناول الطعام شئت أم أبيت، ونحن نميتك على طريقتنا، وكما نحب، أو كن معنا لنرسلك إلى تركيا.

أجبته:

- أريد أن أقول لكم شيئاً لأخلص نفسي من أمانة كبيرة، إن الذي يدير هذا الربيع هو الموساد الصهيوني، وعليكم أن تتذكروا يوماً ما، إن كنت حيّاً أو ميتاً، كلامي.

الوقت بعد الظهر، أمرهم ياسر بتغيير مكاني، من مدجنة مستطيلة إلى إسطبل، يبعد عنها بضعة أمتار، وهو مربع مليء بروث الماعز والأغنام، وكان الإسطبل أكثر علواً من المدجنة، في الإسطبل أجلسني رجلٌ وتركني دون عصابة على عينيَّ، فك قيدي وقال:

- لماذا خطفوك؟

تحيّرت بالإجابة، فقلت له:

- لأنهم سفلة.

استغربت أنه تبسم، وحاول أن يبتلع ابتسامته، فتابعت:

- لقد عذبوني كثيراً.

قال:

- والله لم أمدد يدي عليك.

كان غريباً هذا الرجل، حاولت أن أتعرف إليه، لم أتمكن، ولم يفصح لي عن اسمه، عند الغروب تركني وغادر دون أن يقيدني، وحذرني من الهروب، شردت قليلاً، تمتمتُ لنفسي:

- هل يمكن أن تكون المخابرات السورية قد اخترقت هؤلاء السفلة؟ كل شيء وارد، فسورية لا تتخلى عن رجالها، وقد يكون الرجل مجبراً على تصرفاته، وهو غير مقتنع بأنني أستحق كل هذا التعذيب.

***

الشمس بدأت تبتعد، والغروب اقترب كثيراً، والجبل يتأهب لاستقبالها، الليل أوشك أن يخيّم، وأنا وحيد في هذه الحظيرة النتنة، الحشرات والعقارب، والروائح وأصوات لم أسمعها من قبل، كل الأشياء الكريهة تجتمع هنا.

كنت أشعر أن جسدي بدأ يأكله شيءٌ لا أفهم ما هو، والقهرُ يسيجني بكل وقاحته، عالم آخر يحيط بي، لم يسمح لي أن أفهمه، لشدة قذارته.

فكرتُ بالهروب، أخذني النوم قليلاً، جاءني في الحلم صوت صديقي (أبو ثائر):

- لا تهرب، سيقتلونك.

استيقظت في حالٍ متعب، نظرت من نافذة صغيرة، عيناي رأتا أشباحاً وأشباحاً، أقنعت نفسي ألا أهرب هذا اليوم، وضعت (بلوكة) مكسورة تحت رأسي ثم حاولت أن أنام جاعلاً منها وسادة، وبين نوم مزعج وقلق مستمر، طلع الصباح، سمعت إطلاق نار كثيف، ذهبت باتجاه النافذة الضيقة، والمرتفعة قليلاً، رأيت رجالاً يهرعون صوبي، رجالاً ببدلات عسكرية، مما يرتديها أبطال الجيش العربي السوري، ابتسمت حين أدركت أن الصباح بالفعل بدأ بالطلوع.

***

ملحمة الجبل

حكاية شهداء محافظة السويداء الأبطال

حتى مغيب شمس يوم 24 تموز عام 2018 كانت قرية الشريحي مجهولة للكثيرين، قرية جميلة وادعة تقع في الريف الشرقي لمحافظة السويداء، ما زالت تحتفظ في حناياها بعبق التاريخ وآثار العصور الغابرة، لتروي قصة حضارات تعاقبت على المنطقة، وتركت في كل ركن منها أثراً يدل على عراقتها.

تتميز الشريحي التي تتربع على تلة فوق أرض صخرية بازلتية على السفح الأيسر لوادي الشريحي، وتشرف على بادية الحماد شرقاً، وهي الجهة التي حملت إليها رياح السموم في تلك الليلة، تميزت بهوائها العليل، ومغاورها الطبيعية، وبيوتها القديمة المبنية من الحجارة البازلتية، والتي تصطف فوق بعضها بتناغم فريد.

هي قرية وادعة بسيطة، مازالت تحتفظ في حناياها بعبق العصور الماضية، تتربع على تل مرتفع، وتصطف بيوتها الحجرية القديمة بعضها فوق بعض، بترتيب قد لا يكون مقصوداً، تبعد عن مدينة السويداء قرابة 40 كلم إلى الشرق منها، مجاورة كلاً من قرية الشبكي، وقرية رامي، ويبلغ عدد سكان قرية الشريحي قرابة 1600 نسمة تقريباً، معظمهم في بلدان الاغتراب، يحاربون بالغربة شظف العيش والطبيعة القاسية، والأرض المجدبة التي لا تنتج إلا القليل، تاركين خلفهم في البيوت، العجائز، والأطفال، ونفر قليل من الشبان، الشبان الذين سوف يثبتون أن عددهم لا يشكل شيئاً في معادلة الدم والكرامة.

شاركت قرية الشريحي في معارك النضال والشرف التي خاضها الجبل ضد المستعمرين، وسار تحت بيرقها 25 مجاهداً، استشهد منهم 8 شهداء، ورفع بيرقها المجاهد الشيخ حمود صعب، وما زالت مضافاتها مرصعة بصور المجاهدين،

وببقايا البيارق والسيوف التي قاتل أبناؤها العثمانيين والفرنسيين حتى الشهادة أو الاستقلال، متلحفين عباءاتهم المرقعة، وماتزال تخوض هذه القرية الوادعة بشبابها الطيب النبيل أسمى قصص التضحية والنضال، فتجد أضرحة الشهداء الشرفاء تزين مداخل القرية ومخارجها، وقد سكنت القرية حديثاً قبل نحو 125 عاماً، ويعمل معظم سكانها بالزراعة وتربية الماشية، وأهم مزروعاتها العنب واللوزيات، والمحاصيل الحقلية من قمح وشعير وعدس، يشار إلى أن قرية الشريحي تقع إلى الجنوب الشرقي من بلدة المشنف بنحو 6ر5 كم، وتتبع لها إدارياً، ويحدها من الجنوب الشرقي قرية الشبكي، ومن الشمال الغربي قرية رامي.

ومثل دأبها منذ عشرات السنين، ودعت شمس تموز الحارقة صخورها في ذلك المساء، وتواعدت معها على اللقاء في صباح جديد، وما أدراك كيف تشرق الشمس هناك، إنها تنبت مثل القمح من الأرض عند الأفق الشرقي، كان يوماً اعتيادياً، انهمكت فيه النساء بتحضير مؤونة الشتاء من برغل وكشك وعدس وغيرها، وآوى الرجال إلى النوم بعد سهرة صيفية طويلة على مشرقياتها، لم يرتبط صوت الله أكبر في ذاكرة الناس أبداً بالخوف والرعب، كان مبعثاً للطمأنينة، إلى أن استعمله شذاذ الآفاق في حربهم القذرة.

في تمام الرابعة والنصف صباحاً طُرق باب البيت الأخير من جهة الشرق أعلى التل طرقات مريبة، وعلى عجل فتح صاحب البيت، الشيخ الشاب مهيب صعب، الباب في بيئة لم تعتد الاستفسار عن هوية الطارق أبداً، كان وجهاً لوجه أمام ثلاثة أشخاص بمظهرهم الداعشي، المدجج بالأسلحة وأجهزة الاتصال، عاجلوه بطلقة قاتلة أيقظت أخاه الذي يبعد عنه مسافة خمسين متراً، والذي اكتشف من نافذة بيته ما يحدث، فهرع إلى سلاحه الفردي، إلا أنهم بدؤوا بالصراخ والتوعد، فبدأ بمشاغلتهم، بأن يطلق النار من أكثر من نافذة، حتى اعتقدوا أن في المنزل عدداً أكبر من الحقيقة، كانت القرية، وخصوصاً الحارة الشرقية، قد بدأت تستيقظ على صوت التكبير والرصاص، وقد اعتمد الخونة أسلوب الغدر والمباغتة، حيث توزعوا على عدد من البيوت، فكانوا ينادون أصحابها بأسمائهم، في دلالة على خيانة بعض البدو الذين تعاملوا معهم، واستطلعوا لهم،

فما إن يطل صاحب المنزل حتى يعاجلوه برصاصة قاتلة، وفي هذه الحارة استشهد أكثر من عائلة بهذه الطريقة، مثل لطفي صعب وزوجته زاد الخير سلام، وصالح صعب وزوجته أم خالد مقبولة حمايل، وامرأة ثمانينية هي تميمة صعب، وغيرهم، لتبدأ المعركة الحقيقية، حيث تبين أن مجموعات تتألف كل مجموعة من خمسين مقاتلاً دخلت كل منها إلى قرية، وتمركزت في حاراتها تحت جنح الليل، في غفلة عن عدد قليل من عناصر الحراسة التي غالباً ما تتمركز على المدخل الغربي، وذلك تحسباً من أي تسلل يأتي من جهة درعا، وفي حين يصعب تغطية الأراضي المفتوحة مع البادية حتى حدود العراق، في ظل نقص العدد والعدة، تبين فيما بعد أن هؤلاء قد حُملوا من التنف، وكر الأفعى، إلى منتصف المسافة، ليصلوا القرى الآمنه مع بزوغ الفجر.

خاض النفر القليل من الشبان المتواجدين في القرية معركة الحياة والكرامة على أعتاب بيوتهم، حتى النفس الأخير، وسجلوا بطولات فردية أسطورية، بأسلحتهم القليلة التي تقتصر على البارودة الروسية، وبعض القنابل، وأسلحة الصيد، والمسدسات الفردية، فعلى سبيل المثال سجل الشاب (وليد أنيس صعب) حالة فريدة من الشجاعة، حين تمترس في منزله الذي حاول المسلحون اقتحامه والتمركز فيه بسبب موقعه المهم، فقاومهم وقتل العديد منهم وعندما نفدت ذخيرته فجر المنزل بنفسه وبزوجته وابنتيه الطفلتين، حتى لا يقعوا في أسر الإرهابيين، وقاوم (بسام صعب) وقاتل بجفت الصيد حتى استشهد، استمرت المعركة عدة ساعات، واستشهد عدد من أصحاب النخوة ممن حاول إسعاف الجرحى إلى (مشفى سالة) قبل أن يتبين أن الهجوم حصل على عدة قرى في لحظة واحدة، حيث قضى المدرس الشاب (بهجت عطا الله صعب) شهيداً وهو يحاول إسعاف الجرحى بسيارته البيك آب.

اليوم حين تحاور الشهداء الأحياء يرفض أي منهم أن يلقب بالبطل، ويرفض أن ينسب لنفسه البطولة، لأنهم يعتقدون أن الشرف هو نصيب الشهداء.

انتهت المعركة، وأجهز الشبان على معظم أفراد المجموعة الإرهابية قبل أن يتمكن أحد من الوصول إلى القرية ممن فزع لنجدتها، إلا القليل، وخاصة في ظل قنص الطرق المؤدية إليها.

ومع وصول مجموعة من شبان قلعة جندل إليها، تم القضاء على آخر فلول المسلحين، حيث بدأت طلائع الإمداد من عناصر الجيش العربي السوري التي حملت الذخيرة والسلاح والمؤن، وبدأت بتمشيط القرية، وتثبيت نقاط الدفاع والحراسة، وتنظيم جهود المدنيين المستبسلين، وبدأ إخلاء الجرحى والشهداء، وإخلاء الأطفال والنساء اللواتي كنّ يشددن من أزر الشبان، وينخينهم معبرات عن شدة بأس وصبر وثبات عز مثيله، وكنا نعتقد أنه من خيال الكتاب الذين تحدثوا عن جداتنا وأجدادنا، ومع ظهيرة الخامس والعشرين من تموز، انقشع غبار المعركة الضارية التي تفتقد إلى التعادل بين أبرياء عزّل، إلا من وطنيتهم وكرامتهم، وبين مجرمي العصر المدججين بأحدث الأسلحة وأجهزة الاتصال، جمعت الجيف النافقة لتسجل هذه القرية الصغيرة بحجمها، الكبيرة ببطولة أبنائها، حقيقة مفادها أنه يمكن للمجرمين أن يتجرؤوا على دخولها، لكنهم حتماً لن يخرجوا منها إلا جثثاً نتنة.

قتل أفراد المجموعة الإرهابية كلهم، وارتقى أكثر من أربعين شهيداً، وقدمت كثير من الأسر عدة شهداء من بيت واحد، والمدهش أنني حين التقيتهم بعد أيام من انتهاء المعركة، كانوا في ذروة الثبات، ولسان حالهم يقول إن التاريخ يعيد نفسه، وكما استلمنا هذه الأرض من أهلنا عزيزة محررة، لن نسلمها لأبنائنا إلا مستقلة خالية من الرجس، ولن أنسى ما حييت كلام عمتي، ابنة السادسة والتسعين، حين قالت لي وهي تدق بعصاها الأرض البازلتية :

(- كلنا بدنا نموت، لكن منموت كلنا.. ولا بيفوتوا بيوتنا).

وهي التي ودعت ابنتها وصهرها وحفيدها وابن أخيها وأبناء عمها، كنت طوال ساعات أتابع على الجوال مع أبناء عمي، فأسمع أصوات الرصاص والاشتباك، وأحدهم كان يحدثني وهو مصاب بعدة طلقات، ولكن معنوياته مرتفعة، وأنه واثق من النصر.

يصعب على الأقلام مهما احترفت أن تنقل ما حدث في تلك الليلة في قرى المقرن الشرقي لريف السويداء، الحقيقة التي لا تقبل الجدال هي أسماء الشهداء، وجيف المعتدين، وجبال شم من الشهداء الأحياء ما زالت هناك متشبثة بالحياة وبالكرامة.

أما على مدخل القرية الغربي، فقد استقرت الأجساد الطاهرة، وشمخت راية الوطن، لتحكي قصة بطولة، ولتحرس أرضها وسماءها، ولتبقى درساً وقدوة لكل طفل يولد، ولو بعد ألف عام.

***

الطريق إلى الروضة

حكاية الشهيد موسى إبراهيم الحداد

من محافظة حلب

{موسى الذي وضع عكازه جانباً، وعبر من الشرفة إلى روضة الشهداء}

يقول الأب إبراهيم:

كنت عند صديقي في الحارة، وأثناء الحديث بدأ قصف المسلحين على القرية بصواريخ الغراد المدمرة، شعرت مع وقوع الصاروخ الأول بزلزلة كياني كله، وبصدع في رأسي، ودعت جاري وأسرعت إلى البيت حائراً قلقاً متوتراً.

***

تبدأ قصة موسى الحزينة الملأى بالصعاب والآلام، إنما مع كثير من العزيمة والإصرار والجهد والأمل، من الطفولة الباكرة عندما كان عمره دون السنتين، وجرى تلقيحه ضد الشلل، أحس أهله في البيت أن جسده قد ارتخى، وعزمه قد تلاشى، فحملوه إلى الطبيب الوحيد في القرية الذي حولهم بدوره إلى مشفى حلب الجامعي، عندما سأل الأب الدكتورة التي خرجت من الغرفة، بعصبية وتوتر:

- ما الأمر؟ لماذا يتجنّبني ولا يرد علي الدكتور إبراهيم، وهو ابن بلدي؟

قدمت له الدكتورة النتيجة الصاعقة:

- بماذا سيجيبك؟ ابنك مصاب بالشلل.

***

بعد علاجات دوائية، وأخرى فيزيائية، استقر وضع موسى الصحي على شلل في رجله اليمنى، وصار يستخدم العكازات. عندما كبر قليلاً، ظل على تلك الحال سنوات، إلى أن اقتنى لاحقاً كرسياً متحركاً بعجلات لقضاء مشاويره، فزاد وزنه قليلاً، وترهل جسمه، وصار بحاجة للعكاز، ومساعدة الآخرين عندما يمشي.

***

لم يستسلم موسى الخلوق، الضحوك، المهذب، المتدين، والصابر. درس المرحلة الابتدائية، وألحقها بالإعدادية، وبالثانوية أيضاً. بالعكاز يخطو، ويدرج بالكرسي المتحرك متنقلاً من مكان إلى آخر، هنا يساعده زملاؤه، وهنا يعطف عليه أساتذته، ويحيط به دائماً أصدقاؤه، هكذا حصل على الشهادة الثانوية بفرعها العلمي، ولما رأى أن الفرع الأدبي يساعده أكثر، تقدم لامتحانات الفرع الأدبي، ونال شهادته أيضاً، وسجل في فرع محلي لإحدى الجامعات، وتابع دراسته، بنفس العزيمة، ونفس الطموح والإصرار، فلا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة.

***

في اليوم السابق، رافق موسى أبويه إلى أشجار الزيتون، ساعدهما بالحضور، وبما يستطيعه من مسك كيس، أو تحريك عصا، وقطف حبات زيتون حيثما أمكنه ذلك، ذلك أن أخاه الأكبر، يعمل مع قوات الدفاع المحلي، في أطراف القرية المحاصرة من سنوات، والأصغر ملتحق بخدمة العلم، في المدينة، حيث استشهد لاحقاً أثناء فك الحصار عن القرية، رافق موسى أباه إلى معصرة الزيتون الميدانية البعيدة عن مرمى نيران المسلحين وقذائفهم اليومية، انتظر طويلاً مع والده حتى جاء دورهم، وأخذ العمال زيتونهم للعصر، ولا ينسى والده أن موسى مازحه حول حصته من الزيت.

في اليوم التالي، في منتصف شهر تشرين الأول من عام ألفين وخمسة عشر للميلاد، وهو يومه الموعود، قال موسى ابن الثلاثين سنة لابنه بعمر الثالثة، الذي اعتاد اصطحابه في مشاويره:

سأذهب إلى بيت جدك، لكن أنت ابق في البيت، فأنا مشغول، تملص من الطفل خلاف عادته، لكنه لم يذهب إلى أهله، بل غير وجهته، ذهب إلى موسى الآخر، ابن عمه، حيث كان وحيداً في منزله، بسبب غياب أسرته، ساعده ابن عمه موسى في صعود الدرجات وجلسا على الشرفة القبلية المشرفة على (روضة الشهداء)، وهي المقبرة التي خصصت لدفن الشهداء من مدنيين وعسكريين، الذين كانت أعدادهم آحاداً، ثم ازدادت إلى العشرات، ووصلت إلى المئات، في قريته الوادعة المسالمة، مثل كل الريف السوري الذي أنجب وآوى الأفذاذ والأنبياء والأولياء والصالحين.

بينهما حيث جلسا وبين الروضة شارع بعرض أمتار قليلة، حوالي الرابعة عصراً، قرر ابن عمه أنهما سيتناولان الغداء معاً، حيث هما على الشرفة، فأحضر ما تيسر من حواضر البيت، ووضعها بينهما، لكنه طلب من ابن عمه مخدة، فقد اعتاد على استعمال المخدة مسنداً توازن حركته عند جلوسه إلى مائدة الطعام، فدخل موسى إلى غرفة الجلوس، وانحنى إلى أرضها ليتناول المخدة.

***

يتابع الأب المكلوم بشهيدين:

دخلت منزلي ساهماً معتصر القلب، وأغلقت الباب خلفي، بعد قليل سمعت طرقاً عنيفاً، فتحت الباب، وكان زهير، ابن أخي، كنت ما أزال تحت تأثير الرعب من صوت الصاروخ، الذي ينتابني للمرة الأولى، بعدما اعتدنا على كل أنواع القذائف يومياً، (هاون، مدفع، جرة غاز محشوة بالمتفجرات والشظايا، بتجهيز محلي! وصولاً إلى الصواريخ، وأثقلها صواريخ الغراد) قال ابن أخي لاهثاً مضطرباً:

- موسى أصيب وأسعفوه إلى المشفى.

فأجبته من فوري:

- موسى راح.

وكأنما حُلَّ لغز الهول الذي انتابني مع انفجار القذيفة، للمرة الأولى، بهذا الشكل، ضربت كفاً بكف، وهرعت معه إلى الشارع، نلتحق بالمشفى.

***

وضع موسى عكازه جانباً، كان ينظر إلى روضة الشهداء، تعتصر قلبه كثرة قبورهم، المنتظمة في صفوف طويلة متجاورة، ثم ينظر إلى الصف الأخير، فالقبر الأخير، يتأمل ملياً القبر الجاهز لاستقبال الشهيد التالي، متمنياً من كل قلبه ألا يكون أخوه الأصغر، ولا أخوه الأكبر، عاين المكان ملياً، ومطولاً بحرقة قلب لما وصلت إليه الأحوال، وما آلت إليه من أهوال، عاين المكان بمزيد من الأسى والشجن واللوعة، ولم يعرف أسباب كل ذلك، عاين منتظراً ريثما تأتيه الوسادة، تلك التي سيقع عليها موسى الآخر، لحظة الانفجار، فينجو من الشظايا التي ملأت المكان، ومزقت جسد ابن عمه موسى، الذي ما لبث أن عاد من المشفى محمولاً إلى حيث كان ينظر ويعاين ويتملى متأملاً بكثير من الحزن قبل ساعات.

***

العائلة الشهيدة

حكاية الشهداء:
الشهيد البطل عبدو خضر التلاوي، العمر 55 عاماً
الشهيد البطل علي عبدو التلاوي، العمر 16 عاماً
الشهيد البطل أحمد عبدو التلاوي، العمر 14 عاماً
الشهيد البطل خضر فوزي التلاوي، العمر 16 عاماً
الجميع من محافظة حمص. استشهدوا معاً بتاريخ 2011/4/17

كانت الزيارة خاطفة إلى إحدى قرى ريف حمص الغربي، لزيارة بعض الأقارب، وإنجاز بعض الأعمال الضرورية هناك، هي ساعات قليلة يقضيها الشهيد البطل عبدو التلاوي بعيداً عن وحدته العسكريّة.

لم يكن يعلم أن تلك الساعات هي ما تبقّى من عمره، علماً أنه كان ينتظر الموت لحظة بلحظة، فهو القائد العسكري الشجاع، الذي نذر نفسه للموت دفاعاً عن وطنه وشرفه العسكري، ولكن... أن يموت هكذا على أيدي الشذاذ والإرهابيين، ذلك أمر لم يكن يتوقعه ولا ينتظره، بضع ساعات عاد بعدها البطل عبدو التلاوي بسيارته العسكرية، ومعه ولداه علي وأحمد، وابن شقيقه خضر، الأولاد لم يزالوا طلاباً في المرحلة الإعدادية والثانوية، فكيف يجابهون موتاً مخادعاً من كائنات لا تشبه البشر في شيء سوى الشكل، الأولاد مطمئنون، فهم برفقة أبيهم، ولم ير ابن في أبيه إلا بطلاً وحارساً ومدافعاً عن أبنائه، وهذا ما كان يجول في خاطر الأولاد.

لم يترك الإرهابيّون للقائد البطل فرصة للكلام، فهم يعرفونه، ويعرفون أن صيدهم ثمين، كان سيقول إنه المقاتل السوري الأصيل، وإنهم مجرّد (زعران) يدّعون الثورة، وإنهم خونة مأجورون، وإنهم متآمرون وإرهابيون، كل ذلك كان سيقوله الشهيد البطل عبدو التلاوي، لكن بضع رصاصات منعته من الكلام،

رصاصات استقرّت في الأجساد البريئة، وبدأت صورة حمص العديّة تغيب شيئاً فشيئاً في العيون التي عشقتها ودافعت عنها.

السيّدة إقبال إبراهيم، زوجة الشهيد البطل عبدو التلاوي تروي الحادثة، فقد عادت من تلك الزيارة في سيارة مدنية.

كانت الأيام الأولى لتحرّك الشارع الحمصي بما يسمونه (الثورة) حيث بدأ إشعال الإطارات في كافة جوانب المدينة، بما سمّي بالأحد الدامي، بسبب سقوط الكثير من الشهداء، مرافقاً لبث بعض القنوات التلفزيونية المعادية على أنه تحرّك سلمي.

تضيف السيدة إقبال أنها عند وصولها إلى بيتها في مدينة حمص، وبعدما اجتازت الشوارع الملتهبة بالنار والدخان والرصاص، تناولت هاتفها الجوال لتتصل بزوجها المقاتل عبدو التلاوي، لكن صوتاً آخر جاءها عبر الهاتف، كان صوت أحد المجرمين القتلة، والذين يسمّون أنفسهم (ثواراً) فأخبرها بما جرى بطريقة استفزازية وشامتة، عنصرية بغيضة، جمدت الغصة في القلب دون أن تتحوّل إلى صراخ باكٍ، فلا يليق بشريكة حياة البطل إلا الصمود والبطولة.

قال المجرم (الثائر) لزوجة الشهيد إنهم أوقفوهم في منطقة العدوي القريبة من مدينة حمص، وقاموا بقتل زوجها وأولادها الثلاثة رمياً بالرصاص، وأنهم لم يكتفوا بقتلهم، وإنما قاموا بتشويه جثثهم والتمثيل بها بالسكاكين، ورميهم على قارعة الطريق، بداية لم تصدّق الزوجة كلام ذلك الإرهابي، وانتظرت أن تسمع صوت زوجها ينفي ذلك الهراء ويؤكد كذب الأخبار، غير أنها انتظرت طويلاً، وما زالت تنتظر.

في المشفى، كانت الأسرّة الأربعة تروي الحادثة بتفاصيل أكثر دقّة، كانت كتب الأولاد مدمّاة، من كتاب التاريخ، وما أدراك ما التاريخ! إلى كتاب الجغرافية، تلك الجغرافية الملعونة، إلى كتاب التربية الدينيّة الإسلامية... كتب لم يقرأها أولئك الـ(ثوّار) ولم يعرفوا ما يعنيه التاريخ والجغرافية والتربية.

وفي اليوم الثاني، تمّ نقل الشهداء الأربعة عبر الشوارع الخلفية للمدينة في جنازة مهيبة وصامتة، إلاّ من إطلاق الرصاص من المجرمين الإرهابيين على المشيّعين.

حتى المشيّعون لم ينجوا من الثورة المزعومة، كان العلم السوري يرفرف ببهاء وكبرياء فوق المدارس والمؤسسات الحكومية، وفي كثير من البيوت، أما هنا فهو ناكس ألوانه، صامت بمهابة الموت، الموت الشهادة.

وهكذا سار موكب الشهداء مع كتبهم المدرسية المبللة بدماء زكية لتروي وتوثق ما حدث باختصار شديد.

***

اغتيال الكلمة الحرّة

حكاية الشهيد الشاعر محمد بشير العاني

من محافظة دير الزور

طويلاً عانت زوجته من مرض عضال، وذلك قبل أن تنتقل إلى رحمة الله، وكثيراً ما كانت معاناته معها، وبعد وفاتها أصرّ على دفنها في مسقط رأسها في مدينة "دير الزور".

وفي أيام العزاء تعرّض صديقنا الشاعر محمد بشير العاني للكثير من الترغيب والترهيب، إذ كانت دير الزور تحت سيطرة تنظيم داعش الإرهابي، فلم يكتفوا بما يعاني من حزن على رفيقة دربه، بل أضافوا إليه تهديداً جديداً، وذلك إن هو لم يخضع لتعليمات الإرهابيين، وينضمّ إلى صفوفهم.

بقي عدّة أسابيع يتريّث في الردّ، وكان أثناء تلك الأسابيع على تواصل دائم مع أصدقائه في المدن الأخرى غير الخاضعة لأي تنظيم إرهابي، يتواصل معهم عبر الهاتف شارحاً ما يعانيه من تهديد، وطالباً تأمين نقله عبر الطيران العسكري من دير الزور إلى دمشق، أو إلى اللاذقية، وكانت الردود بأن عليه أن ينتظر قليلاً ريثما يؤمَّن له سفر آمن وسليم، فالطرق كلها مقطوعة مع دير الزور، حتى الطيران العسكري لا يتحرك إلا على فترات متباعدة.

ربما كان وجود ابنه إياس معه يخفف عليه وطأة الانتظار، وخصوصاً بعدما عرف الإرهابيون أنه يماطل في الردّ، والالتحاق في صفوفهم، فراحوا يفتشون عنه لاعتقاله، بينما راح هو يتوارى مع ابنه عن الأنظار منتظراً رحلة الطيران العسكري.

بدأ تفكيره يتوزّع بين وضعه مع ابنه الملاحقَيْن في مدينته دير الزور، وبين بناته في اللاذقية، حيث يتابعن دراستهن هناك، وخصوصاً ما كان يسمع من أخبار التنظيمات الإرهابية المجرمة، وما تفعله بكل من يخالف أوامرها

وتعليماتها، وله من بعض أصدقائه الذين وقعوا بين أيدي تنظيم داعش الإرهابي عبرة مرعبة، حيث استشهد الكثير من الناس هناك، لا لشيء سوى أنهم اعتبروا مرتدّين، كما كان يقضي معظم أوقاته متنقلاً من بيت صديق إلى بيت صديق آخر، هرباً من الإرهابيين الذين يفتشون عنه دون جدوى.

وطال انتظاره كثيراً، لم يستطع التخفّي أكثر، فالعيون قد تراه في أيّة لحظة، والأيدي قد تطاله أيضاً، حيث لا ينفع التواري عن الأنظار، واتصالاته مع الأصدقاء في دمشق واللاذقية لا تبشر بقرب نقله، حيرة انتابته حتى وصل به الأمر إلى درجة اليأس، حينذاك قرر الخروج من المدينة المطوّقة بإرهابيي تنظيم داعش، وليكن ما يكون.

الحافلات تسافر بشكل يومي إلى مدينة حلب وحمص والرقة، سفر تحت أنظار ورعاية ذلك التنظيم الإرهابي، وعلى مداخل المدينة كلها ثمّة حواجز تفتيش دقيق لعناصر التنظيم، فما أكثر المطلوبين من محمد بشير العاني وسواه من وطنيي دير الزور وشرفائها!

صعد الحافلة مع ابنه إياس العاني خارجين من المدينة إلى جهة آمنة، لكنهما لم يصلا إلى أية جهة، فالمجرمون القتلة في انتظارهما، وأثناء التفتيش عن البطاقات الشخصية، ابتسم الإرهابي في وجه شاعرنا الشهيد قائلاً:

- جئت على قدميك يا بن العاني، فمنذ أسابيع ونحن ننتظرك. انزل يا حضرة الشاعر.

ونزل حضرة الشاعر، ونزل معه ابنه إياس، وتم اقتيادهما معصوبيّ العيون، إلى مكان مجهول.

هل تستطيع يا أبا إياس، أيها الشاعر الجميل، أن تحصي قصائدك التي تغنّيت من خلالها بهذا الوطن الجميل؟ مشكلتك أيها الرائع أنك لم تفهم جيّداً بعد لغة السواطير، ولم تستطع تصديق فكرة أن جارك أو قريبك يمكن له أن يحزّ عنقك، أجل يا صديقي... كل ما سمعته صحيح، هناك مجرم صغير قام بذبح والدته في ساحة المدينة، وهناك كاتب رقيق الحسّ بتروا أصابعه التي كانت في يوم ما تكتب للوطن... وثمّة من قطع رأسه وعلّق على مدخل إحدى

المدن، لا لشيء إلاّ لأن ذلك الرأس يحمل تاريخاً حقيقياً موثقاً عن جرائم أجداد إرهابيي داعش الأقدمين، ليتك بقيت منتظراً ولم تخرج يا صديقي!

هل ستحلم بعد اليوم، ومآل كل أحلامك دمٌ بدمٍ؟! أنت ممنوع من الأحلام، حتى من أبسطها، كأن تحلم مثلاً بدفن جثمانك إلى جوار جثمان رفيقة دربك، أو ألّا تشهد مقتل ابنك إياس أمام عينيك...

العاشر من آذار لعام ألفين وستة عشر تاريخ يصعب نسيانه عند أصدقاء ومحبيّ الشاعر الشهيد محمد بشير العاني، ففي صوته هدير الفرات، وفي عينيه حقول من الخضرة واليناعة، ربيع يلوّن مدينة الفرات بالأحمر، ويترك جثث الفراتيين مقطعة، ومصلوبة، أو مرميّة على جوانب الطرقات.

أي الجثث لك يا بشير؟ أيّ دم هو دمك؟ أي الأصابع كتبت الشعر للفرات؟ وأي حنجرة صدحت خلف المنابر؟

كل شيء يابس هنا... حتى حليب الأمهات.

***

تاريخ استشهاد الشاعر محمد بشير العاني وابنه إياس:

دير الزور 2016/3/10

شهيد النخوة

حكاية الشهيد البطل وسيم سعيد الحجلي

من محافظة ريف دمشق

تعرضت مدينة جرمانا، المدينة التي وصفت بأنها سورية المصغرة، والتي ضمت في جنباتها كل أطياف سورية الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما مثلت الحضن الدافئ للعروبة، من فلسطين والعراق وغيرها، تعرضت لآلاف القذائف والتفجيرات، ودخلت موسوعة غينيس بعدد القذائف، وموسوعة الكرامة بصمودها ووقوفها حجر عثرة بوجه الوصول إلى العاصمة.

حكاية البطل وسيم سعيد الحجلي قد تكون بسيطة أمام بطولات أبناء الوطن، ولكنها مختلفة لابن الثلاثين المقبل على الحياة، العريس الذي يتلهف لاحتضان مولودته البكر بعد عدة سنوات من الانتظار والترقب، غادر مع زوجته الشابة عيادة الطبيبة التي بشرتهم بطفلة جميلة تأتي بعد أشهر قليلة، كان متعجلاً ليشتري لها أشياءها، مغطس حمامها وثيابها الصغيرة، هذه الأشياء التي لم يتسع الوقت كي تأخذ مكانها في الخزانة، لأن القدر كان أعجل.

في يوم 2015/11/26 استيقظ وسيم على صوت انفجار اهتزت له البناية في السادسة صباحاً، بعد أن نام متأخراً وهو يؤدي مع جيرانه من أهل الحي واجب الحراسة، هبّ مسرعاً دون وعي، وركض كعادته عند كل حادث أمني، حيث يبقى حتى آخر الليل يسعف الجرحى، ويساعد في تنظيف المكان وغسل الشارع، لتعود الحياة إلى طبيعتها، لكن اليوم كان الوضع مختلفاً، لحقت به أمه، كانت تصيح:

- لا تذهب ..قد يكون هناك تفجير ثان ..

وكان تنظيم داعش الإرهابي قد اعتاد أن ينفذ هجوماً مزدوجاً، لكن وسيم كان قد غاب عن أنظار الأم المحذّرة، ووصل مكان التفجير في مدخل جرمانا بجانب الكازية، كان مشهد الدمار مروعاً، أحدهم التقط صورة للبطل وسيم سعيد الحجلي وهو يحاول تقديم المساعدة، وذلك قبل لحظات من التفجير الثاني، الذي كان نصيب وسيم منه عزقة حديدية لا تتجاوز 3سم حشيت بها العبوة الناسفة، استقرت خلف الرقبة، فاختطفت الشاب الذي ذاع صيته لشدة نخوته واندفاعه للمساعدة.

هذا الذي أتته الفرصة كي يهاجر إلى كندا، فغاب شهوراً قليلة، وعاد مسرعاً، لأنه لا يستطيع العيش إلا هنا، هذا الأب الذي رأت طفلته سيلين النور بعد استشهاده بخمسة أشهر، ولم تجد منه سوى صورة على الجدار، وحزن على وجه والدتها الشابة، هذا الشاب الذي ظل يسعف وينقذ حتى اللحظة الأخيرة متشبثاً بأرضه، مؤمناً بالنصر، لا بدّ أن طيفه وروح كل شهداء مدينته تنعم بالراحة، وهي ترى الحياة تعود إلى المدينة الثكلى، أما (سيسي) ابنته، فستفخر أنها ابنة شهيد النخوة والواجب، الشهيد البطل وسيم سعيد الحجلي.

***

أبو فرحان ...!!

حكاية قرية عين الدنانير

محافظة حمص

هذه قصّتي. كثيرون سمعوا بها مني، وكثيرون سمعوا بها من غيري. وهي مثل قصصٍ كثيرةٍ، يتناقلها الناس عن الحرب ومواجهة العصابات المسلّحة. لكن ما يجعل قصّتي تنتشر، باعتقادي، هو إصراري أن يسمعها أكبر عدد من الناس، في منزولي، الذي رمّمْته مع بقية غرف المنزل.

عُدتُ إلى بيتي الكبير، في القرية، بعد فرقة عامين، وكلّ عامٍ حسبْته ألف سنة. البيت شبه مهدّم، غرفة المنزول الكبيرة سقط جزء من سقفها. وثمّة قذيفةٌ أحدثت فتحةً كبيرةً في الجدارِ الجنوبي لغرفة الأسرة وأودت بالنافذة. أمّا غرفة المطبخ فقد تضرّرت بشكلٍ أقلّ. كان منظر المنزل يدعو للحزن، ويثير، في النفس، الحقد، والثأر، من تلك العصابات التي تقتل وتدمّر... أينما وُجِدَتْ.

ساعدتنا الحكومة في ترميم منازلنا، نحن أهالي قرية "عين الدنانير". ولا بدّ من القول إنّه ليس فيها دنانير، ولكن ثمّة بقايا لعين ماءٍ قديمة، ربّما جعلت الناس يستوطنون هنا.

عندما حاصرت المجموعات المسلّحة، القرية، من جهة الشرق، قاومنا هنا، رجالاً ونساءً وفتياناً، بمساعدة الجيش، وعملنا "خط دفاع"، كما يقول العسكريون. المناوشات التي تحصل بيننا وبين تلك العصابات، تجرح وتقتل الناس في بيوتها، أو في الأرض الزراعية. ولكنّنا قتلنا وأصبنا الكثير من أفراد تلك العصابات، التي كانت تهاجم القرية بين حين وآخر، فتصطدم بالمقاومة العنيفة، فتتراجع مدحورة. وعليّ أن أقول إنّه لم تبق أسرة في القرية إلاّ وقدّمت شهيداً أو جريحاً.

لم نتمكّن من العمل في الأرض الشرقية. لكننا تابعنا العمل في كروم العنب واللوز والزيتون، في الأراضي الواقعة غربي القرية وجنوبها. وــ أقول أنا حمدان الخضر ــ بأنّ ما آلمني هو خروج بعض الأسر، من القرية، في بداية الحصار.

في حال كهذا الذي أحدّثكم عنه، لا يعرف المرء متى تأتيه رصاصةٌ غادرة، من قنّاصٍ محترف، أو قذيفة غادرة، تهدم المنزل فوق رؤوس أصحابه. وجاءت جريمة المدرسة الابتدائية، كأفظع جريمة تتعرّض لها القرية. فقد سقطت عدة قذائف إرهابية، على التلامذة، لتقتل ثلاثةً منهم وتجرح عدداً آخر.

وبرزت المشكلة: "كيف نشيّع الشهداء التلاميذ... والقذائف مستمرة... ورجالنا يتصدّون للمجاميع الإرهابية.. وانتظرنا حتى الليل حيث شيّعنا الشهداء الأطفال إلى مثواهم الأخير، في الجزء الجنوبي من المقبرة المخصص للشهداء. كان حفيدي "أحمد" بين الشهداء الأطفال. عندما وضعناه في الغرفة، كان الدم متجمداً في فمه وفتحتي أنفه. يبدو أنّ شظيّةً صغيرةً اخترقت رأسه من الخلف والأسفل. وعندما جاؤوني بحقيبته المدرسيّة، كانت شطيرة الزعتر والزيت لا تزال محفوظةً في كيس من النايلون، لم تمهله القذيفة الغادرة حتى يتناولها. وثمة زجاجة صغيرة في الحقيبة لا تزال ملآنةً بالماء.

من بين كلّ الأحفاد، كان أحمد الأقرب إلى قلبي. كان يمرّ في الصباح، قبل ذهابه إلى المدرسة، كي يسلّم عليّ، كنت أعطيه خمسين ليرة... وأنا أقول له: "ذكّرني.. في أيّ صفٍّ أنت؟!".

" في الصف الثالث... يا جدّي...!!".

ثم أقول له وهو يقفز باتجاه المدرسة:

"أريدك الأول في الصفّ... يا أحمد...!!".

ويجيبني، دون أن يلتفت نحوي:

"أنا الأول في الصف... قالت المعلّمة..".

أفتّش في دفاتره فأجد على غلاف كلّ منها بطاقةً مكتوباً عليها اسمه وصفه.

عندما خرجنا من القرية، بملابسنا، كما يقولون، إثر هجوم المئات من المسلحين الملثمين، وصلنا القرية المجاورة، ومنها ركبنا سيارةً إلى مدينة حمص.

في بيت شقيقي في حيّ الخضر، كنّا، نروي ما حصل. كانت دموع الحقد والغضب، تنثال من أعيننا.

قال شقيقي:

"أنت يا أبا فرحان، شقيقنا الأكبر. لك صدر البيت، ولنا العتبة... رجلٌ مثلك حرامٌ أن يُضام...!!... هذا الطابق الأرضي... تحت تصرفك أنت ومن معك من أفراد الأسرة... سأنتقل للسكن في الطابق الثالث، حيث لا أحد فيه..!!".

أنا أبو فرحان الخضر... أتشرّد، في آخر العمر... لحظات القهر والحقد تكاد تقتلني.

أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى قائد الوحدة العسكريّة، المتمركزة على طرف القرية. قلت له:

"أريد بندقيةً أو رشاشاً...!!".

أجابني وهو يهزّ رأسه بالموافقة قبل أن يقول:

"هذا حقّكم. سنوزع السلاح لكل قادرٍ على حمله في القرية. لكن نريدك أن تشعل الحماس في نفوس الناس، كي يصمدوا... وأنت أهل لذلك، كما يقولون عنك..!!"

كان اسمه العقيد عبد الحق النفوري، من مدينة "النبك"... رحمه الله، فقد استشهد وهو يقاوم الإرهابيين، في أثناء صدّ الهجوم على القرية. كنت أزوره، بشكل يومي، في المساء، من أجل التنسيق بيننا وبين وحدته، لمقاومة المسلّحين.

سألني ذات مرّة:

"كم عمرك يا أبا فرحان؟!".

وعندما أجبته أنّني في السبعين، قال:

"ماشاء الله... حسبتك في الخمسين...!!".

قال وهو يصبّ كأساً من الشاي ويقدّمه لي.

قلت:

"هل تعلم، يا سيادة العقيد، أنّ هذا العبد الفقير لله تعالى، له سبعة أولاد وسبع بنات، وعشرون حفيداً...!!

لقد زوّجني والدي في السابعة عشرة من عمري".

يقول بتعجب:

"وكلّ أولادك وبناتك من زوجةٍ واحدة...؟!"

"نعم... وخالتك أم فرحان لا تزال صبيّةً..!!".

ضحك وضحكت.

كان اللقاء الأخير بيني وبينه، رحمه الله.

واليوم، بعدما عدنا إلى القرية، وهزمنا الإرهابيين، وعادت الحياة لمجراها الطبيعي، فإنّني سأنفّذ وعدي للشهيد العقيد عبد الحق بأن أزور أسرته وأتعرّف عليها في مدينة "النبك"، وسوف أذكر ما كان بيني وبينه من مودّةٍ وتقدير. فعندما سمعت نبأ استشهاده شعرتُ أنّني فقدتُ ابناً لي. وسوف أقول لأسرته إنّني أودّ زيارة ضريحه، وقراءة الفاتحة لروحه الطّاهرة. سأقول له:

"لولا دمك الطّاهر، ودماء الشهداء لما هزمنا الإرهاب... وعدنا إلى بيوتنا...!!".

أجلس على سطح البيت. الحركة في القرية ناشطة. إنّه موسم الفلاحة، بعد الأمطار المبكّرة هذا العام. مشهد يبعث الثقة بالنفس، يختلط مع مشهد آخر، طارئ، هو مشهد العصابات الهائجة. غير أنّ المشهد الأول يطرد المشهد الثاني... فهو مشهد الحياة والعمل.

هذا أنا، أبو فرحان الخضر، أحمد الله تعالى، وأفخر بشهداء بلدي، وجيشه، لقد انتصرت سورية.

يقطع شرودي صوت مكبّر الجامع في بلدة "المشرفة":

"يا إخوان... جثمان الشهيد عمار رزوق يصل الساعة الواحدة...!!". اللّه يرحمه. أسرة رزوق أعرف الكثيرين منها. ترى ابن من يكون هذا الشهيد!؟. سأذهب للمشاركة في تشييعه. المعركة مستمرة. لن ندع إرهابياً واحداً في سوريتنا... قسمٌ يردّده السوريون.

***

فراشة بيضاء وسماء

حكاية الشهيد عبد الكريم بعلة

من محافظة ريف دمشق

- صحيح أنَّ الظروف الأمنيَّة صعبة، ولكنَّ هذه الأغنام لا بدَّ أن يرعاها أحد، وإلَّا نفقت من الجوع.

فأفاق باكراً على غير عادته، ولم يأخذ ابنه معه، كما اعتاد مؤخَّراً.

قاد القطيع الصغير باتِّجاه البريَّة وإلى جوار نبع الماء في "وادي القصب" ترك الأغنام تسرح، وتأكل ما هو موجود حولها من أعشاب يابسة، ونباتات، ضحلة بسبب طغيان القفر والجدب العميم، وهو يحدس في داخله: "غداً أبيع هذه الغنمات، وأجهِّز صالونَ حلاقتي، وبلا وجع راس!".

ثمَّ جلس "يكسر السفرة" على رغيف طريٍّ، وبضع قطع من الجبن، وهو يفكِّر أن يتحدَّث إلى زوجته، كي يشكرها على هذه الزوَّادة، ولكنَّه خشي أن يزعجها بإيقاظها من نومها الهانئ، فالوقت باكر جدّاً، لذلك كتب لها رسالة sms وكأنَّه بالقرب منها، يشاهدها بأمِّ عينيه الناعستين:

- ما أجملكِ، وأنتِ نائمة، يا حبيبتي.....

وذكر اسمها، فطفح قلبه بالحبِّ، بيد أنَّه تكدَّر، وهو يرى حال البلاد: "لقد طالت الحرب أكثر ممَّا يجب، وآن أن تقوم سورية من كبوتها".

ثمَّ سأل نفسه بصوت مسموع:

- لماذا هذا الاقتتال، والموت المجَّانيُّ، والخراب؟

ما زالت أمنيته أن يبني لأسرته الَّتي تكبر يوماً بعد يوم بيتاً صغيراً، يحتويه مع زوجته، وأبنائه الثلاثة: محمد نور، لميس، ولوريس.

نظر إلى الأغنام، شاهدها متناثرة ترعى من حوله، فتناول بضع لقيمات قبل أن يصدمه دوِّي انفجار قريب. التفت جهةَ الصوت، فإذا نعجة صغيرة تركض بعيداً باتِّجاه أعلى التلِّ حيث حقل الألغام، فلم يستطع الوقوف، وكان من عادته أن يركض برشاقة كلَّما وقف، لذلك ارتمى على الأرض بلا أيَّة حركة.

مذ جاء إلى هذه الحياة بدأ يركض، ويركض حدَّ اللهاث المضني، مع ذلك يبقى مبتسماً طوال الوقت، ويتعجَّب الناس منه...

يعرف كيف يزرع بذور الحبِّ، فيوصل امرأة إلى بيتها آخرَ الحارة الشماليَّة، ثمَّ يعود على درَّاجته الناريَّة يأخذ عن "ختيارٍ" حِمْلَهُ، ويُركِبُه خلفه باتَّجاه الطرف الآخر من البلدة القديمة، يَحْلِقُ لهذا المسكين المهجَّر ببلاش، ويقدِّم لذلك الفقير البائس زجاجة عطر مجَّاناً بمناسبة العيد.

كانت يده بيضاءَ دائماً، وعلى كتفيه تحطُّ فراشات ملوَّنة، تُبهج الروح، يمشي، وتمشي المحبَّة في خطاه، فأندهشُ ممَّا حصل، وأقول في سرِّي: "كأنَّ الموت يختار الناس الطيِّبين ليكونوا في ضيافته، أو أنَّنا نفتقد هؤلاء أكثر من الآخرين غير الطيِّبين، فنعتقد أنَّ الموت يتقصَّدهم، مع أنَّه يتَّسع للجميع".

وقلت للملائكة الَّذين جاؤوا يحملونه إلى السماء: "امكثوا قليلاً قرب نبع الماء الجاري، حيث جلس يكسر سفرته حتَّى أسأله:

- كيف ملأتَ ضلوعك بالحبِّ، يا أخي كريم، هكذا نناديه، فسال دموعاً غزيرة، وكأنَّه الدم ينزف من قلوب أهل الرحيبة/ مدينتك الوادعة لمَّا علموا بالخبر المفجع؟

لقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها لتشيِّعه، وأهجس في حضرته: "حزن عينيك يغوي بالبكاء في انسياح الروح الأليم، وأنت تجيء محمولاً على أكتاف رفاقك، وأصحابك الكثيرين من شبَّان، وكهول، وحتَّى أطفال، وقد غطُّوا نعشك بالرياحين".

ترتجف يد لميس، وهي تخطُّ على دفترها المدرسيِّ: "بابا، اشتقتُ إليك" تشطب الكلمة الثانية، وتستبدلها: "اشتقنا" ثمَّ تضيف كلمة جديدة، فتصبح العبارة:

- بابا، اشتقنا إليك كثيراً.

وتتسارع نبضات قلبها الصغير، بينما تحطُّ على كتفها الأيمن فراشة بيضاء، ثمَّ تطير عالياً، وتغيب عن ناظريها.

كانت إن زعَّلها أحد ما هدَّدته:

- بورجيك لبابا.

تقصد سأشكوك لأبي الذي سيأخذ لي حقّي منك.

وحتَّى الآن مازالت تهدِّد كعادتها، بعد ذلك تمضي باتِّجاه صالون الحلاقة، فتجده مغلقاً على غير عادته، إذ تبقى الواجهة مضاءة حتَّى منتصف الليل، يجتمع إلى جوارها شبَّان الحيِّ، وهم يتسامرون.

وكما تودِّع أمٌّ طفلها الذاهب إلى المدرسة للمرَّة الأولى كانت "رانيا" تودِّعه مع بزوغ الفجر، وهي تحمل له الزوَّادة، فلا ينساها، ثمَّ تنتظره في موعد عودته، بعد أن قامت بتسخين المياه من أجل أن يستحمَّ، وقد أنهت إنضاج الطعام الَّذي يحبُّه كي يتعشَّى، ولكنَّها بقيت تبكي طوال الأيام العشرة الماضية، حين يطالعها كلَّ ليلة بلا انقطاع قمر أسود معتم، وكأنَّه الرغيف المحروق، فتنزف عيناها وليمة حارقة من الدموع السخيَّة، تبلِّل وسادتهما المزدوجة مع أنين جارح من القلب: "فيا عمري، ما أصعب أن تموت مصادفة على مفترق الحياة بشظيَّة صغيرة بحجم حبَّة العدس".

عتمة الليل صارت أظلم، واستشاط الكون غَضَباً تلك الليلة الليلاء، ومع الصبح الدامي حمل ورقُ الشجر خضرته، ليسقطها في الخريف الأصفر، وسريعاً غسلت الشمس يديها من الضياء، ثمَّ هطلت السماء دمعاً أحمر، وأنا أقول لي:

- أحسُّ أنَّني كلَّما فارقت شخصاً أحبُّه أودِعُ جزءاً من جسدي في لحم هذه الأرض.

عاشت المنطقة حالة حزن عام، فبكى الجميع بلا استثناء، امتلأت دارنا بمن نعرف، ومن لا نعرف من أهل "القلمون"، وغيرهم، وسألتُني: "كيف وصل الخبر إلى كلِّ هؤلاء الناس؟ "وكأنَّه ابن لهم جميعاً، وها هم يدخلون علينا، محمرَّة عيونهم ، تدمع بغزارة، وهم يؤكِّدون على مقولةِ: "من مات، وهو يسعى لرزق عياله، مات شهيداً".

السجادة المعلَّقة على الجدار القبليِّ فاضت دموعها، فبدت خيوطها مزاريب دمع متواصل، وعادت ريح الليل صاخبةً، تمارس عويلها المجنون، ونحن نسأل: "لماذا نموت بلا مسوِّغ خلال حرب ملعونة، فيتيتَّم أبناؤنا بعدنا، أيَّتها الحياة؟".

وجدوا في جزدانه الجميل ورقة، رَسَمَ عليها مخطَّطاً لبيته الَّذي يحلم به: غرفتان، وصالون واسع مع مطبخ وحمَّام، وعلى طرفه الشرقيِّ فسحة أرض، سوف يزرعها بأشجار البرتقال، والزيتون، والزيزفون، ودالية عنب...

لكنَّ "كريم" يقوم من غيبوبته الَّتي امتدَّت عشرة أيام عصيبة في مشفى "القطيفة".

لقد صنعت له "رانيا" حساء لذيذاً، وأطعمته بيدها، وهي تسأله:

- ألم تمت عندما انفجر اللغم الثاني، وأصابتك شظيَّة في رأسك؟

يبتسم لها:

- وهل يموت الشهيد؟

هكذا كان يعُدُّ نفسه شهيداً حيّاً طوال الوقت، ثمَّ يقوم بتحضير عدَّة المتَّة، ويدعوها بمودَّته المعهودة:

- تعالي نشرب معاً قبل أن يستيقظ الأطفال.

تُبعد "رانيا" الغطاء عن جسدها بينما الأبناء الثلاثة نيام، لتنهض فزعة، في اضطراب واضح، تفتح باب غرفتها، وتنظر حولها إلى أرض الديار، كما يسمُّونها:

عدَّة المتَّة في مكانها، وثمَّة فراشة بيضاء تطير عنها باتِّجاه السماء، عندئذ يهلع قلبها، وكأنَّه يسقط في هاوية بلا قرار، ويُلجَم لسانها عن الصراخ.

***

2016

وللخطف قصة أخرى

حكاية المقاتل البطل أحمد علي عون

من اللاذقية

يروي المقاتل أحمد علي عون قصة خطفه بكثير من الشغف والدهشة ويقول:

- بعد أن حررنا العديد من القرى في إدلب، وجبل الزاوية، التي تعرضت لرجس الإرهاب منذ بداية الأزمة على سورية، وكل هذه العمليات النضالية المقاومة امتدت حتى عام 2012. وعندما سرنا باتجاه حلب، حيث مهمتنا الجديدة، تعرضنا لكمائن المسلحين، وقاومناهم ببطولة وإقدام، لا نفكر سوى بدحرهم عن أرضنا لتبقى عزيزة كريمة، وقتلنا العديد منهم، وقد كانت نقطة تمركزنا في المدرسة الجوية الفنية، وتحركنا باتجاه العامرية، والحمدانية، والزرزور، والقلعة، ودوار السياسية في حلب، واستطعنا تحرير العديد من المناطق في الشيخ سعيد، وثكنة هنانو، وبعدها إلى مطار النيرب، وأثناء أداء مهمتنا بالتعاون مع إخوتنا في الجيش العربي السوري، برفقة الصديق المقاتل رامي بدور، كانت العمليات العسكرية بأوجها، فاتجهنا إلى السليمانية، وفي الطريق أتاني اتصال من رقم مجهول، وسألني:

- هل أنت النقيب أحمد عون؟

فقلت: نعم.

فبدأ بشتمي، وشتم الدولة والجيش، وقال:

- عناصرك تحت حذائي.

فأيقنت أن هناك عملية خطف طالت رفاقي، وهنا اتجهت فوراً إلى نادي الضباط، وأخبرت قيادتي، وعدت متجها إلى العامرية، وعند وصولي إلى جسر 1070 فوجئت بصورة السيد الرئيس، وعناصر يرتدون الزي العسكري السوري، وهم يحملون الأعلام.

قلبي يحدثني أن هناك أمراً ما غير صحيح، فخرجت عن يسار السيارات، عندها تعرضت لإطلاق ناري كثيف، نزلت من السيارة وقلت لهم:

- أنا النقيب أحمد عون، ولدي عناصر مخطوفون، يجب أن أحررهم.

ولكنهم باغتوني بضربة على رأسي من الخلف، وانهالوا علي كالكلاب المسعورة، لا أعرف من أين تأتيني اللكمات والمباغتات، وأيقنت أنني وقعت بين أيدي الإرهابيين الآثمة.

ويتابع المقاتل أحمد عون حديثه:

- عندما وضعوني في طبون السيارة، رحت أفكر بأسرتي وولدي الصغير جعفر، كيف سيعيش يتيماً؟ وهل سيحمل الرسالة كما حملتها، ويأخذ بحق أبيه وحق الوطن؟ أفكار كثيرة كانت تراودني طوال الطريق، حتى وصلنا إلى طريق ترابية، فقاومتهم وتمكنت من الهرب، ولم أكن أدرك أن هناك من ينتظرني من هذه الكلاب المسعورة، ففوجئت بعناصر مسلحة تندس بين المدنيين، فأمسكوا بي وعاودوا ضربي وشتمي وتعذيبي، ثم وضعوني بسيارة بيضاء نوع كيا فورتي، بعد أن رأيت موتي نصب عيني، قاومت أحد العناصر المسلحة وقمت بضربه، فأطلقوا النار على يدي اليمنى، وعند وصولنا إلى منطقة بجانب مشفى الزرازير وضعوني بغرفة وحدي، وفي اليوم الثاني نقلوني إلى منطقة أخرى، وأثناء وجودي في الغرفة كان هناك شخص أشقر اللون يدعى (حذيفة الزعبي) من محافظة درعا، مهمته استلام الضباط، دخل شخص آخر يلقبونه بالمعلم، ليتولى التحقيق معي وتعذيبي وإذلالي، وطلب مني الانشقاق عن الجيش العربي السوري مقابل حريتي، فرفضت ذلك بشدة، وقلت له لن أموت إلا مرة واحدة، وسأموتها بشرف وكبرياء، فعاودوا ضربي وإهانتي. ويتابع المقاتل أحمد حديثه:

من خلال علبة المناديل الورقية الموجودة داخل المستودع التابع للصالة، عرفت أنني في منطقة تدعى (ستائر حلب - ضهرة عواد) آخر الطريق القديم، بعد ذلك نقلوني إلى (تل رفعت) وكنت في حالة يرثى لها من شدة التعذيب والضرب بالكهرباء والشبح بالحبال، وبقيت على موقفي وإصراري في عدم الانشقاق

والانصياع لطلباتهم، وكان المدعو (أبو محمود الليبي) هو المشرف على أمور تعذيبي وضربي بالسكين على رأسي، وخلال وجودي في تل رفعت تعرفت إلى أحد العناصر القديمين الذين كانوا يخدمون في لبنان عام 2004 وهو أيضا قد تعرف إلي وبادرني بالسؤال:

- ألست النقيب أحمد عون ؟

فقلت:

- نعم.

فقال:

- ألم تعرفني؟ أنا فلان الفلاني، كنت أخدم عندك عام 2004. وتابع:

- ماذا تفعل هنا؟

فضحكت وقلت:

- زيارة.

فشعر أنني أسخر من سؤاله، وسألني:

- من الذي خطفك؟

فأجبته :

- فلان.

فقال :

- إنه ابن خالتي.

ثم قفل الباب وأحضر بعض العناصر، وعرفني إليهم، كان معظمهم ممن خدموا لدي في لبنان بعام 2004.

ويتابع المقاتل أحمد:

- في هذه الفترة بدأ يدخل بعض الأصدقاء والمحبين على الخط للمفاوضة، وأنا كنت قد رحلت إلى تركيا، وبقيت فيها 20 يوماً، وكنت قد فقدت الأمل تماماً، وسلمت أمري إلى الله، فالنجاة من بين أيديهم صارت مستحيلة، لكن الأهل والأصدقاء كانوا يتابعونني بقوة ومحبة وشهامة، وحاولوا التفاوض معهم

والاتفاق على الفدية، وعندما تأكدوا من صحة الفعل لدفع الفدية أعادوني إلى (تل رفعت) حيث تم التنسيق بينهم وبين اللجان الشعبية، ومدير الناحية، والسيد (أبو علي أيمن الكعدي) وتم تسليمي لهم في نبل والزهراء بتاريخ 2012/12/31 بعد أن دفع أهلي الفدية بالمتابعة مع الأصدقاء النبلاء الذين كان لهم الفضل الأكبر في تحريري من بين مخالب المسلحين والخونة وبياعي الوطن.

بقيت في "نبل" خمسة عشر يوماً، ثم نُقِلت إلى دمشق بالحوامة، ومن ثم إلى قريتي في محافظة اللاذقية، حيث كان كل أهالي القرية ينتظرون قدومي بالزغاريد والتهاليل، ولم أصدق أنني عدت إليهم لأحمل ولدي جعفر بين يدي، وكأنني ولدت من جديد، صدقوني هذا الشعور لا تستطيع الأقلام والعبارات أن تصفه، محبة الناس لي، والفرحة الحقيقية التي لمستها في عيونهم التي امتلأت فرحاً ودموعاً بعودتي هي كنز لا يقدر بثمن، وأيقنت أن سورية ما زالت بخير، وسوف تنتصر مادام هناك أحبة وأصدقاء أوفياء يتقاسمون معنا الأفراح والأتراح.

ويتابع المقاتل أحمد حديثه:

- بعد تحريري مباشرة استلمت عملي في مهمة عسكرية جديدة، بمساعدة الأخ الكبير والرجل الصادق (ل.. ج.. س) وله علي فضل كبير، وبقيت فيها حتى 2017 وأنا اليوم أمارس عملي، كمقاتل ضمن صفوف جيشنا الباسل. وحتى تاريخه وأنا مع رجال الجيش نقوم بمهامنا على أكمل وجه في كافة الأراضي السورية، بدءاً من تدمر، الرصافة، دير الزور، البوكمال، إلى ريف حماة، أبو دالية، تل الكرام، الفانات سرجة، مرعايا، ونقدم أرواحنا فداء لهذا الوطن، الذي تسري محبته في عروقنا كما يسري الدم، ونخاف عليه كما نخاف على أطفالنا من اليتم والضياع.

***

تسعة عشر يوماً في عدرا العمالية

حكاية مجازر الإرهابيين في ضاحية عدرا العمالية

ريف دمشق

هو شاهد عيان حقيقي لما جرى من مجازر في ضاحية عدرا العمالية، مجازر قام بها إرهابيو جبهة النصرة ضد أهالي الضاحية من مدنيين، وعائلاتهم بالكامل، الكاتب والإعلامي سمير عدنان المطرود يحكي قصته مع أولئك الإرهابيين القتلة:

غابو... غابو...

قالها ذلك المجرم الذي قدم من أفغانستان ليجاهد هنا في سورية، دون أن يعرف أين هو، ومن يحارب، ويبدو أنه رئيس المجموعة والآمر الناهي، توقفت المجموعة أمام مدخل البناء رقم (186) في الجزيرة الثامنة المعروفة ببناية الدكتور جورج مخول.

كان ذلك يوم الأربعاء الواقع في 2013/12/11 وجميع سكان البناية كانوا يقولون إنها بنايتنا، وبالفعل كانت كذلك قبل قدوم أولئك المجرمين، يقودهم صاحب الزي الأفغاني، يغلب على لباس المجموعة اللون الأسود، وقد أطالوا لحاهم فوق وجوههم القذرة.

كانوا يحملون على صدورهم، وعلى ظهورهم، جعباً ملأى بالمذخرات والقنابل، ويتمنطقون بأحزمة غريبة الشكل، وقد علقوا عليها أصنافاً مختلفة من الأسلحة البيضاء والسوداء معاً.

كانت الساعات في ذلك اليوم المشؤوم تمر بطيئة مثل دهر، ثقيلة وحزينة على أناس لم يتعرضوا طيلة حياتهم لما تعرضوا إليه تلك الأيام، شاهدوا بأم العين كيف دخل المجرمون بناياتهم ومنازلهم، مزودين بكل ما من شأنه إبادة كاملة

لمواطنين مغلوب على أمرهم، عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم، وليس أمامهم سوى الانصياع لأوامر تلك الوحوش الآدمية.

كان السؤال الأول الذي صفعونا به:

- هل بينكم أحد أصله من أحد الجبلين؟

هو السؤال المقيت، يحمل بين كلماته وحروفه حقد العالم كله وهو يرتسم فتنة وفوضى وجهلاً وتخلفاً.

ويتابع الكاتب سمير المطرود:

حين اجتمع الجيران عندي في الشقة، بدأنا نتداول ما علينا فعله، وكانت الكلمة التي قالها جارنا أبو حسين كفيلة بإعادة جولتنا القادمة من الخوف والجزع إلى مربعها الأول (إنهم من جبهة النصرة، انظروا إلى الكاميرا التي ترصد الحارة كلها، ولاحظوا تلك الشرائط السوداء حول جباههم) وهنا قاطعه جارنا الآخر أبو سمير عبد الله شحادة قائلاً: (بل أعتقد أنهم مما يسمى بالجيش الحر، الجيش الكر) أما الدكتور جورج فأكد أنهم من جبهة النصرة، فقد عرفهم من طبيعة عمله في المشافي، حيث يجيئون قتلى ومصابين بالجملة بعد كل معركة لهم مع الجيش العربي السوري.

وهنا دخل أحد الإرهابيين صارخاً:

- الجميع إلى القبو، هيا، غابو... غابو... الرجال وحدهم، والنساء وحدهن، ممنوع الاختلاط.

حينذاك عرفنا أن كلمة غابو تعني القبو. وهنا تذكرت أحد أقربائي، وكان ضابطاً في الجيش العربي السوري، حين تحدث كيف أسروا أكثر من مئتي إرهابي في جبال القلمون، وأغلبهم من الجنسية الأفغانية، وحين سألوهم ماذا تفعلون هنا على أرضنا؟ كان جوابهم:

- جئنا لنجدة فلسطين، ونحن هنا نقاتل الإسرائيليين، فقد أتوا بنا من لبنان إلى هذه الجبال، وقالوا لنا هذه إسرائيل أمامكم.

مضى ذلك اليوم ونحن في الأقبية، لكنهم أخذوا منا الدكتور جورج مخول، ولم يعيدوه حتى فجر اليوم الثاني، وقد ضمدت إحدى أصابعه، بقي عندنا حوالي ساعتين ثم اختفى، ولم نعد نراه.

كان الأفغاني مدججاً بالسلاح، يقف منتصباً بلحيته الطويلة الحمراء، وزيّه الغريب، بينما كان شابّان يقفان على باب الشقة بلباسهم الأسود الكامل مدججين بالسلاح، وكأن كلاً منهما ترسانة مصغرة. سألني الأفغاني:

- أنت صاحب هذه الشقة؟
- نعم، أنا هو.
- هيا افتحها.

والتفت ناحية الدرج الصاعد من القبو، كانت زوجتي أم عدنان قد لحقت بي، لكن الأفغاني باغتها بقوله:

- غابو... غابو...

عادت زوجتي، وأخرجت مفتاح الشقة، ودخلنا، اتجه مباشرة إلى غرفة المكتبة، فوجئ بكمية الكتب، وسألني عن سبب احتفاظي بها، وكأنه لم يرَ مكتبة منزلية في حياته، راح يتجوّل بين الكتب المرتبة على الرفوف، يتمعّن فيها ويبتسم ببلاهة.

ثم انتقلنا إلى غرفة النوم بناء على طلبه، بدأ الجميع بالتفتيش، ورحت أتساءل: وماذا بعد غرفة النوم؟ لا بدّ أنهم سيختلقون أسباباً كثيراً، يتهمونني بها، ولأنهم استفردوا بي بعيداً عن أسرتي وجيراني، اعتقدت أن مصيراً مجهولاً ينتظرني.

أحدهما أشار إلى حقيبة أسفل الخزانة، ثم رمقني سائلاً:

- ماذا تحتوي هذه الحقيبة؟
- بعض الأوراق، تخصني.
- افتحها.
- المفتاح ليس معي، هل أذهب وأحضره؟

- لا، لا عليك، نحن نفتحها بطريقتنا.

مدّ حربة البندقية وخلع الحقيبة بها، كيف يسمح هؤلاء الناس لأنفسهم باقتحام خصوصيات الناس؟ سؤال تبادر إلى ذهني، وقد نسيت أن هذه الكائنات لا تمت إلى البشرية بصلة.

- ممكن سؤال لو سمحتم؟

قلت ذلك مع شعور طاغ بأن الكلمة إن لم تخرج في مسارها الطبيعي فهي تخنق صاحبها، الكلمة مثل الطفل الذي ينمو بسرعة، هو سيتخلى عن الحبو وينطلق.

- ماذا تريد؟

قال أحدهما، بينما الثاني منهمك بتقليب الأوراق.

- عمّ تبحثان؟

- نبحث عن مستمسك يدينك، كي نلحقك بأصدقائك (كخخخخ).

وأشار بيده مقرباً إياها من عنقه، في إشارة للذبح، وحين يئس المفتش من العثور على ما يدينني، ألقى بطاقتي الشخصية على السرير وخرجا معاً، حينها تناولت بطاقتي، وضعتها في جيبي وانطلقت إلى القبو.

صارت الأحاديث والقصص تتوارد إلينا في مخابئنا، جاري أبو سمير عبد الله هو الوحيد الذي يعرف أين أختبئ، إضافة إلى شخص آخر هو عديلي الذي استقبل في شقته ثلاث عائلات من جيراننا في البناية، هو المصير المجهول والمشترك للناس هنا، مصير يجعلهم يتناسون كل الخلافات، ويتفقون بتلاحم طبيعي أمام ما ينتظرهم من مآسٍ، وما حصل لعائلة المهندسة ميسون محلا خير دليل.

كانت عائلة ميسون تسكن في شقة صديقي الإعلامي مفيد خير بك، وكان شهر كانون الأول هو آخر شهر في حياتها، حياتها التي رهنتها للشرف والعزة والكرامة، حين قررت مع زوجها السيد نزار ألاّ يستسلموا لأولئك الإرهابيين مهما كان الثمن غالياً، وكان الثمن حياة العائلة كلها، تقول ميسون:

- لم يكن لدينا سوى قنبلتين، خصصناهما: واحدة لنا، والأخرى للإرهابيين.

واجتمعت العائلة بحميمية نادرة، وكأنه اجتماع الوداع، كلهم ينتظرون دخول الإرهابيين لإنهاء حياتهم بأيديهم، وحين دخل الإرهابيون كانت القنبلة الأولى من نصيبهم، حيث حصدت أرواح خمسة منهم، واختلط الرصاص بانفجار القنبلة الثانية التي أنهت الجميع في الشقة المغلقة.

الأخبار تتوارد عن عائلات أبيدت بكامل أفرادها، سبع عشرة روحاً بشرية أزهقت حرقاً في فرن المدينة العمالية، رؤوس بشرية فصلت عن أجسادها، لتتحول في بعض الأماكن إلى كرات تتقاذفها الأقدام، وأجساد أناس مقهورين يلقى بها من أعالي السطوح، وشقق سكنية تحوّلت إلى محارق لسكانها، كل ذلك جرى على مرأى من الناس المصطفين للفرجة.

وفي الرابع عشر من شهر كانون الأول عام 2013 بدأ اليوم الثالث لحصارنا في الجزيرة رقم 11 استمر خروج المظاهرات المنددة بهذا الهجوم البربري، وتجرأ الناس أكثر، فراحوا ينقلون المازوت من الشاحنات التي ركنها المسلحون الإرهابيون على مفارق الطرق، ليستخدمها المحاصرون للتدفئة.

ويتابع شاهد العيان الحقيقي، الأستاذ سمير المطرود:

كانت أخبار المدينة العمالية في عدرا تتصدر النشرات الإخبارية، كما أعلموني بعد عشرين يوماً، إضافة إلى أنها صارت حديث الناس في المجالس الشعبية والرسمية، وعلى أعلى المستويات، شيء ما يوحي بانعتاق الروح، عدرا العمالية هي البوابة التي تعبر منها الأرواح صاعدة إلى السماء، وتلك البوابة التي تصل السماء بالأرض تعادل البوابة السورية كلها، لذلك أطلقنا نحن سكان تلك الضاحية عليها لقب "سورية المصغرة".

وراحت الأيام تتوالى، ونحن محتجزون في غرفة صغيرة، في قبو ضيق واقعياً، لكنه أكثر اتساعاً مما يخطر في خيال، وكنت كل يوم أسرق من الوقت دقائق قليلة، وذلك بحذر شديد كيلا يراني أولو الأمر الطارئون، أصعد خلسة إلى السطح، يرافقني جاري عبد الله ليحرس هروبي، ويراقب إن كان أحد ما يتعقبني، أحكي مكالمتين، واحدة مع أمي لأطمئنها، وواحدة مع أخي الدكتور

خالد المطرود الذي يطلب مني تفاصيل المكان الذي نختبئ فيه، ويختم كلامه محذراً إيانا من الخروج مهما كانت الأسباب، وألاّ نفتح الأبواب إلاّ لعناصر الجيش العربي السوري، الجيش الذي سيأتي قريباً وينقذنا مما نحن فيه.

في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم قبل الأخير من عام 2013 تعالت أصوات الهتافات من جهة الجزيرة السادسة عشرة، مروراً بالجزيرة الرابعة عشرة، حتى وصلت الأصوات إلى جزيرتنا الحادية عشرة، وتجمعت الهتافات كلها خلف بنايتنا، في المكان ذاته التي كانت الاشتباكات تدور فيه، ووصلت أسماعنا أصوات الرصاص، وهدير العربة المدرعة.

- هي مظاهرة ضد المسلحين.

قالها عبد الله، ثم حمل طفله الرضيع وهمّ بالخروج، بينما كنا جميعاً نستعد للخروج من هذا السجن، قلت لهم:

- كونوا جاهزين، لن أتأخر عليكم.

اقترح عبد الله أن أبقى قرب زوجتي وابني، ونصحني بعدم الخروج لأن لا أحد يعرفني من المتظاهرين، واشتراكي معهم سيلفت الانتباه إليّ، وقد يقع المحظور.

وفجأة توقفت المظاهرة، حيث اعترضتها سيارتان للمسلحين الإرهابيين، توقفت إحداهما ونزل منها أربعة مسلحين إرهابيين بحركة استعراضية، وبدؤوا إطلاق النار في الهواء، ولم تكن المسافة بينهم وبين المتظاهرين تتجاوز عدة أمتار، أما عبد الله فكان قد نزل للاشتراك بالمظاهرة، رفع طفله عالياً بيديه وهو يصرخ بوجه المسلحين:

- (قوصوه... قوصوه يا أبطال).

وخبط مقدمة السيارة بكفه، وكانت تلك الخبطة الشرارة التي أخرجتنا من الضاحية العمالية، السجن الكبير، صرخ أحد الإرهابيين غاضباً بوجه عبد الله:

- لماذا تضرب السيارة؟

وحينها بدأت الحجارة تنهال على السيارة كزخ المطر، ازدادت شراسة المسلحين، وبدؤوا يطلقون النار بكثافة فوق رؤوس الناس وهم يركضون باتجاه السيارة الأخرى، صعدوها وولوا هاربين، بينما كانت السيارة الأولى قد تكسر زجاجها، وأعطبت.

كانت جموع من الناس قد خرجت باتجاه معمل الإسمنت، قلت:

- هذه فرصة لن تتكرر، هيا، لننضمّ إليهم.

وحملنا أرواحنا على أكفّنا، وانطلقنا، لم ينظر أحد إلى الخلف، المشوار طويل، كان ولداي التوءمان يعلقان حقيبتيهما المدرسيتين على ظهريهما، الحقيبتان دون كتب، وإنما ملئتا ببعض الثياب الضرورية، لم نكترث بأصوات الطلقات التي كانت تلاحقنا، تلحق الجموع الخارجة من الضاحية هرباً من أولئك السفلة المجرمين.

أكثر من ثلاثين شهيداً مدنياً من الجموع الخارجة ارتقوا في أقل من ساعتين، كان ذلك في المسير الأول، ولولا الجيش العربي السوري لكانت أعداد الشهداء بالمئات، كانت مدفعية الجيش تراقب مصادر النيران وتقصفها فوراً، حتى وصلنا الحاجز الترابي الخاص برحبة الجيش.

لأكثر من ساعتين ونصف الساعة، ونحن نسير ضمن طابور بشري طويل، السير سريع، مجهد بسبب الخوف، كنا نقابل أناساً يسيرون بجانبنا، وبعكس اتجاهنا، يرتدون ثياباً سوداء، ويضعون على رؤوسهم مناديل سوداء، رجال مسلحون يرتدون زيّ الإرهابيين، يحركون أيديهم لنا، يحثوننا على الإسراع، وعرفنا بعد قليل أنهم من عناصر الجيش العربي السوري، يقومون بمساعدتنا متنكرين بزي المسلحين الإرهابيين.

حين تجاوزنا الساتر الترابي بمساعدة عناصر الجيش لمحت الدكتور زاهر جركين، طبيب الأسنان المشهور في المدينة العمالية، كان صديقي وطبيبي بآن معاً، ركض باتجاهي، حضنني، بكينا معاً كما لم نبكِ من قبل، هنأنا بعضنا بالسلامة، ورحنا نتبادل الأحاديث الصغيرة والكبيرة على حدّ سواء.

مـن أجمـل المفاجـآت أن بطاريـة الجـوال مـا تـزال تحـتفظ بإشـارتي شـحن، إشارتين كافيتين لأتصل مع أخي الدكتور خالد المطرود:

- ألو... ألو... أبا إبراهيم. نحن الآن بين الأيدي الأمينة، أيدي عناصر جيشنا البطل، وهل من مأمن لنا غيره؟!

***

مقابر الجمال

ما جرى في ريف اللاذقية الشمالي

(1)

البداية...

في فجر 2013/8/4 استيقظت باكراً، لأجد هاتفي الجوال ينبض بضوء خافت، مشيراً لورود مكالمة ما، فتحت الهاتف، الذي كنت أضعه صامتاً قبل النوم، لأجد عليه ثماني عشرة مكالمة لم يرد عليها.

فتحت الموبايل مستغرباً هذا الرقم، ولم يخطر ببالي أن تكون الاتصالات من أصدقاء وإخوة يطمئنون عنا، نحن سكان قرى الريف الشمالي في اللاذقية، وكان أغلب سكان القرى المجاورة لقريتي قد استيقظوا على أصوات الرصاص، وقذائف الهاون، وصيحات التكبير...

فتحت الموبايل ليأتي اتصال من أخي ماهر سليم، ويقول لي:

- الإرهابيون دخلوا قرانا، ولا نعرف شيئاً عن القرية وماذا حصل فيها.

أخي ماهر يسكن جاري في دمشق، وكان قد سمع قبلي بالهجوم.

أغلقت الهاتف معه، وبدأت أتصل على رقم زوجتي عواطف معروف، وكان الصمت يرن ويرن إلى أن ينطفئ، جربت الاتصال على الهاتف الأرضي، أيضاً لا أحد يردّ، وبعد عدة محاولات على الموبايل فتح لجزء من دقيقة، لأسمع أصوات التكبير، وصوت بكاء لزوجتي، ثم اغلق الخط للأبد.

طرقات الباب عندي أيقظتني من الرعب والشرود، ركضت لأفتح الباب، كان أحد الأصدقاء مع ابنه قد جاء ليخبرني بالهجوم على قريتي، وأنه قام بالاتصال بوكالة سانا ليخبرهم بهذا الخبر، ثم مضى وهو يقول:

- لا تخف، بإذن الله لن يصيبكم شيء، لأن الجيش سيرسل الطيران، وسيتم إنقاذ الجميع ...

اتصلت مع أقرباء زوجتي، ومنهم عمها سهيل معروف، قال:

- والله لا أعرف شيئاً عنها، ولكن أخبروني أنها هربت مع صغارها، وربما تكون مختبئة في الأحراش، وعندما تحين الفرصة سيهربون.

كنت قلقاً خائفاً وأنا أتصل من شخص لآخر، لأحظى بأي بارقة أمل، وأخيراً اتصلت مع ابن عمي، الذي يجاور بيته بيتي، مرات عدة، لكنه لم يردّ، عندها أدركت أن المصيبة قد وقعت، وأن أطفالي وزوجتي وأهلي ليسوا بخير.

نزلت إلى الشارع، وكان قد وصل ابن أخي، العسكري مازن سليم، الذي تعرضت أسرته أيضاً للمصير ذاته، تشاورنا قليلاً ماذا نفعل، وبعد قليل أستأجرنا سيارة تاكسي، وقررنا الذهاب إلى الضيعة، أو لنقل لأقرب قرية محاذية لها.

ركبنا السيارة ومضينا، وكل الطريق وأنا أبكي وأتصل، لعلّ هناك أي بارقة أمل...

بعد عدة ساعات، وصلنا إلى أقرب قرية مسموح لنا الوصول إليها، إنها قرية القليعة، المطلة على قريتي، وتبعد عنها حوالي خمسة كيلومترات، كان عناصر الجيش والدفاع الوطني قد تمركزوا فيها، ومباشرة صعدت أعلى القمة، ونظرت بعيداً حيث قريتي، كان الدخان يتعالى من أشجار الزيتون المحروقة، وغابات السنديان، وأصوات الرصاص يعلو من بعيد وكأنه يخترق قلبي....

(2)

شهود عيان حقيقيون...

في تلك القرية التي تسمى (وطا عرامو) أو قرية القليعة، كنت ألتقي مع الفارين من قرانا، والذين أغلبهم فرّ بثياب النوم، وكل واحد منهم يروي ما حدث بطريقة مرعبة.

أحد الناجين من قرية (الحنبوشية) واسمه فياض مريم قال لي:

- رأيتهم كيف أطلقوا النار على زوجتي وأولادي الصغار، إنهم كالوحوش، لا يفرقون بين طفل وجندي، بين عجوز وامرأة.

كنت أتنقل من جهة إلى جهة أخرى، لعلّي أجد أملاً واحداً عند أحد، الجميع محبطون، والجميع ينتظرون ماذا سيفعل الجيش المتاخم على تلك التلال القريبة.

مضيت نحو قائد عسكري ميداني، وقلت له:

- جل ما أخشاه أن يكون أطفالي مختبئين في سقيفة الحمام، لأننا كنا نقول لهم سابقاً إذا دخل المسلحون في يوم من الأيام أسرعوا واختبئوا في سقيفة الحمام.

قال لي:

- إذا تأكدت من هذا الخبر سأرسل لك فريق كومندوس وأحررهم.

الأنباء التي كانت ترد كل ساعة عن المسلحين توحي بأنهم قوة منظمة، ومسلحة بأحدث القناصات الأوتوماتيكية، وكافة أنواع الصواريخ، وغيرها من عربات الدوشكا ....

كان الضابط يشرح لي أن القيادة تعدّ لهجوم معاكس، وأن الوقت لن يتأخر كثيراً في الهجوم.

كان هذا هو الأمل الوحيد الذي ننتظره لرؤية أطفالنا وأهلنا من جديد.

كنت أسأل عن أخوتي كلّ من أراه من الناس، كان الجميع يقولون:

- على الأغلب لم يبقَ لديك إخوة.

وأبي العجوز، وعمتي الضريرة، هل حقاً يمكن لهم أن يقتلوهما؟؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عصراً، وأصوات طلقات القناصات نسمعه في الفضاء، يعبر قربنا ليزيد من قلقنا وخوفنا.

قال أحد الضباط:

- عليكم بالمغادرة، القناصون على الجبال البعيدة يرمون باتجاهنا، وأنتم لا تلبسون أيّة دروع أو خوذ، وأخاف عليكم من طلقاتهم.

عدنا في المساء إلى اللاذقية، وملايين التساؤلات في رؤوسنا.

في المساء ذهبت مع ابن أخي إلى بيت ابنة عمي (نجاح سليم) الواقع في ضواحي اللاذقية، وكان هناك العشرات من الناجين قد اجتمعوا عندها، وكل واحد منهم بدأ يسرد لنا فظائع ما رأى وسمع، ومن الناجين كان صهري مروان سليم، وأختي ليلى سليم التي تحدثت والبكاء يعلو صوتها، وقد بدأ صهري بالنحيب أكثر منها، مما أفقدني صوابي، وهما يقولان:

- ربما قتلوا أولادك كلهم، لأنهم يقتلون كل من يتحرك على الأرض.

(3)

التواصل مع الأهل...

أتطلع إلى وجوه الجميع، الموت مرّ بقربهم جميعاً، لكنه أخطأ التسديد، فمن تواسي والجميع منكوب؟؟ من تعزي والجميع اخترقت قلوبهم رصاصات الغدر؟؟

رأسي شبكة رادار لا تتوقف عن الدوران، أتذكر أولادي الصغار، وأتذكر زوجتي وأبي وإخوتي، هل حقاً هم الآن ضحايا؟ وكيف؟ ولماذا يقتلون؟ وهم من بذروا الأرض بالأخضر، وسقوا شجرات التفاح بعرق جبينهم؟!

توقفت عن البكاء، غسلت وجهي بماء بارد، أكلت لقمة، وسألت عن أمي العجوز، هل نجت؟؟

قالوا:

- أمك بخير، وقد كتب الله لها النجاة، وهي الآن في (دعتور بسنادا)

ركبت سيارة السرفيس، واتجهت إلى أمي، كانت تبكي وتولول، حضنتها وبكيت على صدرها كطفل، سألتها عن أولادي، عن أبي، عن إخوتي، وكيف نجت هي؟؟

قالت:

- استيقظت باكراً أنا وأخوك كاسر، وذهبنا لقطاف شتلات التبغ، كانت الساعة الخامسة فجراً، سمعنا أصوات قذائف، وقد ظننت أن الجيش هو من يقوم بإطلاقها، فجأة سمعت أصواتاً تصرخ الله أكبر، ورجال يركضون باتجاهنا، رجال ملثمين، لم يكن بيني وبينهم سوى بضعة عشرات من الأمتار، ركضت أمامهم، وهربت باتجاه الأحراش القريبة، ولم يطلقوا عليّ الرصاص، أما أخوك كاسر فقد تركني، ولم أعرف أين اتجه.

- أين أبي؟ أين أولاد رامز؟ أين أخي ناظم؟ أين جاسر؟ أين... أين؟

كانت تبكي لأنها كانت قريبة من بيتي، ولم يخطر ببالها أن توقظ أسرتي، وتنبهها، أو توقظ أسرة ابنها الآخر (ناظم سليم) وزوجته الممرضة (رحاب التزة) لأنها كانت تستبعد، كما قالت، أن يكون المسلحون قد وصلوا قريتنا.

بنات أخي يتصلن بي ويقلن:

(عمّي، أختي ثريا أصيبت، وهي تنزف، نحن هربنا، بس هي أصيبت وما قدرت تهرب، رموا المسلحين بالصالون قنبلة، وأمي ربطت رجلها بقطعة قماش، وهي عم تنزف، ونحن كنا متخبايين تحت الصوفاية، وقدرنا نهرب)

سألتهنّ عن زوجتي وأطفالي، قلن:

(شفنا زوجتك ساندة أمي، والمسلحين كانوا حدّن)

اتصال آخر جاء من ابن عمي، يقول لي:

- اطمئن، أولادك وزوجتك بخير.

ابنة أخي، بتول سليم، كانت طالبة في الصف التاسع، ولديها موبايل، أرسلت منه رسالة تقول فيها:

(نحن محتجزون ببيت أبو حسين أيمن إبراهيم، نحن بخير، بس ما يضرب الطيران البيت)

ارتحت قليلاً من هول الموت، وبدا لي الوضع أفضل مما عشته طيلة حياتي، زوجتي وأطفالي رهائن، لا بأس، لا بدّ من حل، وأنا الذي تخيلت أن أطفالي وزوجتي قد قتلوا، وعلقت أجسادهم في ساحة القرية، كما يفعلون لأجل الرهبة، وبث الرعب في نفوس المدنيين ...

أمضيت الليل وأنا أتكلم مع كل من أعرفهم، ولم يبخل بالاتصال معي كل من عرفني طيلة نصف قرن، والجميع يطالبني بالصبر والحكمة.

(4)

مشاهد أولى من الجرائم...

استيقظت باكراً، على هاتفي عشرات الرسائل تطمئن عني، أمي استيقظت باكراً أيضاً، وأقسمت أن عينها لم تنم، تبكي وتسأل عن أولاد إخوتي، عن أبي، عن الجيران، وماذا سنفعل؟؟!

كنت أواسيها كاذباً، وأقول:

- يا أمي، من دخل قرانا هم جيراننا من أهل (سلمى) و(الحفة) و(دورين) ونحن وهم جيران من مئات السنين، لن يؤذوا أحداً من المخطوفين، أو المخطوفات.

كل شيء كان يدعو للرعب، وخصوصاً أن المجموعات المسلحة أدخلت معها كتيبة داعش المشهورة بجرائمها الوحشية، مع عشر فصائل مسلحة، من بينها الجيش الحر، وصقور العز، وأحرار الشام، وكتيبة المهاجرين، وكتيبة أحمد حسينو.

اتصل ابن خالي ليقول لي:

- افتح اليوتيوب، لقد بدأ المسلحون بنشر مقاطع فيديو للشهداء من قرانا، فقط اكتب (غزوة عائشة أم المؤمنين) لترى كل ما نشروه.

فعلاً كانت الصور مرعبة، جثث ملقاة على قارعة الطريق، وقد صوّروها عن بعد، كي لا يتم التعرف إليها، وأنا أنتقل من مقطع لآخر، رأيت صورة واضحة تماماً لأخي (كاسر) وقد ثقب جسده بالرصاص في كل مكان.

الجثة مرمية على الأرض، والدماء قد غطتها بالكامل، وقد وضعت صورة للسيد حسن نصر الله قرب رأسه، وكتبوا تحت هذه الصورة:

(أزلام حزب الله)

انتقلت للمقطع الآخر كانت صورة لأخي (جاسر) وقد اخترق الرصاص جسده أيضاً، حتى بدت جثته لي كأنها غربال مثقب.

صرخت: يا الله... أين العدالة؟ وما هو ذنبهما، وهما العاجزان اللذان أعفيا من خدمة الجيش، فأخي كاسر فقد إحدى عينيه وهو صغير، والآخر لديه ضمور عقلي.

يا عصابات الثورة... هل انتصرتم عليهما، وهما العاجزان عن رفع عصا بوجوهكم؟؟!

كيف أخبر أمي بما رأيت؟! غامت عيناي ببحر دموع، وتطلعت بأمي التي تنتظر مني خبراً عن أي شيء يعيد لها الأمل بعودة أحد من أبنائها...

بدأت القصص تنتشر عن كيفية دخول المسلحين لتلك القرى بسرعة النار في الهشيم، وبدأت أبواق المسلحين تعلو في كل مكان، حتى إن قناة الجزيرة صارت تصور وتبث من وسط تلك القرى، وتتحدث عن بطولات المسلحين في احتلال أربع عشرة قرية في مدة لا تزيد عن يومين، والحقيقة هي أن هذه القرى عبارة عن تجمعات سكانية صغيرة، أغلبها يتراوح عدد سكانها ما بين مئة نسمة إلى ألف نسمة.

وهذه القرى هي (إنباتة - الحنبوشية – برمسة - بارودة - بيت الشكوحي – بلوطة - صليب بلوطة - أبي مكة – الخراطة – البلاطة – أستربة – القليعة - الكنفة – الخنزورية).

(5)

حتى الصور تحكي...

بدأت وسائل التواصل الاجتماعي بنشر فظائع الإرهابيين، تلك الفظائع التي يسمونها انتصارات.

أول الصور التي رأيتها، بعد صور أخوتي، كانت صورة لفلاح اسمه (وهيب شعبان مريم) وكان قد استيقظ باكراً ليسقي شتلات الفاصولياء، في أرضه، في قرية (الحنبوشية) وكانت الصورة واضحة تماماً، ذُبح من عنقه، والدماء تغطي المكان، واللافت أن الصورة تضم كيس تبغ بلدي قرب يديه، أما الصورة الأخرى فكانت لشاب أيضاً من القرية نفسها، واسمه (أيمن مريم) وقد حاول المقاومة ببارودة روسية على ظهر بيته، لكنهم قتلوه.

تتتالى الصور، وأيضاً لنفس القرية، صورة أخرى لصديق طفولتي (هاني شكوحي) وقد ذبح من عنقه، صور بعيدة لجثث مقطوعة الرأس، صور للشيخ (بدر غزال) وبدا عليها التعذيب والإهانة ...

صور... صور تجعلك تصرخ من أي سلالة خرج هؤلاء الذين يدعون أنهم خرجوا لمناصرة الإنسان المظلوم، وإعادة حقوقه؟ من يشغلهم ؟ وما هو الهدف من تخريب هذا النسيج الاجتماعي السوري؟

أما المثير للدهشة كان تصريح وزير دفاع المسلحين (سليم إدريس) الذي قال:

- سنتّجه نحو اللاذقية، ونحررها، وكان قد ذبح مع عصاباته الكثير من الفلاحين، وكانت التهمة واضحة، وهي مناصرة الدولة السورية.

كان بعض الأهالي قد اختبؤوا في الأحراش، ولمدة تزيد عن عشرين يوماً، وبعضهم بقي ثلاثة أيام مع أطفاله ينامون في الأحراش، يسمعون حديث المسلحين، ويشاهدون فظائعهم، منهم (محمد قصيبة) و(كاسر شحادة) الذي روى لي كيف كانوا يعبئون الأطفال والنساء في شاحنات، وينقلونهم نحو قريتي دورين وسلمى.

لم أخبر أمي بما رأيت في تلك الشاشة، حبست دموعي، وقلت لها:

- الدولة تقول للمسلحين يجب إعادة المخطوفين والمخطوفات، وإلا سنهاجمكم أينما تذهبون، وأننا نجهز للمعركة التي ستقصم ظهوركم.

قرأت في عينيها ما يشي بأنني أكذب، وأنني أخفي عنها أشياء لا أريد لها أن تكسرها.

(6)

اتصالات أخرى...

عند العاشرة تقريباً من صباح ذاك اليوم، توجهت نحو اللاذقية بمفردي، واجتمعت مع باقي الناجين قرب فرع الأمن العسكري، لنسألهم عن مصير المخطوفين والمخطوفات، وما هي معلوماتهم عن أماكن وجودهم، وكان الرد أن رئيس الفرع ذهب إلى الريف الشمالي ليشرف بنفسه على سير العمليات، والنزوح من تلك القرى نحو اللاذقية، فعدنا واتجهنا نحو مديرية الأوقاف، لنلتقي الشيخ زكريا سلواية، والشيخ غزال غزال، وكان ردّ الشيخ زكريا سلواية، مفتي اللاذقية، أنه اتصل مع المشايخ في مناطق المسلحين تلك، وحضهم على منع الفتنة، والمعاملة الحسنة والإنسانية للمخطوفات.

ساعات النهار تمرّ عليّ، وكأنها قرون من الزمن.

ماذا أستطيع أن أفعل في وجه هذا الخراب؟؟

قالت لي امرأة تعرفني على الهاتف: (ابكي يا بني ابكي، لا تحمل الهم، بيقتلك).

في كل مكان أنظر إليه كان السواد ينتشر، يغطي كل بسمة يحرق كل أخضر.

واللاذقية التي كانت عروسة كل المدن، رأيتها تشبه جهنم، وأنا أتذكر أطفالي، وهم الآن خارج منزلي، وقد شاهدوا كل هذا العنف والقتل والمجازر.

كل اتصال كان يقوي من عزيمتي، يدفعني للتشبث بالحياة، والعمل على إعادة أطفالي وزوجتي إليّ.

في المساء، كان أغلب الناجين قد اجتمعوا في منطقة تسمى (أرض الصوفي) في بيت (قحطان معروف) وكانت كل الأسئلة تدور عما سنفعل لأجل إعادة المخطوفات؟؟

قال أيمن إبراهيم:

- هل تعلمون أن كل المسلحين الذين هجموا على قرانا لهم أهل وأخوات وزوجات في اللاذقية؟ وإن لم يرجعوا زوجاتنا وأخواتنا وأبناءنا، سنعمل على خطفهم، ونبادلهم مع مخطوفاتنا..

كانت الآراء متباينة، ورفضت الفكرة تماماً، لأنني أعتقد أنه لا يجوز أن تقابل القبح بالقبح، وأن الدولة هي من يحق لها أن تكون سيدة الموقف في هذه الأمور.

كل شيء معتم عليه، لا اتصالات، ولا أي شيء يدل على مصير مخطوفينا، أحياء هم، أم أموات.

انتهى اللقاء، واتفقنا على أن ننزل كل يوم إلى دوائر الدولة، ونضغط على كل المسؤولين، لأجل الإسراع في فتح باب المفاوضات، وإعادة أبنائنا.

في اليوم الرابع أو الخامس...

تلقيت أتصالاً من أحد الخاطفين، يقول لي بالحرف الواحد:

- لا تقوموا بأي عملية خطف، لأننا نمتلك فتوى شرعية تقول بالحرف الواحد (يحق لنا ذبح المخطوفات، وذبح أبنائكم).

قلت له:

- نحن وأنتم (أقصد أهالي دورين وسلمى) جيران منذ قرون، أعطني دليلاً واحداً على أن أحد سكان تلك القرى اعتدى على أحد منكم، نحن نشاركم أفراحكم وأحزانكم منذ أكثر من قرن، فلماذا كسرتم وخربتم ما بناه أجدادنا وآباؤنا مع أجدادكم وآبائكم من ودّ وخير؟

قال:

- أنا لا أفهم هذه اللغة، كل ما أعرفه أنكم موالون للنظام، والفتوى تقول: (كل موالٍ هو عدو).

كان اتصاله، الذي استمر عدة دقائق، رغم كل ما يحمله من عنف، مريحاً لأعصابي، فأنا على الأقل استلمت طرف الخيط الذي يربطني بأولادي.

(7)

بداية الأمل...

تتالت الاتصالات الهاتفية، وجلّها يطالب بمقايضة بين المخطوفات، وبين قادة للمسلحين.

كانت طلبات المسلحين متباينة، فكل فصيل، أو كتيبة له طلبات مختلفة عن الآخر.

أحد المسلحين طلب مني المقايضة على أبنائي مقابل أربعة ملايين ليرة سورية، وحين أقسمت له بأني لا أملك من المال سوى عشرين ألفاً، قهقه وقال:

- أنت تكذب، قائدكم بشار الأسد يقبضكم بالدولار.

قلت:

- يا رجل أولادي عندكم، وبإمكانكم أن تسألوا أي أحد منهم عن عملي، وكيف عملت، واستأجرت دكاناً صغيراً أعتاش منه في ضواحي دمشق، الضواحي ذات السكن العشوائي، وإني خريج جامعة دمشق، ومنذ عام 2000 وحتى الآن لم أحصل على وظيفة، وعملت تاجر شنتة لمدة ثلاثة أعوام، حتى لا أموت من الفقر والعوز.

ثم أضفت:

- يا أخي ما ذنب أطفالي وأطفال تلك القرى؟ ما ذنب النساء اللواتي جلهم عجزة وفلاحات؟ ألم نكن جيران ذات يوم؟ ماذا بدر منا تجاهكم؟ ألم تأكلوا

في بيوتنا؟ ألم تحصلوا على مزايا قدمتها الدولة لكم قبلنا بعشرات السنين؟ هل تعلم أن الهاتف والماء لم نحصل عليهما إلا بعد 2010؟ هل تعلم أن الكهرباء جاءت إليكم منذ سبعينات القرن الماضي، وأنا الذي لم أرها إلا في الصف الثامن؟

هل تعلمون أن ما تدره السياحة عليكم في مصايف سلمى ودورين، خلال فصل الصيف فقط، لا نجنيه في سنوات؟ فأية مزايا تتحدث عنها؟؟؟

كان الشرح يطول، وكان الصمت أيضاً يطول من الجهة الأخرى.

وفي اتصال من شخص آخر، كان يطالبنا بمبادلة بينهم وبين أربعة من القادة الشيشان، وآخرون كانوا يطالبون بقادة ليبيين وأفغان وتركمان، وبمسلحين من كافة مناطق سورية، وكان ينتهي كل اتصال بأمل أننا اقتربنا من حل ما، ولكن كانت كل الحلول بعيدة.

بعد عشرة أيام من الخطف، صارت مطالب الخاطفين أن ننزل إلى شوارع اللاذقية، ونتظاهر ضد الحكومة.

وبدؤوا التحريض قائلين:

- لو أن هؤلاء المخطوفات من عائلات بيت الأسد، أو شاليش، أو مخلوف، لما تركهم النظام يوماً واحداً بلا تفاوض.

رؤساء الأفرع الأمنية في اللاذقية كانوا يطالبون أهالي المخطوفات بالتواصل مع الخاطفين، ومعرفة كل الأمور من خلال الاتصالات.

رئيس فرع الأمن العسكري في اجتماع مع الأهالي، أقسم لنا في حال معرفة مكان وجودهم سيرسل فريق كومندوس ويحررهم.

في مساء ذات يوم، جاء اتصال من رقم غريب، يبدو تركياً أو دولياً وقال لي:

- مرحبا... خود احكي مع بنتك حنين.

رقصت، طرت، وشعرت أن الحياة عادت من جديد لروحي المتعبة، وبلهفة وشوق اجتمع الجميع حولي، ليسمعوا ما تقوله حنين لي:

- بابا... بابا...

والبكاء صار سيد الموقف مني ومنها، اختلطت كلماتنا بالدموع، وسألتني عن أمها، وعن أختها لجين، وسألتها:

- ألم يذهبا معكم؟

قالت:

- لا، فقط معي جوى ووجد.

وكان عمر وجد أقل من ثلاثة أعوام، وجوى ستة أعوام، وحنين ثمانية أعوام.

طلبت أن يسمح لي بالحديث ولو لدقيقة إضافية، لكنه رفض وقال:

- نحن نعالج ابنتك من طلق ناري أصاب ساقها.

انتهى الاتصال وملايين الأفكار تدهمني ...

أين زوجتي وابنتي لجين؟؟

بعد عشرين يوماً، بدأ الجيش بهجوم مضاد، وحرر تلك القرى، ليتكشف الكثير من الحقائق، ونعرف الكثير من الأسرار عن المفقودين والمخطوفين.

بعد دخولي قريتي، أسرعت إلى دخول بيتي، علني أعثر على أي شيء يشير إلى وجود زوجتي وابنتي، كان على جدرانه الكثير من الشعارات الطائفية البغيضة، وعلى بابه مكتوب دولة العراق والشام.

(8)

مقابر جماعية، وجثث مشوهة...

لا حياة في بيتي، بل مجرّد آثار لكائنات متوحشة، دخلته في غفلة عنا.

كل الثياب مرمية على الأرض، ومكتبتي التي جمعتها على مدار نصف قرن، مرمية في أنحاء البيت، وعلى أحد الشبابيك رأيت مجموعتي الشعرية (لنجالس المطر) وقد سكنتها رصاصة.

وشبابيك البيت أغلبها محطم، وقد اخترقها الرصاص....

هذا البيت لا حياة فيه، أين اختفت ضحكات أطفالي، وابني وجد الذي لم يتجاوز عمره الثلاثة أعوام أين هو الآن؟ وكيف يعيش؟ ومن يعتني به؟ وجوى، وحنين التي أصيبت بطلق ناري، من يطعمهما ؟؟

آلاف التساؤلات تدور في رأسي، والجواب كان دائماً لن أنهزم وستعود الحياة لهذا البيت.

خرجت على أصوات لرجال الشرطة المدنية تقول:

- يجب أن نبحث عن المقابر الجماعية.

ركضت معهم باتجاه الشرق من قريتي، حيث كان جاري (أيمن إبراهيم) يشير إلى جوار بيته قائلاً:

- هنا كانت حفرة عميقة، كنت أريد أن أجعل منها خزان ماء مطري، وقد ردمت، يبدو أنها مقبرة.

لم يطل الوقت حتى جاءت فرق الدفاع المدني، وبتوثيق من الإعلام، وبعض وكالات الأنباء العالمية، نبشوا المقبرة، وبدأت الفظائع تظهر، جثث بلا رؤوس، وأول من تعرفت إليه من خلال ملابسه (شادي إبراهيم).

كان عامل بلدية في ناحية سلمى، وكان يعاني من نقص في طول قدمه، رأيت جثته بلا رأس.

جثث مكومة فوق بعضها، وأغلبها مذبوح، ومطعون بضربات سواطير، أو فؤوس حادة ...

ها هي جثة والدي العجوز، وقد أخرجها الدفاع المدني، وكان عنقه مذبوحاً، وقد تعرفت إلى جثته المتورمة من خلال وشم على ساعده، والجثة الأخرى التي تعرفت إليها كانت لعمتي الضريرة (نسيبة سليم) والتي تجاوز عمرها الثمانين عاماً.

هنا أيضاً خرجت جثة لفتاة جامعية، وقد تعرفنا إليها من خلال هويتها الشخصية، وبطاقتها الجامعية، إنها ابنة (وفيق إبراهيم) الذي أبيدت عائلته بكاملها، طفلاه، وزوجته، وابنتاه الشابتان.

أما الجثث الأخرى فكانت ممحوّة الملامح، وفي وجوهها طعنات، وضربات لآلات حادة.

تجمّع الأهالي حول جثث الضحايا، وبدأ النحيب والشتائم ...أي حقد، أي فكر تحملونه أيها الثوار، وهل لقتل فلاح أو فلاحة كانت ثورتكم؟؟!!

حملت الجثث في أكياس بيضاء، ونقلت إلى مشافي اللاذقية لمعاينتها من قبل الطبيب الشرعي.

وكانت المقبرة تضم ثلاثاً وثلاثين جثة لنساء وعجزة وفتيان وفتيات.

انتقلنا مع الدفاع المدني والشرطة إلى القرية المقابلة لقريتي (الحنبوشية) وبدأنا البحث عن ملامح الأرض المتغيرة، علنا نعثر على مقابر جماعية أخرى.

سمعت أحدهم يقول:

- هنا على السطح عدة جثث.

وكان هذا السطح بيت خالي (علي درويش)

ومن خلال المعاينة للجثث، كانت جثة زوجة خالي (منة شبلي) وحفيدتها طالبة بكالوريا، وابنتها الجامعية (نورا درويش) وابنها العشريني (يزن درويش)

تم قتلهم وهم عزل على سطح منزلهم، وتم نقل جثثهم أيضاً إلى المشفى الوطني في اللاذقية.

في أسفل القرية صاح الشرطي:

- هنا مقبرة.

وبدأ رجال الدفاع المدني الحفر، أخرجوا منها عدة جثث، منها جثة خالي (علي درويش) وخالي الآخر (شريف درويش) وابن خالي (بركات درويش) وابن خالي الآخر (منيف درويش).

عدة مقابر أخرجوا منها خمساً وأربعين جثة، أغلبها مشوه، ومقطع الأطراف.

انتقلنا بعدها إلى قرية (إنباتة) وأيضاً ليتم فتح عدة مقابر جماعية.

في ذلك اليوم بلغت الجثث التي استخرجت من المقابر الجماعية مئة وست جثث.

أما قرية (بلوطة) فقد عثر على المقبرة الجماعية بعد عدة أيام في أرض زراعية، وتضم جثثاً لنساء عجزة، من بينهم (سكينة ديب).

أما الجثث التي كانت مرمية دون دفن، فكانت لعمي (كريم سليم) وكانوا قد ذبحوه في داره، وهو الذي تجاوز عمره أكثر من ثمانين عاماً، وابنه (عذاب سليم) الذي رمي بالرصاص، وكانت جثته مرمية في أرض زراعية بلا دفن.

أين اتجهت في تلك القرية أشم رائحة الموت، وأرى الجثث موزعة في كل أرض وبيت، جثة لابن عمي المدرس (سمير سليم) وابنه الجامعي (حيدر سليم) جثث تقشعر لها الأبدان.

(9)

بيوت كانت بيوتاً...

البيوت المسروقة، أو المحروقة تذكرك بأفلام الرعب ...

بستان التفاح الذي زرعته بمناسبة ولادة ابنتي لجين كان محروقاً،

سيارتي التي حلمت يوماً باقتنائها، وتعب العمر وضعته ثمناً لها، وجدتها محروقة بالكامل.

سطح منزلي ممزق بقذائف الهاون، كل شيء... كل شيء تحول فجأة إلى رماد.

زوجتي حبيبة عمري (عواطف معروف) تلك الإنسانة النبيلة، التي كانت تفيض بالعطاء والحنان على بيتي، أضحت وبلمح البصر غائبة عن هذا البيت الذي بنيناه بعد عراك مع الحياة، ولمدة عشر سنين، أصبح مكاناً تفوح منه رائحة الموت والخراب.

ضحكات أطفالي صارت دموعاً على جدرانه، أي عدالة يا ربي أن يأتي الشيشاني، أو التركماني، أو الليبي، أو العراقي، ليطردونا من بيوتنا، مسلحين بالحقد الطائفي، وبفتاوى تبيح لهم كل شذوذ في الكون؟

كل شيء مسروق، حتى أسلاك الكهرباء من جدران بيتي قد نزعت.

أتوجه نحو قرية بارودة، لأسمع بكوارث تشيب لها رؤوس الأطفال، ابنتا أختي قتلتا قنصاً عندما حاولتا الفرار بسيارة، حيث سدد عليهما الإرهابيون رصاصهم الحاقد، فاستشهدتا (سارة بدور) و(هيفاء بدور).

العجوز الضرير الذي تجاوز عمره الثمانين عاماً مع زوجته (ساميلا) وابنته وابنه، أيضاً تم إخفاؤهم بالكامل، عائلات بكاملها أبيدت مع أطفالها من عائلة القصيبي، منهم غسان قصيبي، وزوجته، وأولاده، والكثير من العجزة والصبايا اللواتي حاولن الفرار.

مقابر جماعية أيضاً في هذه القرية التي أبيدت أيضاً، وخلت تماماً من سكانها.

وفي واد عميق، توجد قرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها المئة نسمة، قرية تسمى (برمسة) أيضاً أبيدت عائلات بكاملها، وخطفوا نساءها وبناتها وأولادها الرضع، ومن تجاوز عمره الرابعة عشرة من الفتيان كانوا يقتلونه، ومباشرة أمام أهله، وبعض الفتيان أخذوهم رهائن، وحتى الآن لم يعودوا...

في مقطع فيديو بثه المسلحون، تظهر فيه ابنة خالي، وعمرها تجاوز السبعين عاماً، وكانت مريضة، ومفاصلها لا تحملها، يظهر مسلح مسن، وبلحيته البيضاء يقول انظروا كيف نعامل أسرانا وكان يسندها بكتفه.

وعندما دخل الجيش وحرر القرية، وجدناها مقتولة، على بعد عشرين متراً، بطلق ناري في رأسها، بعد تصوير ذاك الفيديو.

(10)

وردة أمل...

كل القرى التي دخلها الإرهابيون، كانوا يصورون إنجازاتهم وبطولاتهم، ويعدون بالمزيد، وبكثير من الكلام الطائفي يبذرون الكون، وكل ظنهم أن الجميع سيترك أرضه ومنزله، ويفر هارباً دون قتال، ولذلك عملوا على ضخ إعلامي رهيب، حيث نشروا الكثير من مقاطع الفيديو على اليوتيوب لمحاكمات ميدانية صورية لشباب بعمر الورد، وما إن يُسأل سؤالاً واحداً، وقبل أن ينهي جوابه يطلقون الرصاص على رأسه وباقي جسده.

في كل قرية كانت مقابر جماعية، وكثير من الجثث المقطعة والمتناثرة في الدروب والحواكير ...

دفنت جثامين الشهداء في مقبرة الشهداء، والكثير منها بلا ملامح، ولم يتم التعرف على أغلبها.

بدأت الاتصالات من جديد مع المسلحين الخاطفين، حيث كانت ردودهم تزداد تعنتاً بعد خساراتهم، وتحرير تلك القرى على يد الجيش العربي السوري.

وصار كل فصيل للمسلحين له مطالب تختلف عن الفصيل الآخر، وطالت المفاوضات، وتعثرت في كثير من المواقف.

ذات مساء اتصل أحد المسلحين ليقول لي:

- أنت زوج (عواطف معروف)

قلت:

- نعم

قال:

- زوجتك وباقي أسرتك قتلت في قصف النظام بطائراته، عندما كنا ننقلهم من قراكم نحو بلدة سلمى، ولم يبق لك أحد.

كنت أقول بيني وبين نفسي وهو يتكلم:

- هو يدرس ردة فعلي.

ثم أجبته:

- زوجتي لم تمت، هي مخطوفة، وأبنائي رهائن.

قال:

- هم أسرى، لا تقل رهائن، أو مخطوفين.

كنت أجاريه وأقول له:

- هل قرأت وصايا الرسول في حروبه: (لا تقتلوا عجوزاً أو امرأة، لا تقطعوا نخلاً....)

كان يجيب:

- أنتم موالون، ومن حقنا قتالكم.

كيف تشرح لمن أعار جمجمته للشيطان؟ للفكر الأسود؟ وصار عبداً للدولار؟

أعود إلى دمشق بعد شهر طويل... أمضيته في اللاذقية، وفي البيت صور أطفالي، أحتضنها وأبكي، ثم أهمس لهم وأنا أشاهد صورهم:

- ستعودون، أنتم أطفال.

خرجت للشرفة في ذاك اليوم، تفقدت تلك الوردات التي زرعتها زوجتي ذات شتاء، كانت كل الورود يابسة باستثناء وردة واحدة، تطلعت إليها وقلت:

- الأمل يجب أن يبقى، وستعودون للحياة يا أطفالي وأطفال تلك القرى، كما قاومت هذه الوردة شهراً بلا ماء وبقيت خضراء....

(11)

أخبار من إرهابي كان صديقاً...

صرت أنتظر أي خبر عن المخطوفات والمخطوفين، وخصوصاً زوجتي وابنتي (لجين) وأخي (ناظم سليم) وزوجته الممرضة (رحاب التزة) إذ لم أتعرف إلى جثثهم المنتشلة من المقابر الجماعية، فقد كانت جميعها مشوهة، وفاقدة لأغلب الملامح.

ومن خلال الاتصال مع أطفالي المخطوفين، كانوا يجيبون عن سؤالي عندما أسألهم عن أمهم وأختهم أنهم لم يعرفوا عنهما شيئاً.

ذهبت إلى بيروت مع مجموعة من الأصدقاء، لعقد مؤتمر صحفي، من أجل المطالبة بإطلاق سراح المخطوفين والمخطوفات، ومناشدة المنظمات العالمية الإنسانية من أجل الضغط على المسلحين، لمعرفة مصير أكثر من خمسة وثلاثين مفقوداً ومفقودة.

وكانت النتائج مبشرة أول الأمر، حيث ذكرت أغلب المحطات اللبنانية، وبعض الصحف الأجنبية الخبر.

ولكن، كنتيجة عملية على الأرض، لم نلحظ أي شيء يقربنا من أطفالنا المخطوفين، بل زاد الأمر سوءاً، وصار الاتصال مع أطفالنا أحياناً يبقى معطلاً لشهور.

وفشلت كل عمليات التفاوض، لا بل أخبرني أحد الوسطاء أن المسلحين يفكرون بالتخلص من الرهائن، لأنهم أصبحوا عبئاً عليهم في ظل نقص المواد الغذائية، وأن الكثير من المخطوفات في وضع حرج، وأغلبهن مصابات بأمراض خطيرة.

بعد عدة شهور، اتصل بي شخص عرفني عن نفسه أنه صديق أخي ماهر من أيام الجيش، وأنه يكن كل احترام وتقدير له، وبعد دقائق قال لي:

- أنت لم تسألني ماذا أعمل ومن أين.

قلت:

- تفضل عرفني عن نفسك.

قال:

- أنا مسلح من بلدة (سلمى) والآن أقوم بحراسة المخطوفات، ومن خلال سؤالي ابنتك عن اسمها تذكرت الكنية، وعرفت أن ماهر عم أولادك، وكرمال ماهر سأعتبر أولادك أولادي، لقد كنا أنا وماهر في الجيش أكثر من أخوين.

أخبرني أنه جلب لأطفالي اللباس والبسكويت، رجوته مرة أن يجلب لهم أقلام ودفاتر، ولكنه قال لي:

- هذا الأمر لا يقدر عليه.

كنا نتحدث عبر الواتس، وكم من مرة قال لي:

- إن الكثير من الإرهابيين حمل السلاح تحت التهديد والخوف.

طالت الأيام، وطال انتظار الإفراج عنهم، وطال القهر حتى غدت الدنيا ليلاً طويلاً من السواد والحسرة.

(12)

مفاوضات عبثية...

جاءت منظمة (هيومن رايس واتش) بعد أن حرر الجيش تلك القرى النائية والبعيدة في جبال اللاذقية، وبدأت توثق كل شيء تراه بعينها.

جاء الكثير من وسائل الإعلام، ووثقت الجرائم التي تركها الإرهابيون على الحجر والإنسان والأرض.

كان الجميع مكتوف الأيدي، والخوف يحاصرنا من أي ردة فعل قد تكون نهاية لمخطوفينا، ولا سيما أن الشواهد والدلائل كانت شاهداً واضحاً على ما يحملونه من فكر إجرامي بحت، فعلى سبيل المثال لا الحصر، أي شريعة أو قانون يبيح لهم ذبح امرأة مسنة ضريرة وهي عمتي (نسيبة)؟ أو عجوز تجاوز الثمانين عاماً وهو أبي المريض العجوز؟ والأمثلة كثيرة وتطول..

صار التواصل شبه يومي مع أطفالنا، بعد أن علم ذاك المسلح أنني أخو صديقه (ماهر) الذي كان رفيق سلاحه في الجيش، لكن الأمر لم يطل، فقد اكتشف اهتمامه الزائد، ونقل لمعسكر آخر، وانقطع الاتصال معه تماماً، وآخر مرة تحدثت معه، سألته إن كان يعرف شيئاً عن المخطوفات، وخصوصاً ابنتي لجين وزوجتي (عواطف معروف) أقسم أنه لا يعرف شيئاً، وانه سأل عنهما في المشافي الميدانية كلها، والجميع أخبره أنه لا وجود لهما...

في اتصاله مع أخي ماهر، قال:

- إن زوجة أخي الممرضة (رحاب التزة) لم يقتلوها، بل حملها في شاحنة ولم يعد يعرف عنها شيئاً، أما بعض صديقاتها اللواتي، وبالمصادفة، شاهدن على قناة فرانس 24 ممرضة تقوم بإسعاف الجرحى من المسلحين، هي (رحاب التزة) وهذه الأم لديها ثلاثة أطفال، أصغرهم كانت طفلة لم يتجاوز عمرها العام الواحد، وطفل آخر يبلغ عامين ونصف العام، وطفلة بعمر ستة أعوام، خطفت رحاب، وحتى الآن انقطعت كل الأخبار عنها.

لم تعد أي اتصالات بيننا وبين أبنائنا، والحجة أن الجيش يراقب ويتنصت على المكالمات، ليعرف مكان وجودهم ...

مضت شهور ونحن نخرج من مكتب مسؤول لندخل مكتب آخر، والجميع يعدنا أن الحل عند المسلحين، وأن طلباتهم تعجيزية، كيف سيتم مبادلة أطفال ونساء وعجزة بمجرمين ارتكبوا الفظائع؟؟!

هكذا كان يجيبنا أغلب من نلتقيهم.

وكان من بين الذين استلموا قضية المخطوفات الشيخ (زكريا سلواية) مفتي اللاذقية، وكنا تقريباً بشكل يومي نتواصل معه، وكان دائماً يجيب:

- لا تقلقوا سيعودون.

وطال الانتظار...

(13)

هي هواجس فقط...

أوصدت كل الأبواب بيننا وبين المخطوفات والمخطوفين، وبدأت الحملة المضادة، واللعب على وتر الطائفية والعشائرية من المسلحين، وعادت رسائلهم ومكالماتهم التحريضية تقول:

- (لو أن المخطوفات من آل الأسد، أو مخلوف، أو شاليش، لفاوض النظام وأعطانا كل ما نريد من طلبات، هل فكر النظام بالنساء والأطفال المخطوفين؟؟ هل قتل العجزة كان يعنيه؟؟؟)

هكذا بدأت رحلة التحريض، وكأنهم من خلال هذه العملية يريدون زعزعة الوضع الداخلي المستقر نسبياً في الساحل السوري.

كانت اتصالاتنا قد بدأت مع كل المنظمات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، للبحث عن حل، أو لتأمين أبسط وسائل الحياة للمخطوفين من لباس وطعام، وقد سافرت إلى لبنان مع ملف كامل وموثق لمجزرة ريف اللاذقية، وعرضته على وسائل الإعلام، وسلمته باليد لنائب السفير الروسي في بيروت، ودعوته للعمل والضغط على المجموعات المسلحة، من خلال مطالبة تركيا الداعمة للإرهابيين بإطلاق سراحهم.

ومن ثم قابلت نائب السفير الإيراني بدمشق، وأيضاً سلمته ملفاً موثقاً عن مجزرة الريف الشمالي في اللاذقية، وطالبته بالضغط على تركيا وقطر، ولا سيما أن إيران تقيم أفضل العلاقات مع قطر وتركيا...

كان الرد من قبله (لدينا ملفات كثيرة للمخطوفين والمخطوفات في سورية، ملفات (عدرا العمالية) و(اشتبرق) و(معان) و(الأشوريين) و(الكلدانيين) ثم قال:

- أعدك أننا لن ننساهم، وسنعمل على إثارة ملفهم في كل المحافل الدولية.

أعود إلى بيتي كل مساء، وقد هدني التعب والحنين لأسرتي، وآلاف التساؤلات تضرب صدغي، لماذا تأخرت عن إعادة أسرتي إلى دمشق؟

وأبدأ بسرد الأسباب والمبررات لنفسي.

مئات القذائف سقطت على دمشق، عشرات السيارات المفخخة انفجرت في شوارع دمشق.

كانت القرية والأهل هما الضمان لسلامة أسرتي.

كيف يمكن لمخلوق في الكون أن يبيح قتل فلاح أو فلاحة؟؟!!

كنت أقول: بيتي لا يبعد عن الكتيبة المجهزة بأحدث الأسلحة نصف كيلو متر، وهي في أعلى قمة جبل محصن بجروف صخرية عالية، ولكن كل هذه التوقعات تمزقت بين عشية وضحاها.

فقد قامت تلك الفصائل المسلحة بالتسلل إلى تلك النقطة العسكرية، وتم الاستيلاء عليها بعد أن ذبحوا خمسة وثلاثين عسكرياً، ثم سرقوا كل ما تحتويه تلك النقطة من دبابات وذخيرة، وتم نقلها باتجاه (سلمى) و(دورين)

أعود من تساؤلاتي، وأصحو قليلاً ماذا لو جئت بهم إلى الشام؟؟

كان طريق حرستا مقنوصاً بكامله، وعشرات الضحايا سقطوا عليه..

ماذا لو جلبت أطفالي عن طريق التل؟

كان المسلحون يسيِّرون دوريات باللباس العسكري للجيش السوري، ويخطفون على الطرقات ...

أي مصير قرار كان كارثياً، وكان الأفضل حسب توقعاتي هو البقاء في تلك القرية النقية.

(14)

وفي النهاية لقاء...

بعد حوالي عام تقريباً، تمت عملية التبادل الأولى بين الجيش والمسلحين، وخرج بموجب هذا الاتفاق خمسة وأربعون مخطوفاً، بين طفل وامرأة وشابة، ومن بين المحررين كانت ابنتي (جوى) وابني (وجد)

كنت في دمشق عندما سمعت في عصر ذاك اليوم نبأ تحريرهم من قبضة المسلحين، ولأن طريق حرستا كان يغلق بعد الرابعة عصراً، لأنه طريق الموت، بسبب قنص كل من يمر عليه من جهة (حرستا ودوما) قررت البقاء لفجر اليوم التالي، وفي الصباح الباكر، مضيت نحو اللاذقية للقاء طفليّ العائدين من رحلة الموت.

هاتفي لم يتوقف منذ ساعات، اتصالات متتالية من خالة أطفالي (مجدولين معروف) صور على الواتس لصغاري تأتي وهم قد خرجوا الآن من العتمة إلى النور.

في الساعة العاشرة، وصلت بشوق ولهفة لأحضن صغاري، لأرمم ما هدمه الإرهاب من أرواحهم الغضة العشبية، لأبلسم جراحهم، لأربت على أكتافهم المكسورة، وأقول ما زلنا هنا لن ننهزم، لن نخاف إرهابهم، وأرضنا وبيوتنا ستعود لنا، وسنسكنها من جديد، ونمسح بصماتهم الملوثة بعهر فكرهم وفتاواهم القذرة عن كل الوطن.

***

معان... قرية ووطن وبطولة

حكاية شهداء، وجرائم إرهابيين...

(لأنها سورية، وكلّ ذرة تراب من أرضها دونها حبل الوريد)

(فإن تهدموا بالغدر داري فإنها ... تراث كريمٍ لا يبالي العواقبا).

شوق ...

هكذا أنا أكتب حكاياتي بلهفة عاشق

رسالة من القلب...

حيث ما لا يُعلن قد يكتب

أو يُحكي للقمر..

أو يُخبأ في موج البحر المالح...

إليك...

سلام الضوء على خضرة الزيتون في عينيك

وقد رشفت فلسفة رؤى المحبة من رحيق النحل

إلى سدرة منتهى الزرقة في السماء...

يا لوجهك زاده الله حُسناً ونضارة...

أخجل حمرة الورد، فرتل على الخدين صلوات العطر

كلما ضاق وجع الأيام على معصم قلبي..

تمر ابتسامتك على وجه الصباح...

يصير الحبق نداياً، وتنشق نوافذ الضوء على وميض فرح!.

***

قالت أمي الشهيدة فطوم..وكنا في أيام الشتاءات الماطرة، حيث كان الفقر رفيقنا بلونه الممتقع كعتم ليالي كانون الباردات:

"اسمع يا بني وتعلم أن الملح يحفظ الأشياء من التلف"

غيوم سوداء داكنة، شكلتها الرياح العاصفة، غطت سماء قريتنا "معان" كأن ضجيج العجاج ينذر بالخراب.

هي الذكريات تستعيدني يوم كان يلمنا البيت الطيني الذي بناه أبي وأمي، هذا البيت نفسهُ الذي نالوا فيه شرف الشهادة.

وكنا مع كل غروب للشمس يخيم الصمت علينا، ونحن نرقب وقع دعسات قدمي والدي العائد من سهول القمح، وجسده ينزف عرقاً برائحة النعناع البري.

كنت أعرف صوت خطواته على الأرض قبل أن يصل إلى باب الدار.

ألتفت إلى أمي قائلاً: جاء أبي.

تضحك "عم قول ساكت وعامل حالك آدمي"

يفتح الباب، وبابتسامة تشبه شفق الشمس يبادر أمي فطوم:

"الله يمسيكم بالخير"

ترد: الله يسعد مساك بكل خير، ويعطيك العافية الطعام جاهز اغتسل من تعبك وتعال، الأولاد ينتظرون.

يا لتلك العشاءات التي لا تغيب عني.

يومها لم أكن أعرف أن الغياب يقسم الرؤى، والزمن، والأمكنة، ويحول أجساد الراحلين إلى مجرد صور معلقة على حيطان قلوب وبيوت مَن يحبونهم...!

الفاجعة:

الأمكنة وحدها تدرك عمق الجرح الذي تركوه لنا في غيابهم المفجع، وكيف خالجت أنفسنا مشاعر لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات مهما تعمقت في بحور اللغة، والسؤال الحائر الذي بادرني فيه ابني إبراهيم.

كيف أكتب عن تلك البيوت التي حوّلها الإرهابيون إلى كومة خراب ودمار، حتى بدت خاوية، كأنها لم تُسكن من ألف عام، وهي التي كانت تضج بالناس والحياة والعمل؟ وكيف أكتب حكاية عن جده الشهيد إبراهيم؟

هو فلاح يملك تاريخا حافلاً بالحكايات التي لا تتسع لها صفحات رواية... والفلاحون من أكثر الناس معرفة بالأرض وأسرارها، فهم ملتصقون فيها كحال الشرايين في جسد الإنسان، وحدهم يدركون قيمة كل ذرة تراب من أراضيهم التي يغرسونها ويزرعونها ويطعمونها سنيّ أعمارهم وتعبهم، ويسقونها عرق جباههم.

يقول ابني إبراهيم: وكيف ستكتب عن هؤلاء الوحوش الإرهابيين، الذين قتلوا، واغتصبوا، وشردوا، وحرقوا أشجار الفستق الحلبي، والزيتون، وكروم الدوالي، وذبحوا أهلنا في قريتنا "معان"؟

ونحن صرنا نطحن الصبر خبزاً، وصارت أيامنا تشبه تلك البيوت المهدمة.

هاتي يا عليا، محبرة الجمر، بدأت الحكاية...

إذاً هي غربة الروح، وليس الجسد وحسب، حيث أقفرت قريتنا من سكانها، وصارت كومة خراب.

ذكريات تتنهد كموقدة أمي التي كانت ترمي فيها الحطب، وبقايا روث المواشي...

حيث لم يكن في القرية لا ماء ولا كهرباء ولا مدارس ولا مستوصف.

قالت عليا: هو الغياب، نار مشتعلة في الصدر، لهيب يكوي كيّاً، وها نحن نغرق

في (بئر حزن يعقوب على يوسف).

تئن أرواحنا أنين ناي قصب مبحوح في البراري أيام الحصاد...

والأمكنة صارت تنز صمتاً رصاصياً، ودموعنا جمرات، كأنها خارجة من عين البركان!

كان ذلك المساء يوم الرابع والعشرين من شهر أيار عام /2013/ كنت وعائلتي وأخوتي نجتمع في بيت والدي الشهيد، يوم قرر أن يترك بلدة "الشيخ سعد" في محافظة طرطوس، والذي جاءه بعد اعتداء الإرهابيين على القرية، وحاصروها من الجهات الأربع: مورك، وصوران، وعطشان، وكراح.

وبعد إصرار منا، نحن أولاده الذين نسكن في مدينة طرطوس، قَبل أن يترك القرية مؤقتاً، ريثما يفك أبطال الجيش العربي السوري، طوق الإرهاب عنها.

ولكنه لم يستطع العيش بعيداً عن بيته وأرضه وناسه، ومن دون مقدمات قرر أن يعود إلى بيته في قريتنا "معان" الواقعة في الريف الشمالي لمحافظة حماة، والتي بدت مرهقة، تتهالك من كثرة هجمات الإرهابيين الذين يقصفونها ليلاً نهاراً...

فهم يؤكدون من خلال كتاباتهم على صفحاتهم السوداء مثل وجوههم الكالحة عبر تواصل "الفيس بوك" أنهم في حال سيطرتهم على قرية "معان" يدب الرعب في قلوب الأهالي في باقي القرى المحيطة بمعان، عندها يستطيعون السيطرة على المنطقة كلها دفعة واحدة، نظراً لتوسطها كل القرى والبلدات التي ينطلق منها الإرهابيون في هجماتهم على القرى والبلدات المؤيدة للدولة ومؤسساتها، وفي مقدمها مؤسسة الجيش العربي السوري.

قال والدي: اسمعوني يا أولادي جيداً...

أنا هنا في الساحل شبه غريب، لا أستطيع متابعة حياتي، ولا يمكن أن يعيش المرء هنا مرتاح البال، وقلبه معلق هناك في الشرق، حيث بيتي وأرضي وناسي "صحيح هنا البيوت متقاربة، ولكن القلوب متباعدة"!

بوضوح البيان قال: هواي شرقي، وهنا طبيعة تشبه الجنة، بحر وسفوح زيتون وجبال سنديان وقمم عاليات، ومدينة ساحرة تغفو على كتف البحر، يعيش الموظفون وأهلها الذي يملكون حقول زيتون صغيرة بهناء، يحميهم الله وأرواح الشهداء وأبطال الجيش العربي السوري الذين يذودون عنهم بمحاربة الإرهابيين، فيكونون حيث يجب أن يكونوا وقد لبوا نداء سورية، وأنا ابن الشرق، فلاح، ولم أعتد العيش هكذا من دون عمل، خلقت في "معان" التي

تستيقظ على الفجر، وتغو على كتف البادية في ليلها الهادئ، أمارس كلّ طقوس زراعة الأرض، فإمّا أن أعيش بكرامتي وإمّا أموت فيها، هذه الحرب التي تعصف في بلدنا الحبيب سورية، وتريد تدميرها وتقسيمها وتفتيت وحدتها الوطنية، هي تعنيني كما تعني كل جندي في الجيش العربي السوري، وأنتم تعلمون جيداً، إذا بقيت من دون عمل كأنكم تحكمون عليّ بالموت، وأنا لم أزل على قيد الحياة.

بهدوء الحائر قلت: ولكن يا أبي، قريتنا محاصرة بالإرهابيين من كل جهاتها، وأنت لا تملك سلاحاً، وأمي وأختي ترفضان البقاء هنا، تصرّان على مرافقتك إذا قررت العودة.

التفت نحوي بعينين لامعتين، وقال:

ذكرتني يا حسن، بحديث سيدتنا "حبابة الوالبية" حين لاقت سيدنا (الحسين بن علي) عليهما السلام، وهو يتقدم موكباً مهيباً من آل البيت وصحبه، وقفت أمام فرس (الحسين) وقالت شغفة به: إلى أين أنت ماضٍ يا سيدي، يا بن بنت رسول الله؟

ابتسم وقال: إلى كربلاء.

قالت: والله لقد سمعت جدي رسول الله يقول: إن مقتلك سيكون هناك.

قال: نعم، وأعرف من هو قاتلي، وفي أي يوم سأقتل.

قالت: ويلاه من صبركم يا آل بيت رسول الله.

قلت في سري: يا إلهي ما أصبرك يا أبي!

كنا جميعاً نصغي بصمت، ووالدي يتابع حديثة، وقد غص الدمع في عينيه، كحالنا ونحن نستمع، وفي عيوننا دمع حبيس، نخاف أن ينفلت، فنوجع قلبيّ أمي وأختي وصال.

تابع والدي قائلا:

فماذا أقول لرسول الله يوم ألقاه، حيث لا ينفع مال ولا بنون؟ وتيقنوا أننا نحن لا نخشى الموت، فالموت علينا حق، وتأكدوا أني لن أترك بيتي وأرضي

لهؤلاء الإرهابيين الغرباء عنا، يعيثون فيها فساداً وخراباً، عناصر الجيش في القرية، ونحن إذا كنا لا نستطيع القتال، فمن واجبنا أن نكون على الأقل معهم، بوجودنا في القرية تقوى عزيمتهم على الصمود.

صمت مهيب ولا حتى همس الأطفال...

بعد حديث والدي لم أقل ولا كلمة...

في الصباح غادر والدي ووالدتي وأختي وصال إلى القرية، ومن يومها لم أرَ وجوههم، ولكنني كنت على اتصال معهم بشكل يومي، ومرات عديدة، إلى لحظة نيلهم شرف الشهادة في الساعة الثانية إلا ثلثاً، يوم التاسع من شهر شباط /2014/

لحظة الاستشهاد...

يوم الوداع، قالت أختي وصال، وفي صوتها بحة وداع حزين:

(والله يا غالي... يمكن الإرهابيين صاروا في أرض دارنا)

يا إلهي! كيف السبيل إليهم، وحول القرية "بحر من الإرهاب" وهؤلاء الأوغاد في غالبيتهم كانوا لصوصاً ومهربين، وزعران الحارات، وبقايا من الإخوان المسلمين الذين حاولوا النيل من سورية، دولة المؤسسات، في مطلع الثمانينيات، ولكنهم فشلوا، وبعدها تحولوا إلى تجار، وشيوخ فتاوى الفتنة، انتفخت كروشهم من فائض عائدات "النفط الوهابي الرجعي العربي" ومعهم جموع من المرتزقة والعملاء الذين جاؤوا من كل أنحاء العالم إلى سورية، بإدارة أمريكية وإسرائيلية.

ها انا أسمع جعيرهم عبر الهاتف النقال العائد لأختي وصال، وهو يقول لوالدي:

(اسمع يا ختيار... سلم نفسك وسلاحك ومن معك، واستسلم لنا نعفي عنك)

قال والدي ويده على زناد البندقية بصوت كلهُ ثقة وإيمان:

(هذا بيتي، وهنا منذ ولادتي أعيش، وهنا أموت، وأنتم غرباء عنا، جئتم تريدون قتلنا وتدمير بيوتنا، ونحن أهل كرامة وعقيدة، مؤمنين بأن الله حق...

وأن الشهادة قدر، وأن الدفاع عن سورية وعن العرض والبيت من العبادة، اتركوا بيتي)

تنهد بحرقة وهو يجول بنظرات عينيه الخضراوين على زوايا البيت، وجهات الأمكنة كأنه يودعها، وتابع كلامه:

(تأكدوا أن أبطال الجيش العربي السوري لن يتأخروا عنا، اسمعوا مني وارحلوا قبل فوات الأوان)

رد أحد القتلة المهاجمين: (اسمع... أنت رجل أدمي وسمعتك عند الناس جيدة، وزوجتك ختيارة، وبنتك صبية محاصرين معك، ولن تستطيعوا منعنا من دخول البيت، لهيك تعال وسلم نفسك تسلم)

قال والدي حاسماً: (اسمعني مليح، أنا هنا بيتي، وأدافع عنه وعن عرضي بروحي، ولن أسلمكم حالي ولا أهل بيتي إلا على جثتي، لا تحاولوا، ارحلوا عنا، الجيش آتٍ)

بهذه الكلمات خاطب والدي الشهيد إبراهيم موسى الناصر الإرهابيين القتلة عندما طلبوا منه أن يُسلمهم نفسه وزوجته وابنته وسلاحهُ!

ذلك اليوم الموعود بالمطر من شهر شباط لعام /2014/ أوجع قلبي، حتى صارت روحي تنزف كلمات من جمر أكتبها في حكاية شهيد، وأنا الحب عندي، مثل الماء، والهواء، وحبات الحنطة، ومثل زرقة البحر والسماء، لا يمكن الاستغناء عنها.

هنا، في غربة بقايا العمر، أنظر إلى البحر مسكوناً بالشفقة على أيامي التي توالت عليها الخطوب بلية فبلية، حتى صرت أشعر بأن الحزن النقي كماء السماء يروي ظمأ روحي، ويتغلغل في نقي عظامي، ويجري في شراييني، وكلما نظرت إلى السماء أرى وجه أبي الشهيد إبراهيم "رحمه الله" وهو يؤدي طقوس فلسفة الحق في الفجر متنقلا في حدائق شعر "المنتجب" و"المكزون" متكئاً على رمل الربذة، حيث أبو ذر الغفاري ينادي في الناس من أجل إحقاق الحق، ويمر على حدائق شعر أبي نواس، والمتنبي، وأبي فراس الحمداني، ينهل ما استطاع من عذوبة الكلمات التي صارت قصائد لا تُنسى.

كم سمعته في الفجر يرتل من شعر المنتجب:

يا بارقا لاح من أكناف كوفاني.... لقد هيجت لي أشواقي وأحزاني

هات الأحاديث عن جرعاء كاظمة... فلي بهاتيك الربى عاني

فلسفة، كانت تُشعرهُ بالدفء، وتُشعرني بالقشعريرة، وأنا أبحث في معانيها وأفتش عن مسار يزيل الغبش عن عيني كي ألج محراب الضوء بانتظار شمس النهار.

هكذا أنا، كلما عدت إلى ذاكرتي أجدني معجوناً بالحزن والحنين.

بعد ان صرت هنا بعيداً عن البادية وبيادر القمح... ومن قبلها كنت قد ودعت ياسمين الشام المسكون بصوت المآذن والنواقيس وفيروز وهديل اليمام، ورائحة هيل قهوة الصباحات... وجئت البحر...!

والبحر كالأنثى، كل ما فيها مغرٍ.

وأنا في غربة الجسد أذوب في غوايته كذوبان الملح في موجه الهادر.

حكايا العشق لا يفهمها إلا الراسخون في الحب.

بدء الحكاية...

(من وحي حكايا شهداء قريتنا معان)

- عند الشهيد تلاقى الله والبشرُ-

والدي الشهيد: إبراهيم موسى الناصر

من مواليد /1930/ محافظة حماة قرية "معان"

الريف الشمالي الشرقي.

لا أدري كيف أقبض على القلم وأكتب، كأني أرتب المفردات بأصابعي المرتجفة في موقد مشتعل، أتلمس الجمر بكفي جمرة جمرة...!

حتى تكتمل مفردات حكايتي، كأنها موجة ملح على جرح نازف.

وكيف تكتمل وأنا يكابدني الحنين، وروحي تضج منشغلة بالشوق، ما أصعب أن تكتب وجعك...! وهل أستطيع اختصاره في حكاية، هي رواية تمتد

أربعة وثمانين عاماً من حياة الشهيد والدي.

وأنا هنا لا أكتب كمحب مغالٍ... مع أنه يستحق... لا أبداً، ولكن أكتب لأنه إنسان، يتمتع بكل صفات الإنسان الذي لأجله خلق الله كل هذا الكون. الإنسان الذي قال عنه الراحل القائد المؤسس (حافظ الأسد) "الإنسان غاية الحياة وهو منطلقها".

ووالدي الشهيد لم يغادر القرية كما غادرها الكثيرون من أبنائها حين تعرضت لهجمات الإرهابيين المتتالية، منذ بدء هذه الحرب الهمجية الإرهابية على سورية الوطن حتى نال شرف الشهادة.

كان رحمه الله يقول: قدوتنا بنيل شرف الشهادة "الحسين عليه السلام"

لن نترك بيوتنا وأرضنا مهما كان الثمن.

حتى جاء هذا الوباء الجاهلي، وانفتقت أرض البادية عن جموع من أولاد الأفاعي، وأخرجت من جحورها كلّ تلك الجموع المتوحشة من قطعان الضباع والذئاب والقتلة المأجورين.

الآن عرفت من أين جاء كلّ هؤلاء الخونة والعملاء والمارقين والمتوهمين والظلاميين، عبيد النفس الأمارة بالسوء... أصحاب نظرية "الفوضى الخلاقة" وقد تم حشو أدمغتهم بفتاوى الحقد الإخواني والوهابي.

هذه الفوضى الخلاقة التي حدثني عنها كثيراً والدي الشهيد "رحمه الله".

كنت دائماً متيقناً من إيمانه بالله وسورية ووعيه الفكري.

وهو الفلاح الذي لا يمل من العمل في الأرض.

وأنا كنت أعرفهُ كما أعرف نفسي

وكنت أحاول أن أمضي جل وقتي إلى جانبه، أسمع حديثه في السياسة والأخلاق

والقيم وفلسفة العرفان.

الهجوم القاتل:

يوم بدأ الهجوم على قريتنا "معان" المحاصرة، كان حالي كحال كل أبناء قريتنا، على اتصال مع أهلنا المحاصرين كل لحظة بلحظة، حتى تم انقطاع الاتصالات عند الساعة الثانية إلا ثلث ظهراً من يوم التاسع من شباط 2014 بيني وبين شقيقتي الشهيدة وصال.

كيف أنسى وهم يسكنون ذاكرتي وتفاصيل حياتي؟ تركت القلم، مسحت دموعي المنهمرة، أشعلت لفافة تبغ وأنا أتأمل صورهم المعلقة على جدران بيتي.

- "معان" قرية تغفو في سرير ليل الحكايا، وعلى حواف سهول القمح وكروم الفستق والتين في ريف محافظة حماة الشمالي الشرقي، كلماتي طلقة رصاص في مواجهة الذين خانوا خبز التنور، وفرح الأعياد، وعتبات البيوت الطينية، وبيادر القمح، وخانوا الجيرة والتآخي والمحبة، غرقوا في الوهم وفتاوى الفتنة الظلامية، مجرمون يريدون تدمير بنية المجتمع السوري من الداخل، كي يحققوا حلم الاستعمار القديم في تقسيم سورية؟!

قتلة مرتهنون لفتاوى السواطير، يهددون كلّ مَن يُعارض أفكارهم الهدامة، المشوهة، المتعفنة بالجهل العثماني والإخواني.

قالت أختي وصال: المتوحشون حاصروا البلدة من جهاتها الأربع، وأطبقوا عليها بقذائف الهاون والرشاشات ومدافع جهنم.

قال لي أحد الناجين من الموت:

- قبل وصول المتوحشين، جاء قائد النقطة العسكرية للجيش التي تحمي القرية، وطلب من والدي الشهيد إبراهيم أن يرافقهم إلى مدينة حماة، ومن هناك يتم ترحليهم مع باقي أهل القرية إلى مدينة مصياف، أو بلدة سلحب، أو محافظة طرطوس أو حمص أو أي مكان يريدون الذهاب إليه.

قال والدي:

- كيف تتركون القرية لهؤلاء القتلة الهمجيين قبل وصول قوة كبيرة من الجيش تحمينا، وتُساندكم بالتصدي لهؤلاء الإرهابيين؟!.

نظر الضابط في عينيّ أبي الزيتونيتين، غص بالدموع وقال:

- ربما سيتأخرون يا عم أبو موسى، هكذا يبدو، سيتأخرون!

رد حاسماً: (فليكن ...نحن باقون نستشهد أو ننتصر)

بعد ذهاب أفراد النقطة العسكرية بساعة، اتصلت مع أهلي قالت وصال:

- القتلة صاروا في الحيّ، وهاهم يحومون كالضباع حول البيوت.

سمعت عبر الهاتف، صوت ذئب يعوي، كان يرتدي قناعاً بشرياً قائلاً:

- أنت يا ختيار سلم نفسك بيتك محاصر.

أجابه والدي بصوت قوي وقلب سوري مؤمن صابر:

- هذا بيتي... ولا يمكن أن أترك بيتي وعرضي للضباع، اتركوا داري وارحلوا، قريباً تصل قوات الجيش السوري، ستدفعون الثمن .

رد أحد القتلة ساخراً:

- لن يصل إليكم أحد، نحن نسيطر على المنطقة، ولا مجال لكم للنجاة.

حسم والدي الشهيد ابراهيم الناصر الموقف بطلقة من بندقيته الروسية، أردت أحد الأوغاد المهاجمين قتيلاً، وتابع:

- قلت لكم تراجعوا عن بيتي، لن أسلم نفسي وعائلتي مهما كان الثمن، إذا كان لابد فأهلاً بالشهادة.

يا أخا الحزن يعقوب ويوسف، فلتكن النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

قلت ودمع العين منسكب، يا نار كوني برداً وسلاماً على أبي إبراهيم.

كأنني به يلتفت إلى ابنته وصال، قائلا وهو رابط الجأش عميق الإيمان:

- أنا أعرف أن قلبك مملوء بالمحبة، لقد ربيتك على الصبر، فكنتِ كأنك كلّ العائلة، انتبهي، ستكون البندقية لك من بعدي، الموت علينا حق، ثقي بالله و لا تسلمي نفسك لهؤلاء الضباع والذئاب المتوحشة ينهشون جسدك، حافظي على الوعد، ليعرف هؤلاء القتلة بأننا نموت كالسنديان واقفين، ولا نستسلم للذل.

شهق بدموعه وغص بالكلمات "نلتقي عند اللّه"

يا من أغثت يعقوب، يا مولاي أغثني.

قالت الشهيدة وصال: انتبه يا أبي...

كانت الرصاصة الغادرة أصابت صدره.

تابعت كلماتها لا يمكن ان نفترق " نبقى معاً أو نموت معاً".

قبل الرحيل الفاجع كنت أتصل وترد على اتصالاتي المتكررة شقيقتي وصال، بصوتها الشغوف بالحنين، قالت: نحن نختبئ في بيتنا القديم، ومن الصعب على هؤلاء القتلة كشف المكان، إلا إذا كان هناك خونة من أبناء القرية، ويبدو كان الخونة منتشرين متل الفطر السام في جسد الأرض!

قلت:

- يبدو أن الخونة في كل مكان يا شقيقة الروح، كان هؤلاء الظلاميون يعرفون تفاصيل القرية، وعدد الموجودين فيها من الأهالي الصغار والكبار والنساء، وعدد أفراد الحامية العسكرية التي تحمي الضيعة، وكان عددهم لا يتجاوز العشرين مع ضابط! وما هي سوى لحظات حتى انهمر الرصاص الغادر على البيت بمن فيه...

يا أخا الحزن كن صابراً.. قلبي ينزف.

تنزف الأسئلة كهذا الزمن الموجوع، الصور تصفع وجهي بسيل من الأحزان،

يا إلهي أين أخبئ قهري؟

كيف سيطل الفجر ولا يجدك في محرابك يا إبراهيم!!!.

وهكذا قُدمت القرية وأهلها أهلنا.. كوكبة من شهداء قريتنا معان على مذبح الوطنن منهم من لا ندري عن جثامينهم الطاهرة أي شيء "ومنهم أهلي الشهداء" ولا أين أخفاها هؤلاء القتلة الظلاميون.

ومنهم مَن توزع تراب سورية جثامينهم الطاهرة، وخاصة في مدينة مصياف، وبلدة المحروسة، وبلدة سلحب.

أشعلت لفافة تبغ ونفخت الدخان في الهواء المتجه للشرق...

يا إلهي، قبل لحظات من الذبح كُنت أحكي مع شقيقتي الشهيدة وصال.

قالت: لا تقلق يا شقيق الروح، نحن ننتظر وصول الجيش السوري، ولن نخاف من هؤلاء القتلة المجرمين، سمعت والدي يقول: ثقوا بالله نحن نستشهد لتبقى سورية... ثم قُطع الاتصال بيننا.

تأخر وصول الجيش للقرية ساعات قليلة، كان عدد المدافعين عن القرية قليلاً، والمجرمون جموع وحوش، همج، ضباع وذئاب وخنازير.

ذبحوا وقتلوا وبقروا بطون الأمهات، ودمروا البيوت على ساكنيها، وحرقوا أشجار الفستق والزيتون..!

يا صبر أيوب.

ومع شمس نهار اليوم التالي وصلت قوات الجيش العربي السوري، وتم القضاء على الإرهابيين وطردهم من القرية كلها، وعلمنا أن كثيرا من أهل القرية ارتقوا شهداء.

تحدث كثير من الناجين من الموت عن أختي وصال، قائلين:

لم تتردد، ولم يكسرها استشهاد والدها، الوقت يمر والأعداء يقتربون، قبلت يديه وجبهته المطهرة بالضوء والدم، ضمت أمها إلى صدرها كأنها هي أمها وقالت:

لا تخافي يا أمي، لم يزل في بندقية أبي رصاص، أخذت البندقية بعزيمة أنثى مجروحة تدافع عن عرضها وأرضها، وتابعت إطلاق النار على المجرمين الذين اعتدوا على البيت وأهله، سمعت عواءهم، عواء وحوش.

يوم لا يُنسى 2014/2/9 مواكب تمشي إلى الضوء!

كلمات أكتبها بنزف الروح، هذه قريتي معان وأهلها، تُذبح من مطلع الشمس

حتى بيادر القمح.. كيف أنسى وجوههم؟!

الشهداء بيادر قمح وغلال زيتون وغرس سنديان... سيبقون في ذاكرتنا وذاكرة الأجيال صفحات ناصعة من تاريخ سورية المعاصر

ملاحم وبطولات أذهلت العالم كله، كتبها أبناء سورية الذين دافعوا عنها بالروح والدم والسلاح والعلم والفكر والثقافة والإبداع...

صبروا وضحوا واستشهدوا وما بدلوا تبديلا..

ولا تنتهي حكايات الشهداء، ستبقى منارة للتاريخ وللأجيال.

أهلي الشهداء:

- الشهيد إبراهيم موسى الناصر. مواليد 1930
- الشهيدة فطوم أحمد ميهوب. عمرها أكثر من ثمانين عاماً

الشهيدة: وصال إبراهيم الناصر. مواليد 1974

تاريخ الاستشهاد 2014

المحتوى

.. ويعودون ـ د. محمد الحوراني 7
أساطير القرن الحادي والعشرين ـ نصر محسن 9

ملف الشهداء 11
بين زفافين / حكاية الشهيد البطل علي أحمد جاسر 13
زهور آل فضيل / حكاية كوكبة من شهداء جبل الزاوية الأبطال 17
شهيد ابن شهيد / حكاية الشهيد البطل شعبان رضوان العوجا 19
ابتسامات حزينة / حكاية الشهيد البطل عصام عبد الله 22
الابتسامة الأخيرة / حكاية الشهيد البطل يونس مرداش 25
المنزل الآخر / حكاية الشهيد البطل محمد غصّة 29
نبض القلب / حكاية الشهيد البطل أنزور أباظة 32
فيروز والمعركة الأخيرة / حكاية الشهيد البطل محمد محسن أحمد 37
"أبو زينب" / حكاية الشهيد البطل عبد المهيمن محمود الشحادة 40
حياة أخرى / حكاية الشهيد البطل مهند هيثم عباس 42
سائق البولمان / حكاية الشهيد البطل محمد الطويل 45
هي المروءة / حكاية الشهيد البطل أحمد علي محسن 48
الوفاء / حكاية الشهيد البطل نشأت توفيق حاجوج 51
وسامٌ على صدر حلب / حكاية الشهيد البطل علي شاهين شاهين 54
قمر يضيء في ليل طويل / حكاية الشهيد البطل أحمد زياد أبو خولة 58
عاشقُ التُّراب... شهيدُ الواجب / حكاية الشهيد البطل نبال محمد حسن 64
الإحساس بالموت / حكاية الشهيد البطل محمد خالد الحسين 68
"نموتُ لتزهر الأجيال فينا..." / حكاية الشهيد البطل حسن إبراهيم حسن 72
الأصيل / حكاية الشهيد البطل سالم العلي 75
أرواحهم / حكاية الشهيد البطل بشار حبيب 80
كل شيء للوطن / حكاية الشهيد البطل صالح إبراهيم 86

ملف الجرحى 89
أيّام النار / حكاية الجريح البطل حذيفة جابر ديب 91
من أجمل المكاشفات، وأصدقها على الإطلاق / حكاية الجريح البطل علاء درباج 95
وعدتُ حيّاً / حكاية الجريح البطل سامر شيخ عيسى 101

المعمعة / حكاية الجريح البطل علي أحمد ديب 117
الوطن أولاً وأخيراً / حكاية الجريح البطل رياض عبد الرحمن الدليمي 123
من يوميَّات مقاتل / حكاية الجريح البطل محمد عمر جمعة..... 126
قاهر المفخخات / حكاية الجريح البطل رمضان أحمد تجور..... 128
وعد الحرّ دَيْن / حكاية الجريح البطل خالد نذير زلف..... 132
وحيد، لكنني لست وحيداً / حكاية الجريح البطل حسن محمود مرعي..... 135

ملف جرائم الإرهابيين.....139
مأساة في عش الورور / حكاية الشهيدة مريم عباس ديب 141
خريفُ تمّوز / جريمة في قرية الشبكي..... 144
مرح والفستان الجديد / حكاية الشهيدة مرح نادر الصباغ 152
وعد الرجال / حكاية الشهيد الأديب علي أحمد عبد الله..... 155
ربيع الذئاب / حكاية اختطاف الشاعر والإعلامي محمد خالد الخضر 163
ملحمة الجبل / حكاية شهداء محافظة السويداء الأبطال..... 170
الطريق إلى الروضة / حكاية الشهيد موسى إبراهيم الحداد 175
العائلة الشهيدة /
الشهيد البطل عبدو خضر التلاوي، علي عبدو التلاوي، أحمد عبدو التلاوي، خضر فوزي التلاوي 179
اغتيال الكلمة الحرّة / حكاية الشهيد الشاعر محمد بشير العاني..... 182
شهيد النخوة / حكاية الشهيد البطل وسيم سعيد الحجلي 185
أبو فرحان ...!! / حكاية قرية عين الدنانير 187
فراشة بيضاء وسماء / حكاية الشهيد عبد الكريم بعلة 192
وللخطف قصة أخرى / حكاية المقاتل البطل أحمد علي عون 196
تسعة عشر يوماً في عدرا العمالية / حكاية مجازر الإرهابيين في ضاحية عدرا العمالية..... 200
مقابر الجمال / ما جرى في ريف اللاذقية الشمالي 208
معان... قرية ووطن وبطولة / حكاية شهداء، وجرائم إرهابيين... 236